فلسفة
التاريخ الإسلامي

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

فَلْسَفَةُ
التَّارِيخِ الإِسْلامِي

تأليف

د. محمّد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مقدمة

من أعلام الأزهر
الشيخ الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

ـ الأزهر العظيم، جامعة الجامعات، وملاذ العلم والعلماء على امتداد العصور، وصاحب الألف عام أو يزيد في تخريج علماء الشريعة والدين واللغة والأدب والفكر، ممن قادوا العالم الاسلامي على مراحل فترات التاريخ.

ـ ١ ـ

الازهر فخر الدنيا، ومجد مصر، وقبلة العالمين الاسلامي والعربي، وأكرم به بيت الشرق والمجد والتاريخ والفقه والفتيا واللغة.

ألف عام مضت وهو يقود العالم الاسلامي الى النهضة والعلم والمعرفة والثقافة الحقة والى التقدم والحضارة والمدنية وباجماع المفكرين أقول: لولا الأزهر ما كانت علوم الدين واللغة العربية على ما هي عليه اليوم من ازدهار وتقدم.

علماء الأزهر ظلوا حتى اليوم مصابيح الدنيا، ونجوم الفكر، وكواكب الهداية، وحملة الرسالة ودعاتها وهداتها والمدافعين عنها.

نحن اليوم مع أزهري معاصر، طاف بالعالم الاسلامي من الهند الى المغرب، وكتب موسوعات علمية، تنوء بالعصبة أُولي القوة من العلماء، وكان لسان صدق لمصر وللأزهر في كل مكان، وعرفته بيئات المستشرقين، ودوائر

الجامعات في الغرب والشرق، وكتب اليه في كثير من أمور الثقافة والعلم والدراسات العليا ورسائل طلابها وبحوثهم وفي شئون الأساتذة ومشكلات الدراسة.

ولقبه المعاصرون «سيوطي» العصر حينا، وبشيخ «الدكاترة» حينا آخر، وبـ «ابن الأزهر الوفي» حينا ثالثا وهو الشيخ العالم العلامة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي.

- ٢ -

في عام ١٩٥٣، أي منذ نحو الثلاثين عاما، كتب الدكتور طه حسين يدعو الى أن يكون منبع جامعة الأزهر والجامعات المصرية واحدا، هو المدرسة الثانوية التي تستمد طلابها من مدرسة ابتدائية، بمناهج متوسطة بين مختلف الثقافات، وتؤول جميع معاهد الأزهر الابتدائية والثانوية الى وزارة التربية، فيصبح منبع التعليم الجامعي واحدا.. ويصبح التعليم الابتدائي والثانوي تحت اشراف وزارة التربية... ولم يرض الأزهر بذلك، وكتب الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي كتابه الخالد «الازهر في ألف عام» في ثلاثة أجزاء يبسط فيه الكثير من الحقائق عن تاريخ الأزهر وعلمائه خلال ألف عام.

وكان الكتاب رائدا حقا في بابه، وصار مرجع الباحثين جميعا، وأصبح موضع عناية المستشرقين واعجابهم، وكان خير دفاع عن الأزهر الذي لم ينصفه أصدقاؤه ولا أعداؤه على السواء.

والخفاجي أزهري الثقافة والمعرفة، أزهري الروح والفكر.. كتب عنه وله مختلف الصحف والمجلات في مصر والعالم العربي والاسلامي، وصدر عنه أكثر من عشرة كتب ما بين صغير وكبير، ونشرت عنه أكثر من مائة ترجمة، في مختلف المصادر والمراجع المعاصرة، وله صلة وثيقة برجال الفكر والأدب والعلم واللغة في العالم العربي، ومثّل مصر والأزهر في مؤتمرات كثيرة منها المهرجان الألفي لابن زيدون في الرباط عام ١٩٧٥، ومنها مؤتمر الأدب العربي في

ممبادا بالهند عام ١٩٨١. ومنها كذلك المهرجان الثقافي والأدبي في الخرطوم عام ١٩٧٥.

وقد عمل أستاذا زائرا في جامعة محمد بن علي السنوسي الاسلامية في ليبيا قبل ثورة الفاتح من سبتمبر، كما عمل كذلك في جامعة محمد بن سعود الاسلامية بالرياض، وفي جامعة الخرطوم، وجامعة أم درمان، وغيرها من الجامعات العربية.

وأشرف على مئات من رسائل الماجستير والدكتوراه لطلاب من مصر ومختلف أنحاء العالم العربي والاسلامي.

وآخر ما كتب عنه ما نشرته مجلة «آفاق ثقافية» التي تصدر عن جامعة الكويت (عدد أكتوبر ١٩٨٢) فقد نشرت تحقيقا ضخما عن حياته وكتبه ومؤلفاته وأعماله العلمية والأدبية.

وآخر كتاب صدر عنه هو «موكب الحياة» في ثلاثة أجزاء، يحكي قصة حياته من ألفها الى يائها، وهو من أجل كتب السيرة الذاتية التي صدرت في الأدب العربي في العصر الحديث.

- ٣ -

وكانت كتابات العلماء وبحوثهم ومقالاتهم عن الأمور المعروفة في الكتابة الاسلامية، من مثل: الصبر - الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج - الصدق - الأمانة.

وكتب الخفاجي منذ عام ١٩٣٠ حتى اليوم في الشئون الاسلامية بفكر جديد، سواء في مقالاته، أم في مؤلفاته.

- كتب عن «الحضارة الاسلامية»، وصدر له كتاب ضخم بعنوان: «الاسلام والحضارة الانسانية».

ـ وكتب عن الاسلام وحقوق الانسان، وصدر له كتاب بهذا العنوان أيضا عام ١٩٥١، وأعيد طبعه عام ١٩٨٢ وهو على وشك الصدور ـ وكتب عن العدل الالهي مقالة نشرت في مجلة الأزهر عام ١٩٤٩ كان لها دوي كبير.

ـ وكتب عن الاسلام دين السلام والحرية مقالا نشر في جريدة الأهرام عام ١٩٤٠، ثم نشر في جريدة العرب التي كانت تصدر بباريس عام ١٩٤٢، ونشرته آنذاك مجلات وصحف كثيرة.

الى غير ذلك من الموضوعات الجديدة، ومن بينها: الاسلام والشيوعية ـ الديمقراطية في الاسلام ـ الأسرة في الاسلام ـ الاقتصاد الاسلامي وله كتاب بعنوان: «الاسلام ونظريته الاقتصادية».

وفي مجال الدراسات الاسلامية: كتب الدكتور الخفاجي ما لا يقل عن عشرة آلاف مقالة نشرت في مختلف الصحف والمجلات في العالم الاسلامي، وأذيع بعضها من اذاعة مصر والاذاعات العربية، وصدر له ما لا يقل عن مائة كتاب من بينها ـ عدا ما ذكرناه:

ـ تفسير القرآن الحكيم في ثلاثة عشر جزءا.
ـ شرح صحيح البخاري في عشرة أجزاء.
ـ الاسلام دين الانسانية الخالد.
ـ الاسلام رسالةَ الاصلاح والحرية.
ـ الاسلام ومبادئه الخالدة.
ـ الاسلام والشيوعية.
ـ الاسلام بين الماضي والحاضر.
ـ في ظلال الاسلام.
ـ الأدب في التراث الصوفي.
ـ في ظلال التصوف الاسلامي.

- التراث الروحي.
- مأثورات نبوية.
- شرح مختارات من أحاديث رسول الله ﷺ من كتاب الزبيدي (التجريد الصريح) ستة أجزاء الى ما سوى ذلك من الكتب الاسلامية.

- ٤ -

وللخفاجي في الأدب ودراساته مؤلفات ضخمة تزيد على المائة كتاب، تعد أكبر موسوعة أدبية صدرت في العصر الحديث، ومن بينها:

أ - دراسات للعصور الأدبية تبلغ أكثر من ثلاثين كتابا ضخما، منها:

الحياة الأدبية في العصر الجاهلي.
الحياة الأدبية في عصر صدر الاسلام.
الحياة الأدبية في عصر بني أمية.
الحياة الأدبية في العصر العباسي.
الحياة الأدبية في العصر العباسي الثاني.
الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد.
قصة الأدب في مصر (٥ أجزاء).
قصة الأدب في الأندلس (٥ أجزاء).
قصة الأدب المهجري (جزءان).
قصة الأدب في الحجاز.
قصة الأدب المعاصر (أربعة أجزاء).
الأدب الحديث ومدارسه (جزءان). الى ما سوى ذلك.

ب - تراجم أدبية تبلغ نحو العشرين كتابا، بينها:

أبو عثمان الجاحظ.
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان.

رائد الشعر الحديث.
أعلام الشعر الجاهلي.
الشعراء الجاهليون.
أعلام الشعر في عصر بني أمية (جزءان).
أعلام الأدب العربي.
أدباء الشرق (سبعة أجزاء).
الرصافي الشاعر.
دراسات في النقد الأدبي، ومن بينها كتاب أصول النقد.
النقد الحديث ومذاهبه.
من أجل نظرية جديدة في النقد (تحت الطبع) فصول في النقد.
موقف النقاد من الشعر الجاهلي.

ج ـ دراسات في النقد الأدبي.

مذاهب الأدب الخ.
دراسات في نصوص الأدب، وتبلغ نحو العشرين كتاباً من بينها:
دراسات في الأدب المعاصر.
دراسات في الأدب العربي.
بلاغة العرب.
صور من الأدب الحديث (أربعة أجزاء).
من روائع الأدب العربي الخ.

هـ ـ دراسات في اللغة والبلاغة، ومن بينها شرح لابن عقيل في ثلاثة أجزاء.

وشرح للايضاح في البلاغة في ستة أجزاء.

و ـ دراسات تاريخية، ومن بينها:

الأزهر في ألف عام (٣ أجزاء).
مواكب الحرية في مصر الاسلامية.

مواكب النبوة.
مشاهد من السيرة.
السيرة النبوية.
سيرة رسول الله (أربعة أجزاء) - الخ.

ز - تحقيقات لكتب من التراث، تبلغ نحو الخمسين كتابا من بينها.
شرح مقامات الحريري الشريشي (أربعة أجزاء).
اعجاز القرآن للباقلاني.
قواعد الشعر لثعلب.
فحولة الشعراء للأصمعي.
طبقات النحويين البصريين للسبراقي.
فصيح ثعلب في اللغة.
البديع لابن المعتز.
شفاء الغرام باخبار البلد الحرام للفاسي (جزءان).
أسرار البلاغة دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني الخ.

- ٥ -

والخفاجي من أسرة عربية عريقة في القدم هي بنو خفاجة وله في تاريخ هذه الأسرة العربية كتاب بعنوان بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي - في أكثر من عشرين جزءا صدر منه عشرة أجزاء - وله كتاب آخر بعنوان: الخفاجيون في التاريخ.

وانتماء الخفاجى لأسرته العربية جعله يؤلف في تاريخ أسرته مجموعات كبيرة، وانتماؤه للأزهر الشريف جعله يكتب كتابه «الأزهر في ألف عام» - وانتماؤه لوطنه مصر جعله يكتب قصة الأدب في مصر، وكتاب التراث الروحي للتصوف الاسلامي في مصر، وكتاب «مواكب الحرية في مصر الاسلامية» وغير ذلك.

وقد ولد الخفاجي في قرية « تلبانة » مركز المنصورة عام ١٩١٥، ونال شهادة العالمية من درجة أستاذ في الأدب والنقد (الدكتوراه) عام ١٩٤٦ برسالته « ابن المعتز » وتراثه في « الأدب والنقد والبيان ».

وعمل في مطلع حياته أستاذا للغة العربية في الليسيه فرانسيه، ثم عين مدرسا في كلية اللغة العربية، ثم اختير عميدا لكلية اللغة في أسيوط (١٩٧٤ - ١٩٧٨) - ثم عمل أستاذا في الأدب والنقد في الدراسات العليا في كلية اللغة بالقاهرة، ولا يزال يعمل فيها حتى اليوم.

وللخفاجي تلاميذه المنتشرون في أنحاء العالم الاسلامي.

وله مكانته العلمية السامقة داخل الأزهر وخارجه وفي مصر والعالم العربي والاسلامي.

وله كذلك صلاته الوثيقة بجميع الأدباء العرب في كل مكان.

وهو فوق ذلك:

- نائب رئيس رابطة الأدب الحديث في القاهرة.
- نائب رئيس نادي القصيد في القاهرة.
- نائب رئيس جماعة أبولو الجديدة.
- رئيس اتحاد الجمعيات الأدبية - في القاهرة.
- عضو المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.
- عضو في المجالس القومية المتخصصة.
- عضو في المجلس الأعلى للثقافة.
- عضو في نادي القصة بالقاهرة.
- عضو في العشيرة المحمدية.

الى غير ذلك من مختلف الجماعات الثقافية والأدبية والاسلامية ولدى

الخفاجي مؤلفات مخطوطة كثيرة لم تر النور بعد.

وللخفاجي سبعة دواوين شعرية منها:

- نغم من الخلد، ١٩٧٣
- صلوات على الضفاف، ١٩٨٢.
- أحلام الشباب، ١٩٤٩.
- أحلام السراب، ١٩٥٣.
- وحي العاطفة، ١٩٣٦.
- وديوان آخر مخطوط لم يطبع بعد.

ويعزم على اصدار شعره الاسلامي في ديوان، وعلى اصدار جميع شعره في مجموعة واحدة.

- ٧ -

وبعد فهذه صورة لأزهري نابغة معاصر لنا، تتلمذ على موائد الأزهر، وتلقى ثقافته فيه منذ عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٤٦، وحضر حلقات العلم في الأزهر القديم والحديث، وتتلمذ على شيوخه الكبار، من أمثال: الشيخ محمود أبو العيون، والشيخ محمد مصطفى المراغي، وشقيقه الشيخ أحمد المراغي، والشيخ عبد الحكم عطا، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد عرفة، والشيخ حامد محيسن والشيخ ابراهيم حمروش، والشيخ مأمون الشناوي، والشيخ ابراهيم الجبالي، والشيخ عبدالله الشربيني والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ الشاعر محمد الطنطاوي.

ومن أوائل شيوخه في الأزهر الشيخ محمود النواوي والشيخ سيد الباز والد العالم المصري فاروق الباز والأستاذ عبد العزيز جاد الحق، والأستاذ محمود مصطفى.

ومن شيوخه: الشيخ محمد الغمراوي، والشيخ نور الدين الحسن والشيخ محمد

المبارك وهما سودانيان أزهريان.. وغيرهم.

ومن زملاء الخفاجي: الشيخ محمد متولي الشعراوي، والأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف، والأستاذ أحمد سيد حقي، والدكتور حسن جاد، والاستا طه حراز، والأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر، والأستاذ طاهر أبو فاشا، والأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي، والدكتور بيصار، والشيخ محمد خاطر المفتي الأسبق، ومئات من الأعلام المشهورين في حياتنا الثقافية والأدبية والفكرية.

وبعد فهذه سيرة عالم من علماء الأزهر المعاصر في ايجاز شديد.

ولا ننسى ما طبع عليه الخفاجي من وفاء وكرم وزهد وتواضع وايثار وحب للخير وانسانية شاملة.. ندعو الله له بالعمر المديد، والتوفيق الدائم.

تصدير

فلسفة التاريخ الاسلامي

ماذا أكتب عن هذا التاريخ الخالد الممثل لقصص البطولة والمجد والكفاح من أجل المثل الانسانية الرفيعة، ومن أجل مستقبل البشر واسعادهم، ومن أجل تأثيل الحضارة والمدنية والمعرفة، واتاحة كل الفرص الممكنة المؤاتية أمام بني البشر جميعا ؟

نعم ماذا أكتب عن تاريخ قد نسيناه ونسينا أمجاده، وعمل الاستعمار بكل وسائله على أن ينسينا اياه، فبدد مصادره، وأخفى معالمه، ومنع تدريسه في جامعاتنا ومعاهدنا مدة طويلة، كان المشرق الاسلامي خلالها خاضعا لنفوذه وسلطانه، بل لقد صادر الاستعمار كل ما يكتب عن هذا التاريخ الحي المشرق التليد، حتى عهد قريب ؟

ماذا أقول عن هذا التاريخ، وكله مآثر ومفاخر لو وزعت على أمم الأرض جميعا لوسعتها بطولة وكفاحا ومدنية وحضارة ومعرفة ؟

ولو كنا نعي ونقدر تاريخنا ونضالنا خلال عصور التاريخ، لرأينا أمجاداً ممثلة في صور جليلة تهتز بها الميادين، وفي قصص بليغة يحفظها النشء ويرددونها، وفي قصائد قصيرة وملاحم طويلة، وتمثيليات مثيرة اذاعية وغير اذاعية، وفي «أفلام» تطول وتقصر يشاهدها الشباب في كل وقت، وفي كتب مصورة للأطفال، وفي موسوعات مطولة للباحثين والدارسين، وفي أغان

وقصص شعبية تلقيها الفرق المختلفة على أهل المدن والريف كما يفعلون بقصص عنترة وأبي زيد الهلالي وفيروز شاه.

ولو كنا حريصين على تاريخنا نقدره ونعيه لصنعنا منه المعجزات، كما يفعل الغربيون والأمريكيون، بل لجعلناه أساطير منسوجة من خيوط الحقيقة، لا من خيوط الخيال الذي ينسج منه الأوروبيون تاريخهم.

إني أقترح أن يكتب التاريخ العربي والاسلامي من جديد!!

وأعجب مآسي تاريخ الشرق الاسلامي أن الاستعمار استطاع أن يلقننا أن تاريخنا كله خلو من الحياة والروح والتضحيات والبطولات، وأنه تاريخ ميت، لا يسعى الى هدف، ولا يسير الى غاية، وانه كله منازعات بين الطوائف والجماعات والعصبيات، وأننا لا بأس أن نسدل عليه الستار، فلن نستفيد من المعرفة به شيئا..

ان التاريخ الاسلامي والعربي لم يكتب بعد، فكتبه ومصادره على أهمية بعضها لا تزال تولي عنايتها لأشياء تافهة لا تمت الى التاريخ نفسه بصلة كبيرة، وعندما نقرؤها لا نخرج منها بكبير فائدة، ولا بصورة واسعة لتاريخنا القومي، ومفاخرنا الاسلامية العربية.

ان قصص البطولة الاسلامية العربية لم تدون بعد، ومواكب الحرية الزاحفة الثائرة عبر الأجيال والعصور لم تدون مشاهدها، وتاريخ الشعوب العربية نفسها ليس عنه الا القليل من المواد.

ان ماضينا وحاضرنا حافلان بالبطولة والأبطال، ولكن أين صور هذه البطولة في تاريخنا؟

ونحن بعد لم نعمد الى قصص الحرية والبطولة في تاريخنا فنخرجها «فيلما» يشاهد، أو ملحمة تمثل على رؤوس الأشهاد.

بل انه ليس هناك معجم أو كتاب يتحدث عن أشهر الأبطال

الاسلاميين، والعرب في شتى العصور، وليس هناك دائرة معارف تعنى بمثل ذلك، ولم نفكر بعد في شيء من هذا.

أوربا لا تزال حتى اليوم تحارب الانبعاث العربي، وموقفها اليوم في حرب الاسلام أصدق شاهد على ما نقول. بل ان موقفها من مأساة فلسطين وصنعها هي لهذه المأساة لهو أوضح دليل على ما نقول.

ومن قبل طرد المسلمون من الأندلس عام ٨٩٩ هجرية، ثم أنهى الانجليز الحكم الاسلامي في الهند عام ١٨٥٧ ميلادية، وقبضوا على آخر الملوك المسلمين في الهند من الأسرة المغولية، وهو الملك بهادور شاه، وقتلوا كل أعوانه وأنصاره، وأهل بيته، وأقاموا المذابح العامة في الشوارع والميادين وقتلوا أولاده أمامه، ونفوه الى رانجون عاصمة بورما، حيث توفى وحيدا فيها في ٧ نوفمبر ١٨٦٢، وكتب في مذكراته قبل وفاته بقليل يقول:

«من يوقد الشمع على قبري؟ ومن يأتي اليه بالورد؟ نعم لا ورد ولا شموع، حتى لا تأتي فراشة تحوم حولي، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبري».

وكتب أيضًا يقول: «يا رسول الله، كانت أمنيتي أن يكون بيتي في المدينة بجوارك، ولكنه أصبح في رانجون، وبقيت أمنياتي مدفونة في صدري. يا رسول الله كانت أمنيتي أن أمرغ عيني في تراب أعتابك، ولكن هاأنذا أتمرغ في تراب رانجون، وبدلا من أن أشرب من ماء زمزم بقيت هنا أشرب الدموع الدامية، ولم يبق من حياتي غير عدة أيام»!!.

هذه مأساة وأي مأساة صنعها الأوربيون كما صنعوا مأساة فلسطين الدامية!.

فهل من معتبر؟

حاجة المجتمع الى الإيمان

الايمان ليس ادعاء، وليس قولا ، وليس خداعا... انه الحقيقة والعقيدة والمنهج السوي والفعل المقارن للقول، والعمل المصاحب للكلام... انه النور الهادي، والشعاع المضيء، والفجر عقب الظلام، والماء بعد خداع السراب، والواحة الخضراء في الصحراء الجدباء..

والايمان هو دعوة القرآن وهو قمة الشريعة، وهو ذروة التسليم، وسنام التعظيم، للمولى العلي الأعلى، ذي الجلال والاكرام، وحده لا شريك له، والايمان هو حب الله عز وجل حبا لا يعدله حب، وحبا فوق كل حب، وحبا يقصر دونه أي حب.. ومن محبة رسوله، حتى يكون هو المدد والسند والدعامة والأساس لكل شيء..

وفي الحديث الشريف لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده...

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : كان من دعاء داود عليه السلام: «اللهم اني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني الى حبك، اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد..»

ومن السبعة الذين يظللهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله «رجلان تحابا في الله، لان حب الانسان لاخيه الانسان في الله، هو حب الله عز وجل».

• **أخ أحببته في الله . . .**

وعن ابراهيم بن أدهم فيما روي عنه قال: أتيت بعض البلاد فنزلت في مسجد، فلما كانت العشاء الاخيرة، وصليت، أتى إمام المسجد بعد انصراف الناس، فقال: قم فاخرج حتى أغلق الباب، فقلت: أنا رجل غريب أبيت هنا، فقال ان الغرباء يسرقون القناديل والحصر فلا نترك أحدا يبيت في المسجد، وكانت الليلة ليلة شاتية باردة، فقلت: دعني هنا، فأخذ برجلي وجرني على وجهي الى خارج المسجد، وتركني بجوار موقد حمام، ومضى، فقلت: أبيت عند الوقاد الذي يوقد النار في المستوقد، فناديت عليه فخرج لي رجل عليه قطعتا خيش فسلمت فلم يرد علي السلام بل أشار إلي بالجلوس، فجلست فرأيته خائفًا وجلًا ينظر تارة عن يمينه وتارة عن شماله، فداخلني الخوف منه، فلما فرغ من وقوده التفت الي وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

فقلت: عجبا، لم لم تسلم علي حين سلمت عليك؟

فقال: يا هذا أنا أجير قوم فخفت أن أسلم عليك، فاشتغل بالسلام عن العمل، فأكون آثما خائنا..

فقلت له: وقد رأيتك تنظر عن يمينك وشمالك، أتخاف؟ قال: نعم، قلت: مماذا؟ قال: من الموت، لا أدري أين يأتيني، أمن يميني أم من شمالي؟

فقلت: فبكم تعمل كل يوم؟

قال: بدرهم ونصف، قلت: فما تصنع بهذا الأجر؟ قال أتقوت بالنصف، وأنفق الدرهم على أولاد لأخي...

قلت: ابن أمك وأبيك؟ قال، لا، بل أخ في الله، أحببته في الله عز وجل، ومات، فأنا أقوم بأمر أهله وولده...

فقلت: هل دعوت الله في حاجة فأجابك فيها؟ قال: لي حاجة أنا منذ

عشرين سنة أدعو الله عز وجل وما قضاها... قلت: وما هي؟ قال: بلغني أن في العرب رجلا تميز عن الزاهدين وفاق العابدين يقال له: «ابراهيم بن أدهم» وأنا أدعو الله عز وجل أن أراه وأن ألقاه وأموت...

فقلت: أبشر يا أخي، قد قضى الله حاجتك، وما رضي لي أن آتي اليك الا سحبا على وجهي... قال: فوثب من مكانه، وعانقني، وسمعته يدعو ويقول: اللهم قضيت حاجتي، فأجب دعوتي، اللهم أقبضني فأجاب الله تعالى دعاءه في الحال، وسقط ميتا...

● النصح لاولياء المسلمين

وفي الحديث القدسي عن رب العزة جل جلاله: لا يزال عبدي يتقرب الي حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، فإذا دعاني أجبته، واذا سألني أعطيته، واذا استنصرني نصرته، وأحب ما تعبدني عبدي النصح لي «والمراد النصح لأولياء المسلمين».

وفي الحديث الشريف عن ابن عباس:

قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال: «يا غلام اني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله»..

وأخرج الطبراني والحاكم عن معقل بن يسار، يقول الله تعالى: المتحابون لجلالي في ظل عرشي يوم القيامة، يوم لا ظل الا ظلي».

وفي رحاب الايمان الصادق، واليقين القلبي تكون الطمأنينة، وتكون الثقة، ويكون الأمل، ويكون الطموح، ويكون المستقبل، وتكون الحياة.

وفي رحاب الايمان لا يكون شر، ولا تكون رذيلة، ولا يكون عدوان،

ولا تكون سيطرة وغرور وتعال على الناس، ولا يكون كبرياء وغرور وخداع للناس ورياء ونفاق.

وفي رحاب الايمان تسود الثقة بين الناس، ويسود الحب والتعاون والاخاء والعدل والانصاف والرحمة.

وفي رحاب الايمان لا يكون هناك جائع، ولا مسكين، ولا أحد يشكو من ظلم الانسان لاخيه الانسان.

● **من وجد خيرا ...**

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة، أخرجه الديلمي، يقول الله عز وجل: «ليس كل مصل يصلي، انما تقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي، إن نور وجهه لاضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له علما، والظلمة نورًا، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقوتي، واستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتغير حالها، ولا يتسنه «يتغير» ثمرها..

وفي الحديث القدسي أيضًا، يقول الله تبارك وتعالى: يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال الا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع الا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار الا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا اغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن

أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط - الابرة - اذا أدخل في البحر، يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.. ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، الا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه.

وسأل داود عليه السلام ربه، فقال: يا رب أي عبادك أحب الي: أحبه بحبك، قال: يا داود، أحب عبادي الي تقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي الى أحد سوءًا، ولا يمشي بالنميمة، أحبني وأحب من يحبني وحببني الى عبادي، قال يا رب انك تعلم اني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي يا داود انه ليس من عبد يعين مظلوما أو يمشي معه في مظلمته الا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام.

• **الشرف والكرامة...**

وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله بمنكبي، وقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك..

وفي رحاب الايمان تتعانق الدنيا والآخرة، والأمل والعمل، والقول والفعل، والزمان والمكان، والجسد والروح، والنعمة والمحنة، واللذة والمتعة، والغنى والحرمان..

وفي رحاب الايمان تنطلق النفس من عقالها، ويتحرر الجسد من اساره، ويهرب الجسم من آصاره.. ويمشي المؤمن وأمامه نور ربه الى عالم فسيح مملوء بالضياء والسناء والرواء والبهاء والخير والعطاء.

وفي رحاب الايمان يتحمل المؤمن المسئولية، ويحرص على الواجب، ويحترم الحقوق، ويؤدي للناس مالهم، ولا ينتظر أن يأخذ منهم ما عليهم..

وفي رحاب الايمان يعلم الانسان نفسه الايثار وينأى عن الاثرة، ويجعل لله في نفسه وماله وأهله وولده الخيرة، ولا يترك لاحد حقا عليه الا أداه، ولا يرى فقيرا محتاجا الا أعطاه.

وفي رحاب الايمان يكون الدين عند المؤمن أقدس شيء في الحياة وتكون كلمة الدين هي الميثاق والشرف والكرامة والعزة، وهي المنحة الالهية المبتغاة، وهي الرحمة السماوية المهداة.

وفي رحاب الايمان ينسى المؤمن نفسه ويذكر غيره.. ويعمل من أجل الناس جميعًا، ويملأ قلبه بنور الحكمة والمعرفة والثقة بالله عز وجل، والعمل على مرضاته..

وفي رحاب الايمان يكون الشرف والعفة والفضيلة والقيم والمثل، هي العملة

الرائجة، وهي الكنز الثمين، وهي الجوهر النفيس، حتى لا يكون لشيء سواها فضيلة من الفضائل..

وفي رحاب الايمان.. يكون في أيدينا القرآن، ويكون في قلوبنا الاطمئنان ويكون في أرواحنا حب خالص للاسلام.. ولرسول الاسلام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله أولا وأخيرًا، وما توفيقي الا بالله.

الإسلام يربي الأجيال

تحتاج الأمم في مراحل بنائها ، والمجتمعات في أطوار تكونها ، الى حكمة الشيوخ وتجاربهم وقوة تمرسهم بادارة مرافق الدولة ، والنهوض بأعباء الأمور ، والعمل من أجل اسعاد الشعب .

وبجانب جيل الشيوخ ، لا بد من الشباب ولا بد من أن تكون هناك « الكوادر » البشرية العاملة المستعدة لتسلم الراية ، وتحمل المسئولية في أي وقت من الأوقات ، وأي ظرف من الظروف .

لا بد من أجيال تكون معدة للدخول في الميدان ، ومن طبقات تصبح مستعدة لحمل أعباء الأمور ، اذا ما دعت الحاجة .

بناء الأجيال الصالحة في أي مجتمع هو أساس تقدمه وقوته ونهضته وازدهاره ورفاهيته .

وهذه الأجيال تبدأ من جيل الطفولة الى جيل الشباب ، وجيل الرجال ، وجيل الشيوخ ، وجيل الحكماء من ذوي الكهولة . وعظمة الاسلام وجلاله في انه استطاع أن يربي أجيالا صالحة ، في مدى لا يتجاوز ربع قرن ، وسرعان ما تسلمت هذه الأجيال الأمور ، فكانت المعجزة ، وحدثت البطولات وكانت الانتصارات ، ووقعت المعجزات معجزة تلو معجزة .

الحق والواجب والرحمة

لم تبدأ الدولة الاسلامية الكبرى الا بعد أن كافح رسول الله ﷺ وجاهد مر الجهاد، من أجل بناء أجيال مسلمة، تكون مستعدة على الدوام لحمل الأمانة، فلقد ربى الفتاة الصالحة، والزوجة الطاهرة والسيدة الفاضلة، وربى الطفولة المؤمنة، والشباب القادرين، والرجال الصالحين، والشيوخ المؤمنين، وربى العامل والتاجر والصانع العارف كل منهم بمسئوليته وأمانته وحقوقه وواجباته، وربى الفقير الصابر، والغني الشاكر، وربى طبقة من الأصحاب الذين يصلح كل منهم لسياسة الدولة وادارة العجلة، وقيادة الجموع..

وربى ﷺ كل فرد في المجتمع تربية اسلامية رفيعة القيم، عظيمة الهدف، كريمة الغاية.

وربى، ﷺ الأمة كلها على العدل والحق والواجب والاحسان والرحمة والمساواة الشاملة.

وربى، ﷺ، جماهير المسلمين كافة على الشجاعة والحرية والكرامة والعزة.

لم يحدث أن عذب فرد، أو اضطهد انسان، أو ضاع حق شخص، أو أهدرت كرامة رجل، أو أهينت تضحية بطل.

ولم يحدث أن كوفئ مهمل، أو عوقب محسن لعمله...

ولم يحدث أن نال انسان ما لا يستحقه لمحسوبية أو جاه أو مال أو منصب، أو مركز نفوذ في الدولة.

ولم يحدث أن قدمت لاحد رشوة، أو أخذ انسان في المجتمع ما لا يستحقه.. أو تطلع الى ما في يد غيره أو حرص على أن يخون مسلما في مال أو دم أو عرض أو حرمة.

أمرهم شورى بينهم

مجتمع رفيع، تربى على الاسلام والايمان والقيم الروحية الكريمة.

مجتمع رباه الرسول الأعظم ﷺ على يديه، الناس أمرهم شورى بينهم[١]. الخير هدفهم، والإيثار والاحسان والرحمة والتكافل ديدنهم. الدنيا كلها تهون في أعينهم. الله والدين واليوم الآخر أمام أعينهم كل لحظة..

متاع الحياة الدنيا لا يغريهم، وزينتها لا تفتنهم. وكنوز قارون لا تحرك شيئا من مشاعرهم.

التكافل تام بينهم، الغني أخو الفقير، والكبير أخو الصغير، والقوي صديق الضعيف، والصحيح يساند المريض. وغير المحتاج في عون المحتاج.

مجتمع مثالي رباه الرسول الأكرم على الصدق والأمانة، والطهر والخير والبر، ورباه على الزهد والعفة والعفاف وعلى الكرم والبذل والتضحية، وعلى المروءة والأريحية والنجدة.

ورباه ﷺ على كلمة الحق، وعلى كل كريم ونبيل وجليل من مبادىء التربية الفاضلة.

ورباه، ﷺ، على تحمل المسئولية، والنهوض بأعباء الأمانة، وأن يكون الفرد في مستوى الواجب وأن يقف دائما في صف الطهارة، وأن يعمل وهو يراقب الله في السر والعلن، ويخشاه الخشية كلها ويخاف عقابه ويرجو ثوابه.

ورباه، ﷺ، على الارتفاع فوق الشبهات، وعلى تعود صنع المكرمات وعلى فعل الحسنات، والبعد عن السيئات.

ورباه، ﷺ، على أن تكون مصلحة الجماعة في مقدمة كل شيء، وعلى أن تختفي المصلحة الفردية أمام كل شيء، وعلى أن يحب كل انسان لغيره ما

---

(١) كما جاء في سورة الشورى آية ٣٨.

يحب لنفسه، وان لا يحب ان يقتني شيئا ليس من حقه..

وما أعظم الجيل الذي رباه نبي الاسلام، وصنعه ﷺ على يديه: انه جيل المعجزات، جيل البطولات جيل التضحيات، جيل الانتصارات.

جيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، ومئات من أعلام المسلمين الأولين الأكرمين من صحابة رسول الله، رضوان الله عليهم أجمعين.

كان رسول الله ﷺ يقول: إني أومن بالله أنا وأبو بكر وعمر. اعتدادًا بعظمة صاحبيه وجلالهما العظيم.

وكان يقول: ان آمن الناس على ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الاسلام.

وكان صلوات الله عليه وسلامه يقول:

« قد كان يكون في أمر قبلكم محدثون ـ أي ملهمون ـ فان يكن في أمتي منهم أحد، فان عمر بن الخطاب منهم.

وعن سعيد بن المسيب، قال: أخبرني أبو موسى الأشعري، رضى الله عنه، انه توضأ في بيته، ثم خرج، فقال:

لألْزمن رسول الله، ﷺ: ولاكونن معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد، فسأل عن النبي، ﷺ، فقالوا: خرج، قال: فخرجت على أثره، أسأل عنه، حتى دخل بئر « أريس »، قال: فجلست عند الباب، وبابها من جريد، فقمت اليه.. فسلمت عليه: ثم انصرفت، فجلست عند الباب، فقلت: لاكونن بواب رسول الله ﷺ، اليوم.. فجاء أبو بكر، فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك.

قال: نعم.. ثم ذهبت، فقلت يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن؟ فقال، صلوات الله عليه وسلامه ائذن له وبشره بالجنة،

قال: فاقبلت حتى قلت لابي بكر: ادخل ورسول الله، ﷺ، يبشرك بالجنة قال: فدخل أبو بكر، فجلس عن يمين رسول الله، ﷺ. ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت: ان يرد الله بفلان يريد أخاه ـ خيرا يأت به، فاذا انسان يحرك الباب، فقلت: من هذا فقال: عمر بن الخطاب. فقلت: على رسلك ثم جئت الى رسول الله، ﷺ، فسلمت عليه، وقلت: هذا عمر يستأذن؟

فقال صلوات الله عليه ائذن له، وبشره بالجنة ـ فجئت عمر رضي الله عنه، فقلت: أذن لك رسول الله، ويبشرك الرسول بالجنة، قال: فدخل، فجلس مع رسول الله ﷺ عن يساره، ثم رجعت فجلست، فجاء انسان، فحرك الباب، فقلت: من هذا؟

فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك، قال: وجئت النبي، ﷺ، فأخبرته، فقال: ائذن له، وبشره بالجنة، مع بلوى تصيبه.

قال: فجئت، فقلت: ادخل، ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك وعظمة علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام وطلحة، وسعد ابن أبي وقاص، وأبي عبيدة، والحسن، والحسين. وغيرهم من أعلام صحابة رسول الله ﷺ، مما لا تحتاج الى بيان.

معجزة الرسول الأكرم

وحدث ولا حرج عن المجد الأكبر الذي ناله صحابة رسول الله: من النبلاء، والكرماء والفضلاء، رضي الله عنهم، وأرضاهم أجمعين.. وبحسبنا وصف القرآن الكريم لهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، والَّذِينَ مَعَهُ، أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ مِنَ اللهِ فَضْلًا وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1].

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

هذا الجيل العظيم من صحابة رسول الله، هم الذين تسلموا الراية، بعد أن لحق نبي الله بربه فحفظوا الأمانة، وبلّغوا الرسالة، وأدّوا الحقوق، وتحملوا المسئولية ولاقوا جيوش كسرى وقيصر، ولم يبالوا بشيء في سبيل الله، ومن أجل الانتصار لدين الله، ولكلمة الحق والشرف والإيمان.

ان معجزة الرسول الاكرم الكبرى انه صنع جيلا، بل أجيالا رباهم على كل فضيلة، ودفعهم الى القيم الانسانية الرفيعة، فكانوا خير مثل في أكرم أمة، وأفضل دولة، وأعظم شعب.

من لنا بمثل هذا الجيل العظيم جيل الأبطال حقا، جيل الرجال صدقا، جيل الشرف والطموح والعزة والكرامة، جيل لم تلوث سمعته الدنيا، ولم تفتنه الأموال والأولاد والنساء.

القادسية واليرموك من ثمرات هذا الجيل، الانتصارات المدوية من صنع يديه، البطولات والتضحيات والمكرمات والمفاخر كلها كانت عملا عاديا يصنعه هذا النموذج الحي المسلم العظيم دون تكلف أو تملق أو تقليد.

الايمان ويقظة الضمير، هي التي صنعت يقظة الأمة الاسلامية الكبرى، ونسجت مفاخرها العظمى، ورفعت كيان نهضتها وحضارتها وسمعتها بين أمم العالم وشعوبه كافة.

من لنا بمثل هؤلاء الأبطال الذين ارتفعت راية الاسلام على أيديهم ولم تنكس أبدا؟؟

من لنا بمثل هؤلاء الرجال، الذين أعز الله بهم دينه، ونصر رسوله وأكرم جنده، وهزم بهم أعداء الاسلام والمسلمين في كل مكان؟

من لنا بجيل من أمثال هذا الجيل يصنع اليوم ما صنعه أسلافنا بالأمس.. من معجزات وبطولات وتضحيات..؟

من لنا، بمثلهم يدافعون عن الشرف، عن مواثيق السماء، عن كلمة

التوحيد عن مجد الاسلام وعزة المسلمين؟

ما أحوجنا اليوم الى أن نرى جيلا كجيل الأمس، يحارب الشر، ويجاهد النفس، ويقاوم الفساد ويدعو الى الخير والطهر والبر والفضيلة، ما استطاع الى ذلك سبيلا.

وفي الحديث الشريف: «ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها» ما يبعث على الامل، والرجاء، ويقطع اليأس والهزيمة والشر من النفوس: اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، يا رب العالمين، وأرحم الراحمين، انك على كل شيء قدير.

الزمن أمانة في عنق المسلم

الزمن.. وما أدراك ما الزمن ؟!

إنه الدقائق والثواني التي تمر بالانسان، والتي يحولها العاقل الى ثمرة، وفائدة، ومنفعة، للانسان أو للانسانية، للدين أو للدنيا، للنفس، أو للاهل أو للمجتمع أو للامة كافة.

وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي: «ان الحياة دقائق وثوان».. وحقا، ان الحياة، والزمن، لها الدقائق والثواني التي يعبرها الانسان ويمر بها.

والزمن هو ثروة في يد كل انسان، هو مال، هو غنى، لانه يتحول الى عمل، والعمل يتحول الى قيمة والقيمة الى ثروة.

وكل شيء في امكان الانسان أن يستغله وأن يفيد منه، وأن يتخذ منه صديقا وأخا ومصدر خير له ان أراد.

وكذلك كان الزمن، انه حقا ثروة ومصدر خير وسعادة للانسان، ان حاول الافادة منه أو أحسن التدبير فيه..

ولقد عرف الاسلام قيمة الزمن ودعا الى المحافظة عليه، واستغلاله لصالح الأمة..

ولننظر الى ما ورد عن ذلك:

قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما انفقه، وماذا عمل بما علم».

منفعة في الدين والدنيا..

يقول ابن القيم رحمه الله: «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار - الدنيا - فهو مسافر فيها الى ربه، ومدة سفره هي عمره، والأيام والليالي مراحل، فلا يزال يطويها حتى ينتهي السفر. فالكيس - العاقل - لا يزال مهتما بقطع المراحل فيما يقربه الى الله، ليجد ما قدم محضرا.. ثم الناس منقسمون الى أقسام:

منهم من قطعها متزودا بما يقربه الى دار الشقاء من الكفر وأنواع المعاصي.

ومنهم من قطعها سائرًا فيها الى الله، والى دار السلام.. وهم ثلاثة أقسام:

- سابقون أدوا الفرائض وأكثروا من النوافل بأنواعها، وتركوا المحارم والمكروهات وفضول المباحات.

- ومقتصدون أدوا الفرائض وتركوا المحارم.

- ومنهم الظالم لنفسه الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا.

وهم في ذلك درجات متفاوتة تفاوتا عظيما..»

ويقول ابن تيمية:

«بذل المال لا يجوز الا لمنفعة في الدين أو الدنيا، وهذا متفق عليه بين العلماء، ومن خرج عن هذا كان سفيها مبذرا لماله فالحي ينفق ماله في منافع دينه أو مباحات دنياه، وأما الميت ففي أوقافه ووصاياه؟ فتتعين منافع الدين في حقه، ولهذا اشترط في الوقف القربة فلا يصير الى جهة محرمة أو مكروهة أو مباحة، بل اما الى واجب أو مستحب».

الشباب وأوقات الفراغ..

ومن أجل ذلك كان قطع الوقت في غير منفعة للدين أو الدنيا حراما.

فالذي يقطع وقته في اللهو أو في الحرام أو في المفاسد والإضرار بالناس، واقع في الحرام ومسئول عن الوقت الذي قطعه دون فائدة له في دينه ولا في دنياه.

ومن أجل ذلك كان العمل واجبا، وكانت البطالة شيئًا، ويقول أبو العتاهية الشاعر الزاهد المعروف:

ان الشباب والفراغ والجده ... مفسدة للمرء أي مفسده

والجدة هي: الغنى.

وأوقات الانسان يجب ان يقسمها إلى أوقات عمل وأوقات راحة، فأوقات العمل هي للانتاج وكسب الخير للمرء، في دينه أو دنياه. وأوقات الراحة يجب ان يستعين بها الانسان في عمل الخير والبر لا في ارتكاب المفاسد والآثام. ومن ثم كانت أوقات الفراغ مشكلة.. فيجب أن يعيشها الانسان المسلم ليكتسب بها فائدة وخيرا، كالقراءة النافعة، وكخدمة المجتمع الذي يعيش فيه المرء، وكأداء بعض الواجبات أو السنن.

والأمم الحديثة تساعد الشباب على الإفادة من أوقات الفراغ، فتفتح الأندية، وتقيم المكتبات العامة للمطالعة، وتشجع على تفكير الشباب في المشروعات القومية..

ولكن الصوفيين يجيدون حل مشكلة الفراغ فهو عندهم اما أن يقضى في الذكر أو المطالعة أو العمل التعاوني الكامل المثمر للمجتمع بما فيه خيره وسعادته.

والذكر يزيل الهم ويجلب السرور ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة ويورث محبة الله التي هي روح

الاسلام، ويورث المعرفة والانابة والقرب، وحياة القلب، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنزل السكينة وغشيان الرحمة، وحقوق الملائكة بالذاكرين، وهو كذلك يشغل الانسان عن الكلام الضار، ويسعد الذاكر حتى ليسعد به جليسه. ودوام الذكر للمولى تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، والذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، والذكر ينبه القلب من غفلته ونومه ويوقظه، والذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر.. وهو شأن الصالحين الطائعين.

وقال تبارك وتعالى في شأن المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) وقال الرسول الأكرم: سبق المفردون، قالوا: وما المفردون، قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات.

وقد أدب النبي صلوات الله عليه ابنته فاطمة وزوجها عليا أن يسبحا كل ليلة اذا أخذا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين، ويحمدا الله ثلاثا وثلاثين، ويكبرا أربعا وثلاثين؟ لما جاءت فاطمة الى أبيها تسأله خادما، وشكت اليه ما تقاسيه من ألم الطحن والعمل والخدمة، فعلمها ذلك، وقال: انه خير لكما من الخادم.

عود لسانك الاستغفار..

وفي المأثور أن الملائكة لما أمروا بحمل العرش، قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك، وعليه عظمتك وجلالك، فقال عز وجل لملائكته: قولوا لا حول ولا قوة الا بالله. فلما قالوها حملوه.

وفي رواية أخرى: أول ما خلق الله عز وجل حين كان عرشه على الماء حملة العرش، فقالوا: ربنا لم خلقتنا؟

قال عز وجل: خلقتكم لحمل عرشي، قالوا: ربنا ومن يقوى على حمل

(١) سورة النساء آية ١٤٢.

عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مرارا، فقال: قولوا لا حول ولا قوة الا بالله فحملوه.

وبُني الدين على الذكر والشكر: ذكر الله حاضرا في كل وقت وكل زمان ومكان، وشكر الله المنعم بكريم آلائه.

ومن الذكر الاستغفار، وله منزلته الكريمة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقال لقمان لابنه: يا بني عوّد لسانك الاستغفار، فان لله ساعات لا يرد فيهن سائلا.

ان أوقات الفراغ اذا قضيت في الاستزادة من العلم النافع بالقراءة والمطالعة وحضور مجالس العلم، أو في تعلم صنعة للاستغناء بها عن طلب عون من أحد، أو في القيام بمشروعات تخدم البيئة والمجتمع أو في وعظ الناس وارشادهم وتعليمهم، كان لذلك من الأثر النافع ما لا يعدله شيء.

ويجب أن لا يعنى في قطع أوقات الفراغ بشيء لا ثمرة له، أو ثمرته محدودة، أو مضرته واضحة.

الزمن في خدمة الانتاج

ويا حبذا لو فتحت المساجد والمدارس للشباب في الاجازات العامة للمطالعة في المكتبات الملحقة بها، أو في الاستزادة من المعرفة، أو في حضور المحاضرات العامة بها، أو في القيام بخدمتها وأداء بعض مالها من حق على كاهل الشباب.

ولا يمكن أن تكون الاندية وحدها مع ما فيها من اختلاط وفساد مكانا

صالحا لقضاء أوقات الفراغ، مع العلم بأنها ترهق ميزانية الأبوين ارهاقا شديدا ، وتغرس في نفوس الشباب المبالغة في الأناقة والظهور بمظهر الترف والامعان في البطالة واللهو. وللاسف فان اشتراكها المالي لا يقدر عليه الا الاغنياء وأبناؤهم.

ويا حبذا لو جعلت الأندية مكانا عاما لتعلم بعض الصناعات، التي تزيد من دخل الاسرة، وتخدم المجتمع بطريق مباشر أو غير مباشر.. اذن لكان لذلك أثره الحميد في رقي مجتمعنا وازدهاره.

ميزان العبد المؤمن يوم الحساب

المجتمع الاسلامي يعيش بالاسلام، وينظم أموره بشريعة الاسلام، ويستمد فضائله وقيمه ومثله وآدابه من فضائل الاسلام.

في العبادات جميعها يلتزم المجتمع بما أمر الله به، من أداء الصلاة وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا..

في المعاملات يجب أن نلتزم بحدود ما أمر الله تعالى، لان ما شرعه الله لعباده هو الخير والفوز للمسلمين، وقد أكبر العلماء والمفكرون ورجال المال وعلماء الاقتصاد تشريعات الاسلام الاقتصادية، ورأوها حجر الزاوية في كل اصلاح اقتصادي يعود بالنفع والامن والاطمئنان والرخاء والسعادة على كل فرد في المجتمع الأسلامي.

في السلوك والأخلاق يجب أن نلتزم بكل ما الزمنا به ديننا من فضائل وأخلاق، من الصدق والأمانة والوفاء بالوعد، والاخلاص في اداء الوجب، ومن الايثار والاحسان والرضاء والحياء وكل فضيلة أمر بها الدين العظيم.

لو ان كل واحد منا..

وفي الحديث الشريف عن صهيب بن سنان، قال رسول الله ﷺ عجبًا لأمر المؤمن إن امره كله له خير: إنْ اصابته سراء ـ نعمة ـ شكر فكان خيرًا له،

وإن أصابته ضراء ـ محنة ـ صبر فكان خيرًا له.

ويقوم المجتمع الإسلامي في كل شيء على الصدق، الصدق في الكلمة، والصدق مع النفس، والصدق مع الله ومع الناس.

وفي الحديث الشريف عن ابن مسعود، قال رسول الله صلوات الله عليه: عليكم بالصدق، فان الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل لا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، واياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل لا يزال يكذب، حتى يكتب عند الله كذابا.

ومن آيات ضعف إيمان الرجل الكذب واخلاف الوعد وخيانة الأمانة، وفي الحديث الشريف: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان.

وفي مقدمة نواميس المجتمع الاسلامي أن يوطن كل مسلم نفسه على خدمة مجتمعه في السر والعلن، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.. وهذا أحد الأمثلة على ذلك، الناس يشكون في كل مكان من عدم نظافة مدننا وشوارعنا وبيوتنا، فلو ان كل واحد منا اجتهد في نظافة ما يستطيع نظافته لما شكونا من فقدان النظافة، ولننظر إلى حديث رسول الله ﷺ في ذلك، يقول صلوات الله عليه: «عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط ـ أي يزال ـ عن الطريق، الأذى هو كل ما يؤذي النفس والشعور، واماطة الأذى رفعه وازالته، والطريق هو الشارع الذي نعرفه.

لو أن كل انسان منا أماط الأذى عن الطريق لما شكونا عدم النظافة، لو أن كل واحد منا حافظ ما استطاع على المرافق العامة وجعل نفسه مسئولًا عن الجانب الذي هو في حوزته، ما شكونا من سوء حال مرافقنا، لو أننا قدرنا اننا مسئولون مع الحكومة عن كل شيء في بلدنا لكان ذلك بداية الخير لمجتمعنا.

ومن قيم مجتمعنا الحياء، وفي الحديث الشريف: الحياء خير كله، وفي حديث رسول الله ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول.. لا إله إلا الله، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان»، وفي الحديث أيضًا: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

لو أننا التزمنا الحياء لما خرج أحد منا على آداب الإسلام في المجتمع، لما انحرفت امرأة، ولما زل رجل، ولما رأينا شابًا صغيرًا يشرب الدخان في الطريق، ولما رأينا رجلًا قوي البنيان يأكل في الطريق في رمضان. ولما رأينا انسانًا يسب انسانًا آخر في الطريق بافحش السباب..

ان الحياء أحد قيم المجتمع الإسلامي.

والرحمة والحنان، وعطف الكبير على الصغير، واحترام الصغير كلها من آداب مجتمعنا الإسلامي، وأين هي هذه الآداب.. لو حافظنا عليها كان ذلك خيرًا لنا وللمجتمع، فهي كلها من آدابنا وتقاليدنا الصالحة.

وفي حديث رسول الله صلوات الله عليه، ان من إجلال الله تعالى اكرام ذي الشيبة المسلم، وعن رسول الله ﷺ: ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا، وفي رواية أبي داود: حق كبيرنا.

ومن شعائر المجتمع الإسلامي الايثار، ان يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، وفي الحديث الشريف: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولو أن كل واحد التزم بهذا القانون الرفيع، لما رأينا بيننا من يسعى لاختطاف اللقمة من فم أخيه، ولما رأينا ما نراه اليوم في مجتمعنا من هدم كل إنسان لأخيه المسلم، سواء بالاعتداء على حرماته، أم بتناوله بالسوء في المجالس، أم بالحقد عليه، أم بالغيبة والنميمة له، أم بمحاولة أخذ حقه في

المناصب والترقيات وغير ذلك من شتى شئون الحياة، وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: يقول: قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبييون والشهداء.

وحسن الأخلاق قوام المجتمع الإسلامي وعن انس رضي الله قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا..

وعن رسول الله صلوات الله عليه: ان من خياركم احسنكم أخلاقًا، وعنه صلوات الله عليه: أما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق.

ويقول رسول الله: من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق، وعنه صلوات الله عليه: أكمل المؤمنين ايمانًا أحسنهم خلقًا، ويقول رسول الله: ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

الواجب لله وللوطن

ولننظر إلى عظمة الإسلام وشموخ مبادئه سأل صحابي - هو سلمة بن يزيد - رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أرأيت ان قامت علينا امراء، يسألوننا حقهم ويمنعوننا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه رسول الله، فأعاد سلمة سؤاله على رسول الله، صلوات الله عليه، فقال له الرسول، ﷺ: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم.

على المحكوم أن يؤدي واجبه لله ولوطنه ولنفسه وأهله، وأن يخلص لله، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا..

وروى ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: انها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قال الصحابة: يا رسول الله: فبماذا تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم.

أقوى دعامات المجتمع

ان ناموس المجتمع الإسلامي ان يؤمن كل إنسان انه مسئول عن المجتمع، وأن يعطي للمجتمع ما عليه وما ينتظر ان يأخذ ماله، فان جاءه ذلك فذلك فضل الله، وان حرمه صبر وطلب من الله أن يستقيم امر المجتمع، ودعا الله ان يقيم العدل بين الناس.

ومسئولية كل إنسان في المجتمع هي إحدى دعامات المجتمع الإسلامي الشامخ، الحاكم راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها.

وهكذا المعلم، ورئيس العمل والوزير والأمير والكبير والصغير، كلهم راع، وكلهم مسئولون عن رعاياهم، وحديث رسول الله: « كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته »، حديث مشهور.

قانون السماء

ان القانون العام للمجتمع الإسلامي هو الالتزام الكامل بحدود الشريعة وبالمسئولية وبالعمل من أجل خدمة المجتمع، وبالسعي من أجل تقدمه، وبالحرص على رفاهيته ورفاهية كل إنسان فيه.

القانون الذي يسير عليه الناس هو قانون السماء، هو شريعة الطهر والخير والصفاء، هو الأمل في الله والرضاء والرجاء والحياء والسخاء، هو البر والفضيلة والرحمة والعدل والإحسان، هو الوفاء والصدق والبر والأمانة والخوف من وخز الضمير وتأنيب القلب.

المسلمُ خُلقُهُ القرآن

المسلمون المعاصرون اليوم ما هو مدى ادراكهم لرسالتهم؟.

لا يكاد يختلف أحد منا حول الإجابة عن هذا السؤال، فإذا كانت أوربا قد غرقت في الحضارة ونالت من التقدم الفكري والعلمي والأدبي ما نالت، فوق تقدمها المادي المذهل العجيب، فإنها فقدت أهم عنصر من عناصر شخصيتها الحضارية، وهو العنصر الروحي، حتى لقد أخذ المفكرون يتساءلون: هل أصبحت الحضارة الراهنة اليوم تسير في طريق الفناء والانهيار؟

ومن سنة الله في الحياة أن تبلغ الأمم قمة إزدهارها وقوتها المادية، ثم إذا هي لم تحافظ على شخصيتها الروحية، سارت في طريق الفناء والذبول..

الامبراطورية الفارسية القديمة أمرها معروف، حتى لقد انهارت انهياراً كاملًا امام جيش المسلمين.

الامبراطورية الرومانية بلغت قمة مجدها وسلطاتها وعظمتها، ثم انهارت انهيارًا تامًا، لأنها لم تحافظ على قوتها الروحية، وأصبحت روما القديمة سيدة العالم في العصر القديم تتخلى عن قيمها الحضارية الروحية ولا تفكر إلا في الحرب والسلاح وفي الجنس والنساء.

وقد ألف المفكر الأوربي المعاصر «كولن ويلسون» كتابًا نال شهرة فائقة،

وجعل عنوانه « اللامنتمي » تنبأ فيه بسقوط الحضارة المعاصرة كما تنبأ بذلك قبله « شبنجلر »، الذي ذهب إلى أن الحضارة مثل أي كائن حي، تبدأ، وتنمو، وتقوى، ثم تذبل. وهذا ليس بجديد في فكر « شبنجلر ». فالقرآن الكريم قد سبق إلى هذه النظرية، فقال تعالى في كتابه الحكيم ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا، وَٱزَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا، كَأَنْ لَمْ تُغْنَ بِالأَمْسِ﴾[1].

وفي كتاب « اللامنتمي » يرى كولن ويلسون ان الحضارة الراهنة هي سبب شقاء الإنسان، لما تنطوي عليه من عبث وترف وفساد وانحلال، وهو لا يرى انتماء الإنسان المعاصر إلى أي مذهب من المذاهب، حتى لا يصيبه الكثير من القلق والحيرة والتيه، ولأن يكون الإنسان غير منتم إلى شيء من المذاهب الراهنة أفضل من أن يكون منتميًا.. و« كولن ويلسون » يؤمن بانهيار الحضارة المعاصرة، مثلما انتهت الحضارات الكثيرة القديمة البائدة. إنه يذهب إلى عدم الانتماء، أو إلى مذهب « الرفض » للحضارة الماثلة السائدة اليوم، وإلى اعلان السخط عليها، لأنها هي سبب شقاء الإنسانية وعذابها اليوم، لأنها في رأيه سوف تنهار انهيارًا كاملًا بفعل عصر الجنس والعبث والفساد والمجون الذي لا حد له.

ان فقدان حضارة الغرب للقيم الروحية أفسدها ويفسدها، بل يسير بها حثيثًا إلى الانهيار التام.

ولقد كتب « فون باين » مستشار الرايخ الألماني قبل هتلر في مذكراته يقول: « اننا نقف على حافة هاوية، ذلك لأننا تعلقنا بأهداب العلم، وظنناه كل شيء حتى استعبدنا العلم، وبالغنا في الآلة والاختراع، حتى صرنا عبيد الآلة والاختراع، ولم تبق إلا بارقة أمل وحيدة في النجاة، وهو أن نؤمن أن

---

(١) سورة يونس آية ٢٤.

هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق قد وضع له سننًا وقوانين، فإن سرنا على هدى من هذه السنن والقوانين سخر لنا العلم، وسخر لنا الاختراع، ونجونا، ولم نسقط في الهاوية»

وكتب أحد أساتذة السوربون كتابًا بعنوان «المدينة الإسلامية» وقال فيه: «بأن العالم تتجاذبه اليوم قوتان ماديتان جبارتان: قوة الرأسمالية الغربية، وقوة الشيوعية المادية الالحادية، وهاتان القوتان الماديتان صائرتان حتمًا إلى الزوال، لأنهما تفقدان القيم الروحية. ولكن هناك قوة ثالثة تهددنا جميعًا، وهذه القوة الثالثة لا يعرفها أصحابها حتى الآن، هذه القوة الثالثة هي التي حاربناها طوال القرون التي مرت، ومع ذلك بقيت لها مآذن في مشارق الأرض ومغاربها منتشرة، هذه القوة هي الإسلام».

وأخذ المؤلف يعلل لماذا يعتبر الإسلام القوة الثالثة التي تهددهم كما يقول، ويصف كيف ان الإسلام يصنع الرجل المثالي، ويتكلم عن الفروض في الإسلام، فيقول عن الصلاة: انها صفوف نظامية، ويقول عن الآذان: انه اعلان التعبئة العامة المستمرة..

ومن قبل كتب علماء الحملة الفرنسية على مصر التي صحبت نابليون يعللون لفشل الحملة فيقولون: «ان جيوشنا قد اصطدمت بصخرة منيعة، لقد اصطدمت بالعقيدة الإسلامية وبقوم يؤمنون أن من يقاتل إنما يقاتل في سبيل الله، وانه إذا قتل فإنه يرث جنة، عرضها السموات والأرض، وانه لا سبيل إلى فتح بلاد المسلمين إلا إذا حطمنا هذه العقيدة».

وبعد هذا الكلام الطويل أخلص إلى أن العقيدة الاسلامية تقوم على أساس متين من: التوحيد وتقوى الله في السر والعلن، والعدالة التامة، والايثار، والمحبة، والتعاون، والصبر، وشتى القيم الروحية التالدة الخالدة، ومن المساواة والشورى، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. والاعتراف بحقوق الإنسان في الحياة. وعندما جاءت امرأة من بني مخزوم إلى رسول الله ﷺ وكانت قد سرقت فجاءت قريش تسأل - على لسان أسامة بن زيد - رسول الله ﷺ أن يضع عنها الحد، فقال رسول الله ﷺ له: أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟ ثم قام فخطب فقال: إنما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وخطب عمر بن الخطاب يومًا فقال: ألا اني والله ما أرسلت عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفسي بيده إذن لأقصن منه.

فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أفرأيت ان كان رجل من المسلمين على رعيته، فأدب بعض رعيته، انك لمقتص منه؟ فقال عمر: أي والذي نفس عمر بيده إذن لأقصن منه، وكيف وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم.

وروي عن رسول الله ﷺ: «ارحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وفي مصر الإسلامية في القرن الثامن عشر، في عهد علي بك الكبير، جاء الناس إلى الإمام الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر آنذاك، فقالوا له: ان أحد المماليك يأبى أن يخضع لحكم قضائي شرعي صدر لحساب جزار في الحسينية، فقال: ائتوني بالمنادي، فليناد في الناس بأن تغلق الحوانيت ـ المحلات ـ واجتمع بالناس بعد صلاة الجمعة فذهب بالجماهير إلى القلعة، فخرج علي بك الكبير حاكم مصر آنذاك إليه، ومد يده إلى الشيخ، فرفعها أمام الجماهير، وهو يقول: إني أكاد أرى هذه اليد والنار تأكلها.

وقد وضع الإسلام مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ليحارب المسلمون مظاهر الفساد والانحلال والتسيب في المجتمع وليكونوا يدًا واحدة في الالتزام بكتاب الله، وفي اتباع أوامر الله وطاعته وتقواه حق تقاته.

المكارم وفضائل الأعمال

ولقد سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ذات يوم عن خلق رسول الله، فقالت: كان خلقه القرآن.. وهي كلمة جامعة مانعة.. انه رسول الله إلى الناس، وهو أشد المسلمين التزامًا بقانون الله، وكتاب الله، وأوامر الله عز وجل.. وفيه يقول الله عز وجل: ﴿وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] وقد تولى الله عز وجل تأديبه.

وفي ذلك يقول رسول الله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».. أدبه ربه بالوحي المرسل، والقرآن المنزل، تحلى بخلقه، وتجمل بمحاسنه، واتخذه نبراسه في الحياة حتى كان أكرم خلق الله، وأعظم إنسان في الوجود بخلقه الإنساني الرفيع، وبأدبه الالهي الجليل، وهو ﷺ وكما حدث القرآن الكريم عنه: ﴿وما ينطقُ عنِ الهَوَى ★ إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2].

---

(١) سورة القلم آية ٤.

(٢) سورة النجم الآيتان ٣ و٤.

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال بين يدي الله، دائم السؤال لله تعالى ان يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، وقال ﷺ: «إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق»، وكان دعاؤه: اللهم أحسنت خلقي - بفتح فسكون - فأحسن خلقي - بضمتين.

صدقت عائشة أم المؤمنين، حين قالت لسائلها: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن أي ما دلّ عليه القرآن من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، وقال القاضي عياض في الشفاء: أي كان خلقه جميع ما فصل في القرآن، فإن كل ما استحسنه ودعا إليه وأثنى عليه تحلى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه، وحذر منه، تجنبه، وتخلى عنه، فكان القرآن بيان خلقه.

وقال ﷺ: «إن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها» أي حقيرها ورديئها، والسفساف في الأصل هو ما يتطاير من الدقيق والتراب إذا نشر. وقال ﷺ لابنة حاتم الطائي وقد أسرها المسلمون، واسمها «سفانة» ما معناه: أنت ابنة حاتم؟ قالت: نعم؟ ان أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني - الأسير - ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، فقال ﷺ: يا جارية، هذه صفة المؤمنين، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه.. ثم قال للمسلمين: خذوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الاخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق.

ومن خلق القرآن: مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، وحسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب. وهو كناية عن التواضع وبذل المعروف، وهو اسم جامع للخير كله، وبذله: اعطاؤه، واطعام الطعام، وافشاء السلام، وعيادة المريض، والإحسان إلى الفقير والمسكين واليتيم والأرمل وذي الحاجة، وحسن الجوار، والاصلاح بين الناس، والجود والسخاء والمساحة وكظم الغيظ والعفو عن المسيء، واجتناب الباطل والشر والايذاء والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترك الغيبة والنميمة والحقد والبغضاء والشر والكذب والبخل

والشح والمكر والخديعة وقطيعة الارحام، والفحشاء وسوء الخلق، والكبر والخيلاء، والعدوان والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

صالح القول والعمل

وفي الاجمال فان خلق القرآن هو السلام سلام المرء مع نفسه، فلا يجشمها بالطمع والغرور والكبر والخيلاء والتطلع إلى ما في أيدي الناس وتقليد الغير تقليدًا أعمى، لا يجشمها بذلك ما لا تطيق.

وسلام المرء مع أسرته: بما يعطيه لهم من الحنان والعطف والرعاية والقيام بما أمر الله تعالى به لهم من الواجبات.

وسلام المرء مع مجتمعه، فلا ينحرف، ولا يعتدي على غيره في مال أو عرض أو نفس، ولا يتأخر عن أداء ما عليه للمجتمع من واجبات.. ولا يتعود على الرذائل والقبائح الخلقية الفاسدة.

فالسلام هو خلق القرآن، وهو خلق الرسول ﷺ وهو خلق المسلم، في كل مكان وزمان، الهمنا الله السداد ووفقنا إلى صالح القول والعمل، وما توفيقي إلا بالله.

الإسلام بين الأمس واليوم

آمنت بالله..

آمنت بالإسلام.

آمنت بالقرآن..

آمنت بأن الذي أنزل المعجزة على رسوله: محمد بن عبدالله، هو الذي صنع المعجزات الكبرى في تاريخ الإسلام..

لو أن إنسانًا جاء ليقول لنا اليوم:

ان أمة مسلمة فقيرة قليلة العدد، لا تعرف التقدم الحضاري ولا التكنولوجيا الحديثة، وليس فيها صناعات ولم تتأصل فيها التقاليد العسكرية، وليست عندها جيوش حربية متطورة، كالأردن مثلًا، وقفت أمام أعظم دولة معاصرة كأمريكا وهزمتها، ووقفت أمام قوة عالمية كبرى كروسيا ودمرتها.

لما صدقنا.. وقلنا: ان ذلك خرافة، ما بعدها من خرافة.. وأسطورة من نسج الخيال وحده.. فلو حدث ذلك لكان معجزة من الله، وعملًا خارقًا من نسج السماء. ولقد حدث ذلك في التاريخ، بعد نزول الرسالة بقليل.

ففي خلال ما لا يزيد على أربعين عامًا من بدء نزول الوحي على: محمد ابن عبدالله في غار حراء بمكة كان الإسلام قد طوى ـ تحت سنابكه ـ أعظم

امبراطورية عرفها التاريخ هي الامبراطورية الفارسية، واستولى على أملاك الامبراطورية الثانية وهي الأمبراطورية الرومانية الشرقية، ففتح مصر والشام وليبيا والمغرب كله، واجتاح سهول آسيا الصغرى، ووقف على أبواب العاصمة الرومانية: «بيزنطة» التي لم يبق لها إلا أجزاء قليلة في أوربا على شاطئ البحر الأسود والبحر الأبيض.

ولقد كان انبعاث الإسلام ـ على هذه الصورة الغريبة ـ عملًا معجزاً، حطم كل الأقيسة التاريخية كما يرى المؤرخ الانجليزي المعاصر «توينبي».. ووقف حياله العالم ـ منذ ذلك التاريخ، حتى اليوم مبهورًا مذهولًا، لا يدري: كيف حدث، ولا كيف كان؟

فلقد أصبحت الدولة الإسلامية ـ بعد فتح العراق وفارس والشام ومصر وغيرها ـ وارثة للامبراطورية الساسانية، مثلما ورثت ملك الدولة الرومانية.. ثم تحولت ـ بعد قليل ـ إلى امبراطورية عالمية كبرى، فاقت الامبراطوريات العالمية القديمة: البارثية، السلوقية الاخيمية، البابلية الجديدة، الاكادية، الفارسية، الرومانية.

فما هي الأسباب التي ساعدت على قيام تلك المعجزة؟

لا سبب أبدًا إلا الإسلام.. وإلا القرآن..

وإلا صنع المعجزة التي هي من صنع السماء..

آمنت بالله..

آمنت بالإسلام..

آمنت بالقرآن..

لقد عاشت اللغة العربية لغة أمة فقيرة في الجاهلية ـ وقبل ظهور الإسلام لغة محدودة يتكلم بها عدد قليل من الناس..

ونزل القرآن ـ وهو كتاب عربي مبين ـ يحمل الهداية والنور إلى الأرض، ويؤدي إلى الإنسانية والإنسان رسالة السماء: ورسالة الإسلام..

ومرت بلغة القرآن الكريم سنوات وسنوات..

وإذا هي اللغة العالمية الأولى: يتكلم بها الخليفة الأموي في عاصمته دمشق، وتتكلم بها جيوشه وولاته من الصين إلى شاطئ المحيط الأطلسي، ويتعلمها أكثر سكان العالم، ويقبلون عليها، ويتخذونها لغة جديدة لهم، وتصبح هي اللغة الرسمية لجميع شعوب العالم الإسلامي.

ويترك الكثير من الشعوب لغتهم الأصلية، لأنهم اختاروا مكانها اللغة العربية.

وتموت بعض هذه اللغات القديمة، ويبقى بعضها بين الموت والحياة، وتحدث ظاهرة فذة جديدة، في تاريخ اللغات، لم تحدث ـ من قبل ـ لأية لغة أخرى، ولا يمكن أن يحدث مثلها للغة من اللغات إلا بعد مرور أجيال وقرون، وأحقاب ودهور، وأعمار وعصور..

فماذا حدث؟ وكيف حدث ذلك؟

إنها معجزة للغة القرآن ـ معجزة من الله: لا سبب ترجع اليه: إلا الإسلام وحده وإلا القرآن الكريم: كتاب الإسلام الخالد ووحي الله المبين، المنزل من السماء على خاتم المرسلين: محمد بن عبدالله ﷺ.

الاسلام والمسلمون في عالم اليوم

عندما وقفت على شاطئ طنجة أحدق في الشاطئ المقابل للمدينة وأرى أمامي البحر، أو ما يسمى مضيق جبل طارق، غاب فكري في ذكريات قديمة، وذكريات عبور طارق بن زياد للمضيق، ونزوله في جبل طارق، حيث واصل منه السير بجنوده إلى سهول الأندلس الخصيبة، وتم له فتح الأندلس بجنوده القليلة، وأصبح للإسلام في الغرب دولة، وطال عمر هذه الدولة ثمانية قرون، ثم كانت المأساة، وخرج المسلمون من الأندلس، وقد اعتراهم الذهول والحسرة والحيرة، وفقدوا الفردوس الذي كانوا فيه، وأراد الله، ولا راد لمشيئته، أن يلقى المسلمون في الأندلس هذا الامتحان الرهيب.

وفي هذه الوقفة الحالمة أمام المضيق وجبل طارق، ساءلت نفسي: ترى لو كان المسلمون في هذه الجنة الوارفة على مستوى المسئولية، ومستوى الأحداث أكان يمكن أن يحدث شيء مما حدث؟

أكانت محاكم التفتيش تفتح أبوابها لهم؟

أكان « فرديناند » وايزابيلا يستطيعان أن يصنعا ما صنعاه من دامي الأحداث؟

وعندما دخلت متحف الإمام المهدي في الخرطوم، ورأيت ما رأيت، وشممت عبق الذكريات الخالدة تفوح رائحته من المكان، ساءلت نفسي: ترى

لو كان الإمام المهدي قد انتصر في المعركة، ولم يلق ما لقي من المصير الدامي اذن لكان للإسلام شوكته، وللمسلمين قوتهم المرهوبة، وعزهم الذي لا يزول.

وعلى إطلال الدرعية رأيت آثار التاريخ تتحدث عن مأساة الخلاف الفكري بين جماعات المسلمين، وما يحدثه هذا الخلاف من نتائج دامية أليمة يفيضه إلى كل نفس، حيث يصبح الحكم في العلاقات بين طوائف المسلمين وهو السيف، وبذلك تزول الالفة، وتتفرق الوحدة وتضيع الاخوة الإسلامية المتينة، التي صنعها الله وأرادها.

وفي درنة رأيت مقبرة سبعين صحابيًا من قواد الفتح الإسلامي للمغرب مهملة منسية، وكأنها لا تحتوي على أمجاد تاريخنا العظيم الخالد.

وعندما تجوَّلت في أنحاء كراتشي عجبت للمسلمين كيف لا يبنون وحدتهم على أساس متين من لغة القرآن، هذه اللغة الشريفة التي وحدت بين المسلمين عامة.

الوطن والتاريخ والذكريات

وفي كيرالا في جنوب الهند رأيت المسلمين يبنون حاضرهم ومستقبلهم بأظافرهم، ويعملون من أجل المستقبل وينظرون إلى الماضي المعطر بشذى المجد والاريحية والجلال، وكأن مواكب محمد بن القاسم الثقفي الظافرة ما زالت تسير من شيراز إلى مكران إلى السند، أو كأن جيوش السلطان محمود الغزنوي ما برحت ترفع لواء الإسلام فوق ربوع الهند في كل مكان.

واقليم كيرالا جنة خضراء، تموج بأشجار جوز الهند والأناناس والموز والمطاط وغيرها، والمياه الغزيرة فيه تعمل عملها في خصوبة الأرض، ووفرة الثمار.

لقد كنت أشفق على مسلمي الهند من الخلافات الطائفية، وحرب الطوائف

الأخرى لهم.. وكنت أظن الهندي المسلم يعيش على بركان ثائر.. لكنني في زيارتي للهند لمست حب الهندي المسلم للأرض والدار والوطن والتاريخ والذكريات المجيدة التي عاش لها أجداده. وبعد القوانين الجديدة في ولاية كيرالا وفي جميع أقاليم الهند ذهبت طبقة الأثرياء الذين كانوا يعملون من أجل انشاء الجامعات والمدارس والمعاهد والمساجد الإسلامية. ومن ثم بدأ الهندي المسلم يشعر بحاجته الماسة إلى المال للحفاظ على دور العلم في بلاده، ولتأسيس الدور الصناعية والمراكز الثقافية المختلفة ومن ثم فقد عمل على جباية الزكاة للصرف من ريعها على الخير والبر والعلم والملاجئ والمستشفيات وسواها.

واعتزاز الهندي بأرضه يعادله اعتزازه بحياته وروحه وعرضه ومن ثم فهو يعمل من أجل مؤسساته ما يعمله لنفسه ولأولاده.

ويتطلع الهندي المسلم إلى أرض الإسلام العربية وإلى الدول العربية البعيدة عنه بألاف الأميال، تطلع الأخ إلى أخيه، يتمنى أن يذكره أخوه المسلم على ضفاف النيل أو فوق هضبات مكة والمدينة والطائف وجدة أو في سهول الشام والعراق والمغرب العربي، كلما طلع الصباح أو قربت الشمس، وحنينه الدائم ولا ريب هو لأرض العروبة والإسلام.

وفي المراكز الثقافية والعلمية والصناعية يعمل خيرة الشباب المسلم الهندي من أجل حاضرهم وغدهم، ومن أجل مستقبل أعظم للإسلام والمسلمين في الهند.

في الجامعات الإسلامية

ان اللغة العربية في مراكز الثقافة في الهند ضعيفة، والكتب العربية نادرة.. ومن أجل ذلك يجب على كل إنسان في الدول العربية أن يعمل من أجل وفرة الكتب العربية في مختلف المكتبات والجامعات والمعاهد والمدارس في

الهند، وأن يعمل كذلك من أجل إقامة مراكز ثقافية عديدة لنشر اللغة العربية وتعليمها.

ويجب أن يكون هناك سخاء حقيقي في الصرف على أقسام اللغة العربية في مختلف الجامعات الهندية.. وبخاصة الجامعات الإسلامية.

والفقر في الهند كثير، ولكن المسلم هناك هو مثال الشموخ والعزة والرأس المرفوع دائمًا.

والهند على صلات قديمة بالعالم العربي، وهذه الصلات كانت تقوم على التجارة. وبعد الفتح الإسلامي للهند صارت اللغة العربية والجنس العربي مألوفًا جدًا في ربوع الهند.

ولقد ترجمت معاني القرآن الكريم إلى اللغة الهندية بأمر من أحد حكام الهنود وهو راجامهروك، فتولى ترجمته عبدالله بن عمر العراقي الذي قضى شطرًا من حياته في الهند، تعلم فيه لغتها وعلومها كما استهوت الهند بعلومها وكنوزها كثيرين من علماء العرب وتجارهم، وأغرتهم بزيارتها للتنقيب في كنوزها العلمية، أو للاتجار في سلعها وصناعاتها المتعددة. وكان الرحالة العرب دائمي التردد على أرض الهند.

وقد هاجر من الهند إلى البلاد العربية كثير من العلماء والأطباء والمنجمين وأهل الحكمة الهنود وأقاموا في بغداد ودمشق ومكة والمدينة والفسطاط. وزخرت بغداد عاصمة الخلافة العباسية بالوافدين عليها من الهند، وعملوا في مختلف المجالات العلمية والصناعية.

وفي الفترات الأخيرة وجدنا الكثير من الشباب الهندي المسلم يفدون إلى الأزهر ومختلف الجامعات العربية للتزود من الثقافة الإسلامية والعربية.

وقد تخرج من الأزهر طائفة كبيرة من الشباب الهندي المسلم من مختلف كلياته: سواء اللغة العربية أم الشريعة، أم أصول الدين أم غيرها.

والمرأة المسلمة في الهند تحافظ على شرفها وعرضها محافظة تامة وتمتاز بالخلق الدمث والعفة الكاملة والحيوية المتدفقة، وتشارك في معاهد العلم في حمل مسئولياتها من أجل البناء والرخاء. ولا تخرج من المنزل إلا للضرورة.

والطفل الهندي المسلم يمتاز بالذكاء والنشاط والحيوية وسرعة البديهة.. والاسرة المسلمة في الهند أسرة متماسكة قوية البنيان عزيزة الأركان، وقد حضرنا عرسًا هنديًا لشاب مسلم، حيث مدت الموائد، وأقيمت الزينات، واحتفل الرجال والنساء والأطفال بهذه المناسبة السعيدة احتفالًا شائقًا.

التصوف الإسلامي في الهند

وبعد، فالإسلام في الهند بحاجة قوية إلى المساندة العلمية والمالية من الدول العربية وبخاصة دول البترول الغنية. والانفاق على الإسلام في الهند أمر ضروري تحتمه الاخوة الإنسانية والإسلامية وواجب الحرص على بقاء الإسلام ومؤسساته في هذه الربوع وعلى نموها وازدهارها..

وإني لأرجو ان لا تدخر هيئاتنا الرسمية والشعبية جهدًا من أجل زيارة المراكز الإسلامية في الهند، والالتقاء بالقائمين عليها ودعوتهم إلى زيارة العالم العربي.. فذلك واجب تفرضه الأخوة الإسلامية.

وأرجو لمجلة التصوف الإسلامي أن تسهم بدور فعال في زيادة تعارف مسلمي الهند باخوانهم المسلمين في كل مكان.

الترف هلاك الشعوب

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومن الترف أعدى اعداء الأمم والشعوب والحضارات من قديم، وقد ذمه الحكماء لأنه داء وبيل ذميم، بل ذمه الله جل جلاله في كتابه الحكيم، يقول الله عز وجل في سورة الأسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

والمعنى: واذا اذن ربك بهلاك أمة عاش أغنياؤها عيشة الترف واللذة، فنسوا الحقوق وتركوا الواجبات، وعاشوا للذاتهم وشهواتهم واهوالهم، لا يرتدعون عن معصية، ولا يندمون لألم ارتكبوه، وقادهم كل ذلك إلى الفسوق والمجاهرة بالمعاصي وارتكاب المنكرات، وقلّدهم في ذلك غيرهم.. فاستحقت هذه الأمة غضب الله وعذابه وهلاكه، وجاءها أمر الله، فدمرها الله، جل جلاله، تدميرًا..

وفي قراءة: أمرنا بتشديد الميم، أي كثرنا المترفين فيها، أي زدناها مالاً ورخاء، فازداد الأغنياء فيها، وبدأوا يعيشون عيشة الترف، وقادهم ذلك إلى الفسوق والمنكر، واستحقت الأمة الهلاك بسبب ذلك، أو أن أمرنا من

---

(١) سورة الإسراء آية ١٦.

الامارة اي جعلنا المترفين في الأمة هم أصحاب النفوذ والكلمة والجاه، فيها وهم حكامها وامراؤها، فحكموا بالهوى، ونشروا الرذائل، وقاد ذلك كله الأمة إلى الهلاك والوبار والدمار، وساء ذلك مصيراً.

والترف هو حياة الغني للذاته وشهواته، ولنفسه وأهوائها ومآربها، لا يعرف غيره من فقير او محروم، ولا يبالي بمن سواء من مسكين أو يتيم أو بائس مكدود بل هو استرسال الغني في هذا المضمار، وعكوفه على الآثام والفجور، لا يكف عن حياته اللاهية هذه، ولا يتجنب مآثمه المهلكة المدمرة بحال من الأحوال ونعوذ بالله من الخذلان.

ومن شأن المال أن يغري، وأن يغوي، وأن يضل ويهلك، وقد عرفت فقيراً آتاه الله حظًا فأغناه فإذا به يصم آذانه عن نداء الفقراء، ويصرف أحواله على الخمر والنساء، والطعام والموائد الدسمة، وعاش على ذلك لا يؤدي حقًا، ولا يعرف لذة المروءة والمواساة أو مد يد العون للمحتاج.

وليس كالطاعة والانقياد لأمر الله فضيلة، ففيها الاستقامة وامتثال أوامر الله عز وجل، ومراقبة الضمير للانسان..

ومن أجل ذلك كله حمد الله الزهد والورع وترك الدنيا، وحمد الله الشكر، وحمد الصبر، وجعل الجوع فضيلة، وجعل خشونة العيش والاقتصار على القليل من الطعام والشراب وغيرهما من حظوظ النفس من الأمور الجليلة. وقال تعالى في ذم أناس: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

وتقول عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قبض».

---

(١) سورة مريم آية ٩٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم او ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقال: ما اخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال وانا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما»..

ويقول عتبة بن غزوان: لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا، والقوت: هو ما يسد الرمق.

مضامين الحديث الشريف

ولننظر إلى هذا الحديث الشريف، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، ونصه: قال أبو هريرة: والله الذي لا إله إلا هو، ان كنت لاعتمد بكبدي على الارض من الجوع، وان كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر بي رسول الله ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال صلوات الله عليه لي: «أبا هر» - أي يا أبا هريرة - قلت: لبيك يا رسول الله: قال: الحق، ومضى، فأتبعته، ندخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخلت فوجد لبنًا في قدح، فقال من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان، قال، صلوات الله عليه: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق الى أهل الصفة، فادعهم لي، قال أبو هريرة: وأهل الصفة أضياف الاسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، أو كان صلوات الله عليه اذا اتته صدقة بعث بها اليهم، ولم يتناول منها شيئًا، واذا أتته هدية أرسل اليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها: فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة اتقوى بها، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله، ﷺ، بد، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، وأستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت

- أي بيت رسول الله ﷺ - فقال ﷺ: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله قال: خذ قدح اللبن، فاعطهم. فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الآخر، فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي، ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح، فوضعه ﷺ على يده، فنظر إلي، فتبسم، وقال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال صلوات الله عليه: بقيت انا وانت قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت، فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول لي: اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكًا، قال صلوات الله عليه: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله، وسمى، وشرب الفضلة.. رواه البخاري..

ومضامين هذا الحديث كثيرة لا تنتهي، وليس بنا حاجة إلى الابانة عنها، فكل قارىء لهذا الحديث يعرف منها مثل ما أعرف.

مطلع القرن الخامس عشر الهجري ومواجهة التحديات

كان بزوغ القرن الرابع عشر (أول محرم ١٣٠١ هـ ـ ٢ نـوفمبر ١٨٨٣ م)، ايذانًا ببدء سيطرة الاستعمار الغربي على معظم العالم الاسلامي.

فالسيطرة الانجليزية فرضت على مصر عام ١٨٨٢م ثم خطت نحو السودان أثر ذلك، والسيطرة الفرنسية فرضت على الجزائر وتونس والمغرب، وفي عام ١٩١١ تحركت ايطاليا فاحتلت ليبيا..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبحت سوريا تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والعراق تحت الانتداب الانجليزي.. وهكذا أصبحت شعوب العالم العربي خاضعة للسيطرة الغربية. وعاشت ايران وأفغانستان تحت قبضة النفوذ الانجليزي والروسي..

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذت هذه الدول المحتلة تتحرر من قبضة النفوذ الغربي: السودان ـ وسوريا ثم العراق ومصر، ثم المغرب وتونس، ثم ليبيا.

وفي أعقاب الحرب كذلك نشأت دولة باكستان المسلمة..

وهكذا شهد القرن الرابع عشر تحولات كثيرة عاشتها المنطقة الاسلامية..

وإن كانت قد لقيت من روح الصليبية وروح التبشير وروح العلمانية ومن

الماركسية والصهيونية والالحادية الكثير من العنت وسوء الحال.

وبلا ريب فإن نفوذ الغرب يفرض على شعوب الاسلام العلمانية فرضاً كأنها حكم لازم، وإن كان ذلك ضد رغبات الشعوب، وضد روح التاريخ والموروثات القومية والروحية لشعوب الاسلام.

وفي اشراقة القرن الخامس عشر الهجري (٩ نوفمبر ١٩٨٠) يجب على المسلمين في كل مكان أن يستفيدوا من تاريخهم وشتى مقوماتهم الدينية في مقاومة الماركسية التي تغزو العالم الاسلامي اليوم غزواً عنيفاً، عن طريق الخلايا والمنظمات الشيوعية المنبثقة في كل مكان..

فالاسلام دين إنساني، يكره العنف والبطش، ويكره الطغيان، ويؤمن بالاخاء والسلام والحرية ويحارب الالحاد بكل وسائله، ويدعو إلى الحب والتعاون وحرية العقيدة، وإلى أن يعيش المجتمع الاسلامي في أمن وأمان، وفي ظلال سلام اجتماعي شامل.

وموقف الاسلام من كل الدعوات الضالة معروف، فهو يحارب العلمانية ويحارب الالحاد، ويحارب الماسونية، ويحارب الصهيونية التي تقف موقف الخصومة من السلام ومن الدين، ويحارب كل ما اشتق منها من دعوات.

ان موقف الاسلام مع الحق ومع العدل أينما كانا، وحيثما وجدا.. موقفه دائمًا مع الدين ومع رسالات السماء، وشرائع الانبياء والمرسلين.

وليس أضر على الانسانية من شيوع الانحلال والرذائل والاخلاق الفاسدة، والتقاليد الضارة، ومن الانصراف عن مقوماتنا التاريخية الاسلامية..

الاسلام يؤمن بكل نافع وسديد من الاقطار والآراء، ومن المبادئ والقيم، ومن المثل الشريفة، والمناهج السديدة، ولا يؤمن بالباطل والزور والفساد والشر والانحلال.

وهو دين القيمة، ودين البينة، ودين الفضائل الانسانية العالية، ولا يستقيم ذلك كله مع البهتان والافك ودعوات الضلال، ومبادىء الانحلال، بحال من الأحوال.

وفي شروق القرن الخامس عشر علينا أن نفكر في اعادة الروح الاسلامي إلى الانسان المسلم، وفي تصحيح الفكر الاسلامي في ضمير الفرد المسلم وفي وجدانه وفي نفسه.. حتى لا نسمع من يرمي الاسلام بالرجعية، ولا من يصفه بدين التواكل، ولا من يفهم شريعة الله على أنها تدعو إلى العزلة عن الحياة.

لا يعرفون الترف ولا يعرفهم

وعن فضالة الانصارى انه سمع رسول الله ﷺ يقول: طوبى لمن هدى للاسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع..

والمثل يقول: القناعة كنز لا يفنى.

ومن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ: يبيت الليالي المتتابعة طاويًا ـ أي جائعًا ـ وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز شعير.

ومغزى ذلك كله ان رسول الله ﷺ هو ومجتمع الاسلام في المدينة قد عاشوا على الفقر، ولكنهم كانوا اعزاء النفس، إلى الدنيا، ويكتفون بالقليل، ويتحملون الجوع والحرمان، لا يعرفون الترف، ولا يعرفهم الترف أبدًا.

لم يكونوا ذوي مال ولا غنى، ولكنهم رضوا بالله ربًا، وبالاسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا.

وفي المسلمين اليوم مجتمعات كثيرة، بعضها مجتمع الوفرة والرخاء، وبعضها مجتمع الحاجة والخصاصة، ومن الواجب على كل مسلم يملك شيئًا، أن يعطي

لأخيه المسلم مما يملك ما يسد به حاجته، ويدفع به خصاصته.

أما حياة الترف والأثرة، وان ينفق الانسان ماله على نفسه وحده، يتفنن به في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وينفق على ذلك كله بترف شديد، ولا يذكر أحدًا إلا نفسه، فذلك هو الهلاك والوبال والنكال والداء الدوي الذي يجعل الانسان أسير شهوته، وعبد لذته، ولا يذكر الله إلا قليلًا، ولا يتفكر إلا في رحلاته ومآدبه ولذاته، وقد يقوده ذلك إلى الحرام، من قمار، أو زنا، أو خمر فيضل بذلك ضلالًا بعيدًا، ويدخل بسببه إلى جهنم وبئس المصير.

ان الترف هو داء الانسانية الوبيل، ومرض الحضارة الذميم، وغول يغتال صرح الأمة وسعادتها وأمنها وسلامتها.

وكل الأمم التي يصيبها داء الترف فإن حياتها تصبح معرضة للخطر، وان بقاءها يصبح غير مأمون، وان عاقبتها لهي عاقبة السوء أو أشد..

الترف سوس ينخر في جسم الأمة، ودمار يدمر كيانها، والمترفون هم سبب بلاء المجتمعات العالية، فهم الذين يشرعون للناس أسباب الفساد والانحلال، وهم الذين يبذرون بذور الشر والرذيلة في المجتمع، وهم الذين يقضون على الفضائل والقيم الاسلامية الرفيعة التي طالما أعزت الاسلام والمسلمين قضاء مبرمًا لا رجعة فيه.. وهم سبب فساد الأمم وانحلالها، فلا تنتصر في حرب، ولا تستطيع السباق في مجتمع السباق العالمي.

يوم الفصل الحق

الترف شر كله، وبلاء ما بعده من بلاء وضر لا نفع فيه؟ وهلاك ودمار للفرد والمجتمع والأمة، وهو عذاب من الله شديد يسلطه الله على العصاة المذنبين، فيقضي على نخوتهم، وينخر في شوكتهم ويصيب شر قوتهم في الصميم.

ليت مجتمعات الترف في العالم العربي والاسلامي، تعرف مضار الترف وعواقبه وتعرف حق الله وحقوق الناس عليهم، وتعرف ان العزة والمجد والقوة في الخشونة والشظف، وفي العمل من أجل رفاهية المجتمع.

ولمحاربة الترف حرم الله على الرجال لبس الذهب والفضة، ونهى رسول الله ﷺ الرجال عن لبس الحرير، ودعا صلوات الله عليه إلى ترك الكبر والغرور والخيلاء والبطر، وإلى الاحسان للناس كافة، وإلى ترك التعالي والكبر والكسل والبطالة.

ونعوذ بالله من شر الترف والمترفين، ومن ضلال الضالين، وشرك المشركين، واثم الآثمين إلى يوم الدين، يوم الفصل الحق، وما هو بالهزل، وسلام على من اصطفى..

فليس هناك دين كالاسلام في سموه وجلال نزعته، وعظمة دعوته للحياة والتقدم والمدنية والحضارة، وفي إيمانه بالعمل ودعوته إليه، وفي حثه على العلم بكل فروعه وأنواعه، وبكل ما يستطيعه الفرد المسلم..

وليس هناك شريعة كالاسلام تجمع بين الدين والدنيا وبين الروح والجسد وبين العمل للحياة والعمل للآخرة وبين نظافة الروح ونظافة الجسم، وبين طهارة الاعراق وطهارة الأثواب، وبين الزهد والورع مع العمل في العيش والكد في سبيل الرزق بكل ما يطيقه الانسان..

ان الاسلام دين مثالي حضاري اجتماعي تقدمي، لا يضارعه في ذلك كله دين من الاديان، ولكن المهم في القضية أن يؤمن الانسان المسلم بمنهج الاسلام الرفيع في الحياة ايمانًا كاملًا لا يعتريه الشك ولا الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وذلك هو ما يجب ان يكون مهمة الدعاة والمرشدين والعلماء السالكين إلى الله عز وجل، المتجردين لخير الدين والدنيا والعاملين لأسمى غاية، وأنبل هدف، وأشرف غرض، وأعلى مبدأ..

وفي مشرق القرن الخامس عشر علينا أن نؤمن بأن الشعوب الاسلامية عليها أن تصبح وحدة واحدة، وإلا ذهبت بددًا مع الرياح الهوج العواصف.

عليها ان تجتمع في كتلة واحدة قوية لا سبيل للتفرق ولا للخلافات والخصومات ولا للشيطان والهوى عليها بحال من الأحوال.

ان الوحدة الاسلامية هي جزء من مقومات الاسلام، واجتماع المسلمين على كلمة الله الحق هو ضرورة من ضرورات الحياة لهم في دينهم ودنياهم، وأولى لهم ان يلوذ بعضهم ببعض من أن يحتمي بعضهم بالراية الحمراء، ويظن أن ذلك سوف يمنعه من الله، أو يعصمه من السوء ورغبات الجماهير ودعواتهم.

ان القوة في الوحدة، واجتماع الكلمة يعصم من تفرق الرأي، وتشتت الجهد، وتوزع الغرض، وتعدد الغاية، ولم تبلغ أمريكا ما بلغته إلا بوحدة أقاليمها، وها هي ذي أوربا حين ضاق بها السبيل تجتمع في كتلة اقتصادية كبرى، تعمل من أجل خير الانسان الاوربي ورفاهيته وتقدمه..

والمسلمون لابد ان يسيروا إلى الوحدة مهما كان السبيل إليها عسيرًا، والا داستهم الأمم، وغلبتهم الحياة.

والعلم هو شعار انسان الحضارة، انسان اليوم.. فبالعلم صعد الانسان إلى الفضاء، وهبط على سطح القمر، وصنع الكثير من المعجزات، وبالعلم يبني الانسان المستقبل.

وليس هناك دين كالاسلام يؤمن بالعلم ويدعو اليه ويحث عليه، ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وبالعلم صعد الانسان المسلم إلى قمة الحضارة والمدنية في الماضي.. وسار في مصاف الشعوب المتقدمة، وصار في عداد الدول الكبرى..

وبالعلم يجب ان يتسلح الانسان المسلم اليوم حتى يملك الزمام، ويستحوذ على الغاية، ويبلغ أقصى المدى من التقدم والحضارة والرفاهية.

وذلك هو غاية الانسان المسلم في القرن الجديد، الذي سيتسابق فيه الناس تسابقًا شديدًا للوصول إلى الغايات الكبار المنشودات.. والمسلم يجب أولًا وأخيرًا ان يكون في الصف الاول من هذا السباق الحضاري الانساني الكبير وذلك هو مهمته الكبرى في مجتمع القرن الخامس عشر، قرن الصراع الجبار على السيادة والنفوذ والسلطان في الأرض.

وبعد فإن مسلم القرن الخامس عشر عليه ان يفهم أن عصر التخلف والجمود والتواكل والضعف والهوان والذلة قد انتهى الى غير رجعة.

وأن بعثًا جديدًا يلوح في الأفق، ويبدو ضياؤه بين دياجي الظلمات، انه بعث حضاري يدعو إلى أن يسترد الانسان المسلم إيمانه بنفسه وبالحياة وبالحضارة، وأن يسير في مواكب ذوي القوة، متقدمًا المواكب، عاملًا لخير الحياة والانسانية، يبني ولا يهدم، يجمع ولا يبدد، يرفع الراية ولا يخفضها أبدًا.

وعليه ان يؤمن من أجل ذلك بمبادئ الحق والخير والقوة والسلام والانسانية، وأن يجعل سعيه لا لنفسه ولا لقومه وحدهم ولكن ليبني الانسانية جمعاء. فقد صارت الانسانية، كلها هي وطن الانسان المتحضر، بعد ان صارت الانسانية كلها تعيش في عصر الاذاعة والتليفزيون والفضاء والذرة والصواريخ.

والانسان الذي يستطيع ان يطوف دول العالم الكبرى في يوم واحد طائرًا لا بد أن يصبح كل تفكيره موجهًا نحو الانسانية كلها.. فقد صارت الارض الواسعة المتعددة الاعلام والرايات والمذاهب كأنها دولة واحدة تلتقي دائمًا

على دعوات الخير والحب والسلام، التي يدعو إليها الاسلام، وينادي بها، ويعمل لها، بكل ما وسعه العمل.. من أجل البناء والتقدم والحضارة والرفاهية والسلام.. ان تلك الغاية الكبيرة هي التي بشر بها من قبل اعلام الصوفيين المسلمين الكبار الخالدين.

احتفال المسلمين في الهند
بمطلع القرن الخامس عشر الهجري والمولد النبوي الشريف

دعينا لحضور مؤتمر الادب العربي المعاصر في (مهباد) من مقاطعة مالابورم باقليم كيرلا جنوبي الهند، وهو اقليم واسع ممتد على المحيط الهندي ويقع جانب منه على الساحل الغربي للهند، وفي هذا الاقليم ترتفع نسبة المسلمين العددية ارتفاعًا كبيرًا، وهو اقليم خصب كثير الانهار وغابات جوز الهند والمطاط والاناناس وجميع الاشجار والثمار والفواكه.

وجهت الدعوة من كلية جمعية التعليم الاسلامي في مهباد إلى الازهر الشريف، فكنت أنا وزميلي الاستاذ جابر حمزو فراج مدير الاعلام بالازهر اللذين وقع عليهما الاختيار ليمثلا الازهر في هذا المؤتمر الذي كان مقررًا عقده في ١٠-١٣ من ربيع الاول ١٣٤١هـ - ١٨-٢١ من يناير عام ١٩٨١م، وكان موعد انعقاد المؤتمر موعدًا جميلًا اذ يصادف ذكرى المولد النبوي الشريف على صاحبه افضل الصلاة وازكى السلام.

ولبى دعوة الكلية كذلك ممثلون لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض، وجامعة قطر وجامعة الامارات العربية، وحضر المؤتمر كذلك نحو مائة استاذ هندي مسلم، وجماهير غفيرة من المثقفين الهنود.. وكانت جلسات المؤتمر تعقد صباحًا ومساءً وأثناء ذلك تقام الحفلات والمهرجانات الشعبية التي كنا ندعى لحضورها، فوق العديد من المآدب والدعوات التي وجهت الينا،

وعشرات الجامعات والكليات والمؤسسات الاسلامية التي دعينا لوضع أساسها أو لزيارتها..

وأقيمت لنا كذلك عدد من الحفلات الرسمية في إقليم كيرالا، ومنها حفلة (مدينة كوتيشن) التي حضرها حاكم المدينة وضباط عن الجيش الهندي وقضاة وأساتذة جامعيون هنديون، وكانت كلمتي فيها نيابة عن اعضاء الوفود العربية هي التي شكرت فيها المدينة المضيافة.

في (مهباد) وفي المدن التي حواليها أقيمت حفلات ضخمة حضرها مئات الالوف، وكان منظر الهنود الراكبين للافيال فيها منظرًا جميلًا، وقد القى فيها أعضاء الوفود العربية، كما القيت انا وزميلي الاستاذ جابر حمزة كلمات مناسبة وكان هذا المهرجان الشعبي العظيم احتفالًا بالقرن الخامس عشر الهجري وبعيد ميلاد رسول الله ﷺ، وقد اقيم في ميدان واسع ضخم في المساء، وكان الاجتماع بهجًا مشرقًا، وعلى وجه كل هندي مسلم بسمة الفرحة الكبيرة، باستقبال هذه الذكريات العظيمة وباستقبالنا نحن أعضاء الوفود العربية.

ومع ان مؤتمر الادب العربي المعاصر في كلية جمعية التعليم الاسلامي في مهباد كان ناجحًا جدًا وكانت بحوثه ممتازة وشاملة، ونتائجه كانت مثمرة للغاية، والقرارات التي اتخذت فيه كانت مناسبة وفقًا له، فان الحفلات الشعبية التي اشرنا إليها كانت اضخم من كل شيء، واكثر دلالة من كل عمل..

في المؤتمر بحثنا كل ما يتصل بالادب العربي المعاصر شعرًا ونثرًا ونقدًا، في دراسات عميقة.. أما في حفلات المسلمين بالقرن الجديد وبذكرى الميلاد النبوي الشريف فكانت الكلمات التي القيت فيها تتفق وهذه المناسبة التاريخية العظيمة التي لا تتكرر إلا كل مائة عام، وتتفق كذلك مع الذكرى الخالدة لميلاد الرسول الاعظم، ﷺ..

وكلية جمعية التعليم الاسلامي هي جامعة حديثة مصغرة تحتوي على مختلف الاقسام العلمية وعلى قسم كبير للغة العربية والدراسات الاسلامية وعميدها هو البروفسور عبد السلام عبدالله والرئيس العام لها ولجميع فروع الكليات الاسلامية في عموم الهند هو الدكتور عبد الغفور محمد، وهو شخصية إسلامية بارزة في المجتمع الهندي، وقد استضافنا في منزله قبيل السفر، وهو مثقف ثقافة واسعة.

وهذه الكلية تعمل على نشر الثقافة والعلوم والآداب الاسلامية بين المسلمين في جنوب الهند، وعلى اعداد الشباب اعدادًا علميًا عصريًا، وتسليحهم بسلاح المعرفة. وقد انشئت عام ١٩٦٥ وفيها اكثر من ألف طالب وأكثر من ثلث هذه العدد من الطالبات.

ومن الكليات الاسلامية التي زرتها:

١ ـ كلية مدينة العلوم في بوليكل بكيرالا، وهي كلية اسلامية تؤدي خدمات ضخمة لمسلمي الهند، وتطلب مساعدات مادية لانشاء ما يلزم لها من مبان وخلافه.

٢ ـ الكلية العربية العالية ـ دار الاسلام بتشمناد ـ كاسر كود ـ بكيرالا. وقد أسست عام ١٩٤١، وتطلب مساعدات مالية لمشروعاتها من الاخوة العرب.

٣ ـ الكليات والمدارس التي تتبع مجلس معونة الاسلام في فناني بكيرالا. وهذا المجلس قام عام ١٩٠٠ ويعمل على تأسيس المدارس والمعاهد والكليات العلمية الاسلامية، ويطالب المجلس بمساعدات مالية لمشروعاته ورئيسه الحالي هو الحاج الشيخ عبد الحي.

٤ ـ الكليات والمدارس التابعة لمركز العلوم الاسلامية في ترست زكريا بازار البى بكيرالا، ومدير امانة المركز هو الحاج عبد الحميد يسن عبد القادر.

٥ ـ الكلية العربية ـ روضة العلوم بفاروق ـ كيرالا وقد أسست عام ١٩٣٦ بفضل دأب الشيخ احمد على المتخرج في الازهر الشريف والمدير الحالي لها هو الحاج الشيخ محمد كشبري.

٦ ـ الكليات والمدارس التابعة لجمعية دعوة وتبليغ الاسلام في مالابار ـ كاليكوت، وقد قامت هذه الجمعية عام ١٩٢٢ وأمينها الحالي هو الحاج حسن عبد الله وتقوم بنشاط تعليمي اسلامي ملحوظ.

٧ ـ الكليات والمدارس التابعة لجمعية الثقافة الاسلامية في ودكيكاد بكيرالا.

٨ ـ الكليات التابعة لمركز الثقافة الاسلامية بمارنجيري القريبة من مدينةفناني، ويزيد عدد المسلمين في مارنجيري على عشرين الفًا. وهذا المركز يقوم بمشروعات كبيرة منها:

١ ـ انشاء المسجد الازهر الجامع.

٢ ـ انشاء مدرسة منبع العلوم.

٣ ـ رعاية الدورة التدريبية الاسلامية.

٤ ـ تأسيس المدرسة الثانوية للبنات.

٥ ـ تأسيس كليات البنات.

٦ ـ تأسيس المدرسة الثانوية وكلية البنين.

٧ ـ المدارس والكليات التي تتبع ندوة المجاهدين بكيرالا. وقد قامت هذه الندوة عام ١٩٥٠، ويتولى رئاستها محمد الكاتب، وأمينها العام هو محمد بن أحمد.

وقد عنيت الصحف بأخبار المؤتمر والحفلات الشعبية الاسلامية عناية شديدة، وأفردت لها الصفحات الواسعة، وقد زرنا مقر جريدة اسلامية في

كاليكوت كما زرنا كليات ومدارس كاليكوت الاسلامية وعلى الجملة فإن المسلمين في جنوبي الهند في حاجة واسعة إلى:

١ ـ الاساتذة المبعوثين.

٢ ـ الكتب الاسلامية والعربية، والمجلات.

٣ ـ منح علمية لطلابهم في مختلف مراحل التعليم.

٤ ـ قبول الطلاب المسلمين في الدورات التدريبية بمختلف البلاد العربية.

٥ ـ المساعدات المالية لدعم نشاطهم الثقافي والاسلامي.

ومن أجل ذلك نرجو من كل مسئول وكل قادر ان يسهم بجهد مشكور في دعم الحركة الثقافية الاسلامية التي يضطلع بها المسلمون في الهند.

على أبواب القرن الخامس عشر الهجري

نحن الشعوب الاسلامية، شعوب منطقة الشرق الاوسط وما حولها، نعيش من قديم في مستوى عال من الرخاء الاقتصادي والحضارة الرفيعة، والقيم الدينية، والمبادئ النبيلة طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان يظللنا جناح الحب والاخاء والتسامح والسلام، ندين بشرائع سماوية منزلة، وبكتب الهية ترسم دستورًا للحياة وللناس، ونعيش من قديم في ظلال تعاون وثيق، وأخوة شاملة.

واليوم وفي نهاية القرن الرابع عشر ماذا نرى؟

ان النمو الاقتصادي السريع عند بعض دول المنطقة خلق لديها رغبة كاملة في السيادة وفي الزعامة دون مقدمات حضارية أصيلة يمكن ان تسند هذه الرغبة وتهذبها وتقومها، وحضارة الشعوب هي دائمًا الدعامة التي يمكن ان تستند اليها حركتها السياسية، وبدونها تصبح الحركة حركة بهلوان يحاول ان يسير بقدميه في الهواء.

وهذا الرخاء المادي الواسع لم يستطع ان يخلق في بعض مناطق هذه الرقعة حركة فكرية وثقافية تساير العصر والحياة، وبروح الانسان القبلي يحاول البعض ان يفهم السياسة ويفهم كل شيء، ويحاول ان يقفز إلى كل مكان، ولو كان هو غير مكانه الطبيعي. ولكنه على أية حال لا يريد ان يستر نفسه، ولا ان يسدل ستارًا على قبائحه ومباذله ثم اننا في لعبة مكشوفة من ستار التمزق نعطي لاسرائيل

كل شيء، ونقول اننا نريد ان نحرمها من كل شيء. والعجيب انهم لم يكونوا في خلال نصف قرن صانعين للاحداث ولا للتغييرات الكبيرة في المنطقة، فلماذا يحاولون اليوم تزييف حقائق التاريخ القريب، لاثبات أنهم هم القادرون على صنع مستقبل المنطقة بدون مصر؟

هل يمكن ان يكون هناك شيء جديد يصنع في منطقتنا دون أن تكون مصر هي المؤثرة والصانعة له؟

عجيب وعجيب حقًا ذلك المنطق المقلوب.

لنفترض تكتلًا يساريًا ضد مصر، لأن مصر حررت نفسها من اليسارية، فماذا يجدي هذه التكتل إلا التدمير للمنطقة بأسرها، والا غرس بذور الفوضى الشاملة فيها؟

.. وإن مصر المسالمة ستعيش وتظل أبدًا تعيش وتقوى وترتفع راياتها لأنها تستند إلى أصول حضارية ثابتة منذ أقدم العصور ومنذ ظهر الاسلام حتى اليوم.

واذا كانت التمزقات السياسية والاجتماعية والدينية تملأ جو منطقتنا من قبل، فان صنيع الرافضين قد فاق كل ما صنعته هذه التمزقات خلال قرن من الزمان.

انهم يرفعون الشعارات، ومصر دائمًا ترفع راية المبادئ والقيم والانسانية والدين والحضارة.

ونحن على أبواب القرن الخامس عشر نقول: ان مصر العربية الاسلامية ستظل شامخة بحضارتها بروحها، بمبادئها، باسلاميتها، بأزهرها، بتراثها الانساني الرفيع.

ومصر وهي تستقبل قرنًا جديدًا تعلن من منطلق الاخاء العربي والاسلامي أنها لن تكف عن أداء رسالتها الاسلامية والانسانية في خدمة الحضارة والحياة في منطقتنا العربية، وفي الرقعة الاسلامية الكبيرة، بل وفي العالم كله بإذن الله.

التطور

- ١ -

كلما مضت الايام، وتوالت الاعوام وارتقت المدنية وتابعت الحضارة سيرها المحتوم، وتتابعت الكشوف العلمية في أسرار الكون. زادنا ذلك كله ايمانًا بالاسلام وبرسالة محمد خاتم النبيين، وبعظمة هذا الدين الخالد وانه الدين الحق لا ريب فيه، دين السماء للارض، دين الانسانية في كل عصورها وأطوارها.. وانجلت لنا الصفحات الناصعات من تاريخ الاسلام وأبطاله ودعاته، وازددنا يقينا بأن أمة الاسلام خير أمة أخرجت للناس.

- ٢ -

لقد فسرت الكشوف العلمية الكثير من الحقائق الباهرة التي تضمنها القرآن الحكيم، وكلام رسولنا العظيم، سواء في الفلك والطب وتكوين الانسان وأسرار الكون وخصائص الحيوان والنبات والجماد، وفي كثير من مناحي الحياة والوجود.

بل ان أصول الاجتماع، والاسس العلمية لتطور البيئات والجماعات والشعوب، قد احتوى عليها القرآن والكلام النبوي، وصارت النواميس الاجتماعية في القرآن الكريم هي الحقيقة التي اهتدى اليها علماء الاجتماع بعد أجيال كثيرة، وحقب طويلة.

وآخر ذلك معجزة المعراج فقد فسرتها بحوث علماء الفضاء وكشوفهم

تفسيرًا واضحًا يجعلها حقيقة لا ريب فيها.. أما الاسراء فان في عصر الطيران والصواريخ ما يوضح حقيقته، وكيف انتقل الرسول الاعظم من مكة إلى بيت المقدس في ثوان معدودات، ويجعل الايمان بذلك حتمًا لازمًا.

ان العلم صديق الاسلام وحقائقه وكتابه الحكيم دائمًا، ولم يوجد أبدًا بين العلم والاسلام عداء، كما وجد بين العلم وبين الأديان الأخرى. وسيظل العلم صديق الاسلام وحليفه، لأن حقائقه نزلت من السماء فلا يعتريها الريب ولا الشك ولا الباطل، ان الاسلام دائمًا وأبدًا كان مؤيدًا للعلم، وناصرًا له، وكان يفرض حب العلم وطلبه على كل مسلم فرضًا، ولم يرتق العلم الا في ظلال الاسلام الذي يرعى العلماء ويشجعهم ويؤيد خطاهم، ويجعل مجلس العلم ومجلس العبادة سواء. وبتأثير ذلك ازدهرت المدنية والحضارة الاسلامية، واهتدى العلماء المسلمون إلى كثير من كشوف العلم في كل مجال وكل ميدان.. ولا يزال الكثير من ذلك من أهم الاصول العلمية حتى اليوم.

- ٣ -

وقد تنبأ القرآن بكثير من الاحداث التاريخية والتطورات الاجتماعية والحضارية، وقد شاهدنا بعض هذه التطورات، ولا زال بعضها الآخر او الكثير منها محجبًا لم يأت زمانه بعد، وكلما سرنا في ميدان الحياة والزمن تجلى لنا الكثير مما كان غامضًا من الاسرار الالهية التي جاءت في الاسلام وكتابه الحكيم في شتى هذه المجالات، فالتنبؤ بازدهار الحضارة والمدنية وبأن الارض سوف تأخذ زخرفها، له مما نجده اليوم ألف دليل، والحديث عن قيام القيامة بعد أن تبلغ الارض غايتها من المدنية والحضارة، له سند كبير مما نرى ونسمع اليوم من حديث الاهتداء الى قنابل مدمرة لا يستطيع العقل الانساني تصور مدى تدميرها، ولا شك أننا سائرون بخطى وئيدة أو سريعة الى النهاية حيث تمور السماء مورًا، وتسير الجبال سيرًا. ﴿**إذا السماءُ انشقَّتْ، وأذنت**

لربِّها وحُقَّتْ﴾[1] و﴿إذا السماءُ انفطرَتْ وإذا الكواكبُ انتثرَتْ، وإذا البحارُ فُجِّرَتْ، وإذا القبورُ بُعْثِرَتْ﴾[2] و﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ، وإذا النجومُ انْكَدَرَتْ وإذا الجبالُ سُيِّرت، وإذا العِشَار عُطِّلَتْ، وإذا الوُحوشُ حُشِرَتْ، وإذا البحارُ سجرت﴾[3] ﴿فإذا النجوم طُمِسَتْ وإذا السماءُ فُرِجَتْ، وإذا الجبالُ نُسِفَتْ، وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لأيِّ يومٍ أُجِّلت، ليوم الفصل﴾[4] .. ﴿فإذا انشقت، السماء فكانت وردة كالدهان، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[5].

ان النهاية لا بد آتية، كما تنبأ القرآن الكريم، ونحن نشاهد اليوم بعض مقدماتها، ومفاتيح أسرارها فإلى أي غاية يمكن ان ينطلق إليها عقل الانسان الذي يتأمل كلام القرآن الكريم، ويشاهد ما اهتدى اليه العلم من الاسرار التي توضح بعض الجوانب الخفية لهذه النهاية الدامية؟

- ٤ -

وكثيرًا ما كنا نقف متأثرين عندما نقرأ في تاريخنا الاسلامي بعض الاحداث الدامية، وكنا نعجب لحدوث هذه الاحداث، ولكن الحياة اليوم تفسر أحداثها السياسية والاجتماعية والتاريخية الكثير من أسرار ماضينا الغابر، بل انها لتجلي عظمة هذا الماضي التليد وتظهر مناقبه ومفاخره، فاضطهاد اليهود في مختلف أطوار المسيحية مثلًا نجد ما يقابله في تاريخنا الاسلامي من سماحة المسلمين مع خصومهم، ومن عدالتهم مع كل العناصر التي تميزت في تاريخها بالغدر واللؤم والخسة ومع ذلك فان اليهود تمردوا على كل شيء ولم

---

(١) سورة الانشقاق الآيتان ١ و٢.
(٢) سورة الانفطار الآيات ١ - ٤.
(٣) سورة التكوير الآيات ١ - ٦.
(٤) سورة المرسلات الآيات ٨ - ١٤.
(٥) سورة الرحمن الآيتان ٣٦ و٣٧.

يعرفوا قيمة للجوار ولا لتراث المسلمين العظيم في معاملتهم وفي التزام العدالة معهم في مختلف العصور والاحوال..

وعندما فتح المسلمون الارض لم يقضوا على سلالات الشعوب القديمة، ولا على بقايا الاديان والعقائد الغابرة بل تركوا لها حرية البقاء، فعاشت حتى اليوم في الوقت الذي نجد فيه أوربا بعد الغزو الاستعماري في القرن السابع عشر وما بعده تحاول القضاء على العناصر الاصلية للشعوب المستعمرة، بمختلف الوسائل، حتى لقد جعلت منهم منبوذين، وسنت سنة التفرقة العنصرية الظالمة، وأعطت للسلالات الاوربية المستعمرة كل الحقوق وحرمت السلالات الاصلية من كل شيء حتى من حق الحياة والسعي في الأرض.

- ٥ -

ان الاسلام بعظمته وسمو مبادئه، وجلال غاياته سوف يظل باقيا أبد الدهر، مؤثرًا في تطور الحياة والحضارة.. مناهضًا للالحاد والملحدين، محاربًا للماديين والمشركين.. انه عاش وسوف يعيش مرفوع الرأس، يقود الحياة الى سلم التطور والارتقاء، وصدق الله العظيم فيما يقول: **﴿إنهُ لقولٌ فَصْلٌ، وما هُوَ بالهَزْلِ، إنهم يَكِيدُون كَيْدًا، وأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ، أَمْهِلْهُمْ رويدًا﴾**[١].

---

(١) سورة الطارق الآيات ١٣ ـ ١٧.

الاسلام صانع التاريخ

- ١ -

الاسلام، ديننا العظيم، سيظل مشعلًا وهاجًا، يضيء الحياة، ويصنع التاريخ، ويفي للانسان بكل مطالبه الحضارية والفكرية والأدبية.

الاسلام، الذي ترتعد منه الدول التي لم تدخل فيه، ويحسب حسابه الغرب والشرق، وتخطط لمستقبله ونشاطه الصهيونية والماركسية والوثنيات العالمية والرأسمالية والشيوعية على السواء، وتقف كثير من الهيئات والجمعيات الدينية جهودها على مقاومة آثاره وامتداداته في كل مكان، وتنشأ الجمعيات لتعمل على مضاعفة الغزو الفكري لعقول المسلمين اتباع هذا الدين العظيم، ويعمل الملحدون والوجوديون بل والحضارة الغربية كلها بطاقاتها وثقافاتها وفروعها المتعددة في بلاد المسلمين على تعويق نهضته، وعلى اقتلاع جذوره من الحياة، ونبش أصوله من التاريخ.. الاسلام العظيم الذي لا يبالي بشيء، ولا يحفل بشيء، والذي يمضي قدمًا لأداء رسالته في الحياة، برغم ما يقوم في وجهه من معوقات، وبرغم أن المسلمين أنفسهم أصبح الكثير منهم لا يساند رسالة الاسلام، هذا الدين الحق، هو بلا ريب صانع الحياة والحضارة والتاريخ.

- ٢ -

لقد وقفت في وجه الاسلام الأمبراطورية الرومانية الشرقية والأمبراطورية الفارسية، كما وقف في وجهه المغول والتتار، وفي عصور التعصب جندت

أوربا الصليبية نفسها لسحق الاسلام في دياره، وغزاه بعد ذلك الاستعمار الغربي غزوًا مدمرًا، ومع ذلك بقي الاسلام مرفوع الرأس، مشرق الوجه، وضاح الجبين، يضيء للناس وللحياة سبيل الحق والخير والسلام.

وشوه الكتاب والمفكرون الأوربيون مبادىء الاسلام وافكاره ورجاله. وشوهوا كذلك تاريخ رسوله العظيم في نظر شعوبهم، وعقول أممهم، ومع ذلك عاش الاسلام حيا متلالئًا مضيئًا في الفكر الانساني في كل زمان ومكان.

ويعقد الماركسيون في روسيا، وبقايا الصليبيين في أوربا، والوثنيون في آسيا مؤتمرات لتعمل على تعويق النهضات الاسلامية وعلى مقاومتها، ومع ذلك يسير الاسلام وتسير نهضات شعوبه، إلى الامام دائمًا لا يصيبها شيء من الأذى والسوء والحرب العلنية والخفية على السواء.

ولقد اصطدم الاسلام في جميع مراحل تاريخه بكثير من الحروب والمعارك والغزو الفكري والمسلح، والسري والجهري، وعملت بعض الدول الاستعمارية في بعض بلاد المسلمين على تحريم اللغة العربية على السكان لتبعدهم نهائيًا عن دينهم وأصول ثقافتهم، ومع ذلك فقد فشلت كل هذه الوسائل، وباد كل شيء وبقي الاسلام منارًا رفيعًا، وحصنًا منيعًا، لشعوبه ولغير شعوبه جميعًا.

وظهر في مختلف عصور التاريخ دجالون ومتنبئون ودعاة أديان وعقائد، وأصحاب مذاهب وآراء.. ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا ولم تستطع مبادئهم ان تقف بجوار الاسلام العظيم الشامخ الأركان الممتدة أصوله وفروعه في الأرض والسماء.

- ٣ -

وقاومت الاسلام وامتداداته دائمًا أكاذيب التعصب والتعصب الباطل الذميم، الذي لا يقف في عداوته للاسلام موقف الشرف والصدق، ولا يلتزم

في خصومته حيادًا ولا حقًا..

التعصب اليهودي الذي يجعل اليهود شعب الله المختار، والذي لا يلتزم مع المسلمين حقوق الجوار ولا الانسانية.

والتعصب الصليبي الذي لا يؤمن بالأخوة الانسانية ولا بالتسامح الفكري والديني.. والاسلام يوجب على اتباعه الايمان بكل الرسالات السماوية. وبالرسل المبعوثين من الله لهداية الناس، ولكن الصليبية تمقت رسالة الاسلام، وتبتدع كل الأكاذيب لتلصقها بنبي الاسلام، وتزعم حينًا أنه مفكر أتى بكتاب من عنده، وحينًا آخر أنه كان دجالًا، وحينًا أنه مجنون أو شاعر.. إلى غير ذلك من ألوان الأكاذيب والضلالات.

التعصب في كل ألوانه ومجالاته كان سلاحًا انتضي ليحارب به الاسلام، ومع ذلك فقد انتصر الاسلام، ووقف بمبادئه ورسالته وشريعته وكتابه المنزل من السماء حجر عثرة في سبيل الشر والشرك والوثنية والتعصب والعداوة والخصومة، ومناديًا بالخير والتسامح والصدق والحق والسلام والتوحيد والمساواة والاخاء لكل بني الانسان.

- ٤ -

وانظروا إلى كل ذلك نظر المتعجب والمستغرب ومع ذلك فقد سار الاسلام قدمًا يؤثل صروح الفضائل والأخلاق والآداب الشريفة، وصروح التوحيد المطلق والايمان الباني الذي يدفع عجلة الحياة نحو التقدم والرخاء.

وبنى الاسلام منارات الحضارة والفكر والثقافة ساحقة شامخة في كل مكان.

وبنى أصول النهضات التقدمية في العالم في كل عصر وجيل.

وأقام تراثًا حضاريًا وعلميًا لا يمكن للأجيال أن تتجاهله، وحافظ على الثقافات القديمة حتى الوثنية منها وترجمها العلماء المسلمون إلى لغة القرآن، حتى

ترجمت من العربية إلى مختلف اللغات العالمية.

وصنع للحياة تاريخًا، وللتاريخ كل مقوماته الفكرية والأدبية والانسانية.

وفي وقت الخصومة والحرب بين المسلمين والأمبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الثاني الهجري كان المنصور العباسي يبعث إلى الأمبراطور المسيحي في القسطنطينية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة القدماء واختار لها المنصور مهرة التراجمة وكلفهم باحكام ترجمتها[١].

وكذلك أوفد المأمون الرسل والبعثات العلمية إلى ملك الروم لاستخراج علوم اليونانيين وحكمتهم ونسخا بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك[٢].

صنع الاسلام في جميع أنحاء العالم مراكز متقدمة للحضارة والثقافة والآداب والفنون.

وفي ظلاله قامت مدن شماء كانت منارات رفيعة للعالم المتقدم المتوثب السائر نحو المجد والرفاهية بخطوات واسعة. وحسبك قرطبة وفاس والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد وجرجان وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن العالمية في العصور الوسطى، التي كانت تكافح في سبيل الازدهار الثقافي والاقتصادي والحضاري، وتعمل جاهدة من أجل سعادة بني الانسان.

- ٥ -

لقد قام الحياد الفكري والحياد السياسي ولكن لم يوجد أبدًا الحياد الديني، ونحن نعيش اليوم في ظلال حضارة عجيبة، وفي ظلال أفكار عصر الذرة والصواريخ ومع ذلك فإن الانسان لا يريد ان يتصور ضرورة قيام حياد مطلق بين الأديان بحيث يتاح للدين الاسلامي أداء رسالته الانسانية في كل

---

(١) ٤٨٠ المقدمة لابن خلدون، و٥٥ طبقات الأمم لصاعد الاندلسي.

(٢) ٤٨١ المقدمة.

مكان في العالم دون أن توضع أمامه العقبات السياسية أو الدينية، ودون أن تعرقل جهوده جمعيات التبشير المسيحية المبثوثة في كل مكان حتى في بلاد المسلمين أنفسهم.

ان محاربة فكرة التدين في الانسان، ومحاربة الرسالات السماوية وبخاصة الاسلام، لأعظم جرمًا في حق الانسانية من عشرات الحروب النووية.

وأوربا المسيحية لم تترك خلافاتها السياسية والمذهبية برغم أن المسيحية تجمع بينها.

فهلا تترك للاسلام الفرصة ليؤدي رسالته نحو العالم والانسانية؟

ان الاسلام سائر قدمًا إلى غاياته، وإلى أداء رسالته ولا يضيره أتباعه المتخلفون عن موكبه، ولا خصومه الواقفون دائمًا وأبدًا له بالمرصاد، لأنه الدين الحق، والشريعة الباقية الخالدة، ورسالة السماء الممتلئة بالحيوية والنور والايمان والدفء والطهر والحق.

انه الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان، وصدق الله العظيم فيما يقول في كتابه الحكيم: ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا في الآفَاقِ وفي أنفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣.

ماضي الاسلام

- ١ -

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين.

اللهم فاشهد ان المسلمين الاولين قد ادوا الرسالة، وبلّغوا الأمانة، وكتبوا لماضي الاسلام مجدًا لن تزول معالمه، أو يفنى صداه، وإن جهله الجاهلون من أبناء الاسلام اليوم..

اللهم فأشهد وانت خير الشاهدين أن قتيبة بن مسلم الباهلي قد ساح تحت راية الاسلام بجيشه في الارض، ففتح بخارى وسمرقند والصفد، وتعمق في بلاد الهند، حتى وصل مدينة كاشغر، وهي أدنى مدن الصين، ولما دخل سمرقند سجد لله شكرًا، وبنى فيها مسجدًا عام ٧١٤م ٩٥هـ ليكون منارة للاسلام. ثم حطم الاوثان والاصنام المصنوعة فيها والقاها في النار، وبعث برسالة إلى امبراطور الصين بوامغ جونغ (٧١٢ ـ ٧٥٥ م) يدعـوه فيهـا إلى

اللهم فأشهد وانت خير الشاهدين، أن عقبة بن نافع وصل بجيشه الظافر إلى المحيط الاطلنطي غربًا، ولم يرده شيء عن نشر راية الاسلام إلا البحر، وان موسى بن نصير اعتزم بعد فتح الاندلس ان يدور حول البحر الابيض حتى يصل الشام، لولا ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك استدعاه إلى دمشق، وان عبد الرحمن الغافقي قد سار بجيش لجب من الاندلس إلى وادي

اللوار في فرنسا، وتقدم حتى مدينة تور، ونازل الفرنسيين وهزمهم، ولولا الحظ الاقل الذي وقف سدا منيعًا أمامه، لجاب أوربا كلها، ففي المعركة التي دارت حول «بواتييه» و«تور» يوم الجمعة ٧ شعبان ١١٤هـ ٢ من اكتوبر ٧٣٢م، هزم جيش الغافقي، وقتل القائد، وانسحب من نجا من المعركة من المسلمين إلى ما وراء جبال البرانس، وكانت هذه الهزيمة بخداع شارل مارتل الجرماني الكارولنجي المتعصب، مقدمة للمعارك التي استمرت في اسبانيا ثمانية قرون، وانتهت بطرد المسلمين منها، ومحو جميع معالم الحضارة من مدنها، وكانت هزيمة الغافقي شهادة ناطقة للاسلام والمسلمين، وصفحة مجيدة من سجل ماضي الاسلام المشرق، وفيها يقول المسيو كلود فارير الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس: «حدثت فاجعة كانت من اشأم الفجائع، التي مرت بالانسانية في القرون الوسطى، وكان من نتائجها ان عمرت العالم موجة عاتية، وطبقة عميقة من التوجس، مدة ثمانية قرون. ولم تبدأ بالتبدد الا على عهد النهضة، وهذه الفاجعة هي الانتصار البغيض الذي ناله ـ على مقربة من «بواتييه» و«تور» ـ أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقي عام ٧٣٢م ١١٤هـ، ففي ذلك اليوم المشؤوم تقهقرت المدنية الى الوراء ثمانية قرون، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الاندلس، أو بين آثار مدنها، في اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة، ليشاهد، والالم الدفين آخذ منه، ما عساها ان تكون بلادنا الفرنسية، لو انقذها الاسلام العمراني الفلسفي المتسامح، لأن الاسلام بمجموعة كل هذا، فخلصها من الاهاويل والدمار والخراب الذي وقعت فيه «غاليا» القديمة وسواها، في حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير غربًا إلى نهر السند في قلب آسيا، يزدهر في ظل الاسلام».

اللهم فاشهد وانت خير الشاهدين ان أبطالًا من العرب المسلمين، قد فتحوا الشام ومصر وشمال افريقيا، وتخطوا جبل طارق ففتحوا الاندلس، وغرب أوربا، وأن ابطالًا ميامين من العرب المسلمين دخلوا جزر البحر

الابيض المتوسط: كريت وقبرص وصقلية ورودس وسواها، وأذّنوا فيها بدعوة الاسلام، وبنوا المساجد والمدارس والجامعات، واعزوا العلم، وهيأوا للانسان كل أسباب النهضة، وان ابطالًا آخرين، حملوا دعوة الاسلام في فارس وافغانستان والهند وأذّنوا بها في الصين، ودعوا إليها في الملايو وجاوه وجزر الهند الغربية، وبشروا بهافي شرق أفريقيا واواسطها وجنوبها وغربها، وساحوا شمالًا حتى وصلوا القوقاز، وشرقًا حتى بلغوا مقاطعة نيان في جنوب الصين، وأحاطت مخافر اسلامية ثلاثة باوربا، طليطلة في الاندلس، وصقلية، وجنوبي ايطاليا، وركب البحارة المسلمون السفن إلى كل مكان من العالم من مراكز ثلاثة:

الاول: سواحل الشام والاندلس، ومنها انتقل المسلمون إلى المحيط الاطلنطي، وتوغلوا فيه، وتنقلوا في غرب افريقية، وداروا حول جنوبها.

والثاني: حضرموت، حيث اظهر العرب جلدًا وبسالة، فركبوا البحر الى شرق افريقيا، وكونوا ممالك اسلامية في مدغشقر، وجزائر القمر، وزنجبار، ودخلوا افريقية فكونوا سلطنة كبيرة، هي سلطنة رابح، التي تتحدث عنها دائرة المعارف الفرنسية، وبلغ الاسلام زمبيزي، ووصل إلى جنوب افريقيا ويسالاند، وقد انتشرت فيها المساجد ومدارس تحفيظ القرآن، واتجه الحضارمة إلى جزائر المحيط الهندي: كلديف ومالديف وسرانديب.

والمركز الثالث هو الملايو، حيث نزلت فيها أمة اسلامية احتلت جاوه وسومطرة، وبورنيو، وسلبيز والفليبين، وانتشرت في جزر المحيط الهادي ووصلت إلى «بورت وارن» في استراليا.

ان النور الذي انبثق من جزيرة العرب على يدي محمد بن عبد الله قد أضاء العالم كله خلال قرن واحد، او يزيد على قرن بقليل، داعيًا الى العلم والمثل الرفيعة والشورى، والاخذ بأسباب الحضارة.. ومع ما نكب المسلمون به من الحروب الصليبية التي فشلت في زعزعة كيان الاسلام في الشرق، فقد أبادت

البربرية الحضارة الاسلامية ومعالم النهضة التي شادها المسلمون في صقلية وجنوبي ايطاليا في القرن الخامس الهجري، وجاء تخريب الفاطميين واحراقهم لمدينة الفسطاط عام ٥٦٤هـ، بما فيها من مساجد ومدارس وجامعات ومكتبات وكتب تعد بالملايين، ثم تخريب التتار لبغداد مركز الحضارة العالمي عام ٦٥٦هـ ثم سقوط الاندلس عام ٨٩٧هـ ١٤٩٢م وتدمير المدن الاسلامية فيها، وإجلاء المسلمين العرب عن أراضيها، وإحراق الملايين من الكتب او إلقاء مثيلاتها في البحر، جاء كل ذلك شرا وبيلا على المسلمين في انحاء العالم الاسلامي، ولكن فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية عام ٨٥٦هـ ١٤٥٣م أجَّج الحماس في صدور الملايين من المسلمين واشتدت النكبات الهوج فأخذت تتوالى على المسلمين، وكشف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح، وانتقلت التجارة العالمية اليه، وحرم العالم الاسلامي من عوائدها الطائلة، ودمرت الاساطيل البحرية التجارية العربية في المحيط الهندي فكان ذلك معولًا هدامًا في صرح النهضة والحضارة الاسلامية. ولكن روح الاسلام لم تتزعزع، وكيانه القوي ظل متماسكًا شامخًا خلال القرون والاجيال، والذي حدث ان نهضة اوربا تأخر ازدهارها كثيرًا بما وجهه البرابرة إلى الحضارة من ضربات قاسية بتأخيرهم سير الحضارة الاسلامية، وفي ذلك يقول نيتشه:

«لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام، لقد ديست بالاقدام تلك المدنية العظيمة، مدنية الاندلس المغربية، ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، فهم من غرائز رجال وأي رجال، إن تلك المدنية الاسلامية لم تنكر الحياة، بل اجابتها بالايجاب، وفتحت لها صدرها، ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك، وكان اولى بهم ان يسجدوا لها على التراب ويعبدوها، وما مدنيتنا في هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وآنية بجانب مدنية الاسلام في ذلك الوقت».

- ٢ -

هذا هو ماضي الاسلام المشرق، واي ماضٍ هو؟ الم ينتصر الاسلام في حربه لعصور الجهل والوحشية والطغيان؟ الم يؤثل الاسلام للحضارة منارًا رفيعًا في قرطبة وغرناطة وفاس والرباط والمهدية والقيروان والفسطاط والقاهرة ودمشق ومكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد، وبخارى وسمرقند، وجرجان واصفهان، وسواها من عواصم الاسلام الكبرى؟ ألم يحرر الاسلام العبيد، ويرفع من شأن المستضعفين في الارض؟ إلى غير ذلك من جلائل الاعمال.

وهل ننسى فضل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة والحسن بن الهيثم والرازي وجابر بن حيان في تطور الحضارة؟

هل ننسى جهود علماء الاسلام وائمته الكبار من امثال: مالك والشافعي وابي حنيفة واحمد بن حنبل، وسواهم؟

هذا هو ماضينا المجيد، لكن الغرب المادي الجاهل المتعصب المسلح حارب الاسلام زورًا وبهتانًا، نسب كل فضائل المسلمين وحضارتهم له، وجنى الثمار التي غرسها المسلمون في شتى النواحي، فلم يكشف امريكا الا العرب الذين قادوا سفن كولمبس، ولم يكشف طريق رأس الرجاء الصالح إلا المسلمون الذين كانوا ملاحي اسطول فاسكو دي جاما بقيادة الربان العربي ابن ماجد، ولم يهتد الغرب إلى تراث الاغريق إلا بجهود العلماء المسلمين، وبذلك كشف الغرب ماضيه، واخذ ينقب عنه، ولم يهتد الغربيون إلى أصول الحضارة، وانما اخذوها عن المسلمين الذين كانوا حملة الوية الحضارة الانسانية.

- ٣ -

واستدار الزمن دورته، فحارب الغرب الاسلام في كل ميدان ومجال، وانتصر على المسلمين لجهلهم وغرورهم وبعدهم عن روح الاسلام.. وكان الاستعمار وغزوه السياسي والعقلي والحضاري للعالم الاسلامي، ووقف لورد أللنبي

في القدس بعد الحرب العالمية الاولى يقول: « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

ومن قبل وقف كرومر في مصر يهاجم الاسلام، ويهدد الثقافة الاسلامية، ويعلن الحرب على كل ما هو اسلامي، ويتنبأ بسيادة الثقافة الغربية والمتعلمين على اسلوبها[1].

ولكن زعماء العالم الاسلامي نهضوا لبعث الحضارة والامل في قلوب المسلمين، وجاهدوا في سبيل تحرير العالم الاسلامي من سيطرة الغرب، فقامت دعوات حرة جريئة، حمل لواءها امثال: الافغاني ومحمد عبده والامام المهدي والامام السنوسي وعبد القادر الجزائري ومحمد الخامس وغيرهم، وكانت اهم هذه الاتجاهات الحديثة: حركة الافغاني الاسلامية، الذي كان شعاره: لا أمة بغير اخلاق، ولا اخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم.

لقد اثمرت حركات النضال الاسلامي ثمرات جليلة في كل مكان، وكما اجلى المسلمون الاستعمار من بلادهم، لا بد لهم من الكفاح مرة اخرى من أجل تعزيز الثقة بالنفس، وبعث الامل في صدور الملايين من المسلمين، وتقوية عقيدتهم في الاسلام وماضيه وحضارته ومثله، حتى يقفوا لكل المذاهب الهدامة من ـالحادية ومادية ووجودية وغيرها ـ بالمرصاد، وحتى لا يتركوا احدًا يفتتن بها عن جهل..

لا بد ان يدرك ابناء الاسلام ان لهم ماضيًا عريقًا في الحضارة، وان دينهم دين حي خالد، قاد الانسانية إلى شاطىء العزة والحرية والسلام، وسيقودها من جديد مرة اخرى الى حياة أسمى ومستقبل افضل واسعد مما بلغته حتى اليوم.

---

(١) راجع ص ٦٧ كتاب لورد كرومر (عباس الثاني).

الاسلام والحضارات المعاصرة

ان حاضر العالم الاسلامي مثير للشفقة، داع للتساؤل، باعث على التأمل.

أما ماضيه والحاضر والمستقبل، او الأمس واليوم والغد فحلقة متصلة.

فالغد هو التاريخ المفتوح الممتدّ، فلم يعد الزمان مفصولا إلى ماض، وحاضر، ومستقبل.. بل هو تطور متصل، وحلقة متكاملة، يكمل غده حاضره وماضيه أبدًا، فالحياة وحدة، فروعها من جذورها الضاربة في أعماق الماضي البعيد.

والغد: هو حاضر الأبناء والأحفاد، وهو الأمل الذي نعيش له، ونحلم به دائمًا، ونتمناه، يجيئنا في جمال الربيع، وعطر الورد، ورقة السحر، فكلما ضاقت نفس الإنسان بالهموم، وأحاطت به الأزمات، وأدركه السأم من واقع سيّئ، تمنى الخروج منه إلى غد أفضل.

وتخطيط الإنسان للغد أمر ممكن، والأمم الحازمة تخطط للمستقبل، ومن أجل ذلك تقوم وزارات للتخطيط في معظم الدول اليوم، وهنا تتجلى عظمة الحديث الشريف: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

وتبدل الحاضر المؤلم إلى غد أفضل، ليس بالأمر البعيد عن حدود الإمكان، وليس بالشيء الذي تعجز عنه قدرة الإنسان.

وتمثل انتصارات المسلمين الكبرى خلال حقب التاريخ إمكان ذلك التحول، وقدرة العقل المسلم على تحويل الهزائم إلى نصر مبين. وأمامنا شريط ممتدّ، من بدر إلى فتح مكة، فاليرموك، فالقادسية، ثم حطين، وعين جالوت.. الخ.

لقد وقفت الأمبراطورية الرومانية الشرقية في وجه الاسلام العظيم منذ معركة اليرموك حتى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح في أواسط القرن التاسع الهجري، تشن عليه الحروب وتدبّر له المؤامرات، وتؤلّب عليه القوى المختلفة.. ونحن نعرف أنها كانت إحدى القوى المحركة للأحداث في الحروب الصليبية، وأنهاكذلك كانت المحرك لجيوش التتار لغزو العالم الإسلامي، وحسبنا دليلًا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمينية كان العامل الرئيسي في إقناع المغولي «مان جوخان» (٦٤٦ - ٦٥٥هـ/١٢٤٨ - ١٢٥٧م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) فإن هولاكو التتري زوّج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية. ومع جرائم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ضد الإسلام وشعوبه. فإنها لم تلبث ان انهارت فجأة بدخول محمد الفاتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، حيث سار من باب القديس رومانوس ممتطيًا صهوة جواده، في موكب نبيل إلى كنيسة «سانت صوفيا» فأذّن من فوق قبابها للصلاة. وكان ذلك انتصارًا رائعًا للروح الإسلامية، ودليلًا قويًا على أن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين وفي تشديد معنوياتهم، لم يصبها أبدًا الوهن في يوم من الأيام.

إن الشعب العربي المسلم لا يعرف اليأس أبدًا، ولن يتطرق اليأس إلى قلبه في يوم من الأيام.

يقول إقبال شاعر الإسلام في العصر الحديث: «إنك أيها المسلم في العالم

كله حق وحدك، وما عداك سراب خادع، ووهم باطل».

ويقول سارتون المستشرق الأمريكي المشهور: «إن شعوب الشرق الأوسط قد قادت العالم في حقبتين طويلتين:

أولاهما: قبل أيام اليونان طوال ألفي سنة.

وثانيهما: في العصور الوسطى ـ يريد عصور حضارة الإسلام ـ مدة أربعة قرون على الأقل، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم مرة أخرى في المستقبل القريب أو البعيد».

ويقول مستشرق ألماني، وهو صاحب كتاب «الإسلام قوة الغد العالمية» في ختام كتابه نقلا عن مفكر إنكليزي: «لا يساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكًا قويًا، وتحمل في جوانحها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضًا خطرًا على أعدائه».

وأقول لهذا المفكر: إن الاسلام ليس خطرًا على أحد بل هو سلام وهدى ورحمة وخير للإنسانية كافة.

الغد الذي نريده للإسلام؟

إنه ـ حتمًا ـ لا يمكن أن يكون غـد آخر مقطوع الصلة بماضينا، لأن ذلك محال يأباه ديننا وتاريخنا وتراثنا وعقلنا، ويأباه كذلك منطق الأشياء، وإذا تصورنا غدًا آخر مقطوع الصلة بالماضي فإن من المحال الوصول عن طريقه إلى أهدافنا، وإلى وحدة إسلامية ووطنية كاملة، ومن المحال كذلك في ظله تلافي الصراع الطبقي والحروب الاجتماعية بين طبقات المجتمع. وقد فشلت، ولا تزال تسير في طريق الفشل كل المحاولات لبناء غد للإسلام يرتكز على أصول غير إسلامية، من الوثنية أو العلمانية او المادية الإلحادية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم.

ومحور دعوات أئمة الإسلام ومفكريه في العصر الحديث هو عودة الفكر العربي الإسلامي الذي يستمد مقوماته من الإسلام والقرآن، منطلقًا من الرسالة التي أذّن بها محمد صلوات الله وسلامه عليه في شعاب مكة وبلّغها الناس كافة.

ونحن نعلم أن عدد المسلمين اليوم في العالم لا يقل عن سبعمائة مليون في آسيا، ونحو عشرين مليون في أوربا وأمريكا. وهو عدد هائل يمكنهم ان يصنعوا المعجزات في عالمنا المعاصر.

الإسلام عدل ورحمة وحب كبير

يقول العقاد رحمة الله عليه: إذا بقي للإسلام إيمانه والمؤمنون به، فلا خطر عليه من أقوياء اليوم، ولا من أقوياء الغد المجهول.

وأقول للعقاد: إنه إذا بقي للإسلام ذلك، فإن قيادة العالم كله ستوضع بين يديه، لأنه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته، ولا راية أرفع من رايته، وليس الإسلام خطرًا على أحد، ليس خطرًا على المسيحية ولا على اليهودية، ولا على الشرق ولا على الغرب، لأنه دين السلام والعدل والرحمة، ودين الحب والتسامح الحقيقي.

ويشهد برنارد شو بحيوية الإسلام العجيبة، ويقول: «إنه الدين الوحيد الذي له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وهو صالح لكل العصور». وقال عن رسول الله: إنه يجب أن يُسمّى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله ان يحكم العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشكلاته، بأسلوب يؤدي إلى السلام والسعادة اللذين يفتقر العالم إليهما كثيرًا.

واذا كان المسلمون اليوم انتهى مصيرهم إلى فرق: فرقة تذهب إلى أن الإسلام قد انتهى زمنه، وهؤلاء قد سيطر الجهل على عقولهم، فهم مثلًا لا يبلغون في فهم الإسلام مبلغ بعض المستشرقين، الذين يجهر واحد منهم بأن

قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن.

وفرقة أخرى تذهب إلى أن الإسلام سوف يعود إلى الظهور على مسرح الحياة قوة عالمية ثالثة بين قوتي الشرق والغرب، قوة بين العديد من القوى التي تسيطر على أقدار العالم والحياة.

ويردد العقاد ذلك الرأي في كتابه «الإسلام في القرن العشرين». فيقول: إن الإسلام مجموعة من مجاميع الأمم الكبرى في القرن العشرين. وكذلك ذهب الدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي: مشكلات الأسرة والتكافل»، وأشهد بخطأ هذا الرأي، وأقول خلافه: إن الغد للإسلام وحده، والغد للإسلام وحده ، إنه سيكون في الغد القوة الوحيدة في العالم، ولسوف يكون الإيمان أمرًا توحيه مسيرة التاريخ، وحتمية انتصار الحضارة.

رأي في فلسفة الإمام محمد عبده

ومن هذا المنطلق أرفض فلسفة الإمام محمد عبده ومدرسته التي سادت في عصر سيادة الاستعمار البريطاني، وهي الفلسفة التي كانت تعمل لإيجاد التقاء فكري بين الإسلام وحضارة الغرب، وأرى أن فكرة هذا الالتقاء خطأ جسيم، لأنه لا هدف يقصد من وراء هذا الالتقاء إلا خضوع الإسلام لقوة الغرب وماديته وحضارته. وهذا ما يعمل له الكثير من أتباعهم في الشرق الإسلامي، وهذا الالتقاء ليس حوارًا بين الإسلام وحضارة الغرب للدعوة إلى الإسلام، ولكنه إعلان من جانب واحد هو جانبنا، لتنازل الإسلام عن أفكاره الأساسية بحجة مجاراة الحضارة الغربية، وحاشا لله ذلك، لأننا لا نؤمن بديننا إلا إذا آمنا بأن جميع النماذج يجب أن تعود إليه وأن تصب في قالبه.

أهداف الصهيونية

إن غرض الصهيونية العالمية هو تمييع التراث العربي الإسلامي في المنطقة على الرغم من تمسكها هي بتراثها الديني اليهودي.

ولقد مدت الصهيونية أيديها إلى الوثنيات المختلفة، تستعين بها في محاربة الإسلام والقضاء عليه في بلاده وفي بلاد أخرى كانت إسلامية آمنة، مثل القرم، والقوقاز، وبخارى، وسمرقند، وخوارزم، وزنجبار، والفليبين، وموزمبيق، وسواها. ولذلك نرى الصهيونية تلقى معاونة من الدول اليسارية على السواء وغيرها، وهذا كاسترو ينصح السفير الإسرائيلي في بلاده، كما ذكرته صحف كوبا وإذاعتها، وترجمته عنها صحفنا الغربية فيقول له:

«على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعًا إسلاميًا دينيًا حتى لا يجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل ان تصون كيانها، لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة في المجتمعات الإسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية».

لقد أنطق الحقد على الإسلام هذا الشيوعي المتطرف، فقال ما قال..

ويساعد الصهيونية في تحقيق أغراضها هذا الغزو الفكري الغربي للشرق الإسلامي العربي، ونشوء طبقات جديدة من أبنائنا أصبحت لا ترى الحياة إلا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره، بل أصبحت ترى أن فكر بلادها وتراثها، بل دينها عبء ثقيل عليها، ويجب طرحه، والتحرر منه وألا يبقى له أثر في حياة المسلمين المعاصرين أينما كانوا، ومن هذا المنطلق الغريب وهو أثر غسل المخ الذي أجري في أوربا، وفي مدارس التبشير في بلادنا لهؤلاء الناس، أصبحنا نجد من يصف الإسلام التقدميّ العظيم بأنه دين رجعي!

الإسلام والتطور الحضاريّ

وينادي آخرون من هؤلاء الطبقات بأن الإسلام خصم للعلم، وأنه دين الغيبيات، وأنه سبب ضعف المسلمين، يقول مثلا كليموفتش في كتابه «الإسلام» المطبوع في موسكو عام ١٩٥٦: إن الإسلام في جوهره ما زال ولا يزال عدوًا للعلم.

ونود أن نسأل مع العقاد: هل يؤمن عقل الإنسان بالدين في هذا العصر ويرى دينًا أحق بالإيمان من الإسلام؟

ولماذا لا يؤمن عقل الإنسان بالدين، أليس أعظم رجال البحث العلمي في أوربا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الديني العميق؟

على أنه لا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن كثيرًا من المؤتمرات التي تعقد في أنحاء العالم باسم الإسلام هي مؤتمرات تهدف إلى تزييف تاريخ الإسلام وحضارته وثقافته وأفكاره، ويتصدرها المبشرون والمتعصبون من المستشرقين وتلاميذهم، ومن أجل ذلك تعمل جهات أجنبية كثيرة على التهوين من شأن الأزهر وعلى خفض صوته، وكان الاحتلال الإنكليزي قد أصدر بعد عام ١٨٨٢م قرارات سرية بحرمان علماء الأزهر من جميع وظائف الدولة الرسمية.

ولقد أخضع الغرب الشرق الإسلامي لماديته ولمذاهبه الهدامة ولفلسفاته اللاإنسانية، ولإلحاده، ولآرائه في السلوك والأخلاق والعادات، وخضعنا لتأثير ذلك لأفكار الجنس والعري، والربا والخمر، والاستهتار وغيرها، فالربا في رأي دعاة التبعية لا يستقيم أمر العالم إلا به، وإذا قرأنا لعالم فرنسي كبير مثل جاك أوستروي في كتابه «الإسلام أمام التطور الاقتصادي» الذي نشر في باريس عام ١٩٦١م لوجدناه يقول في صفحة ١١٢: إن الإسلام يتمتع بإمكانات هائلة، وإذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحًا أمامه فإن كثيرًا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده، ثم يرى أنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية.

إن سياسة التلفيق التي ينتهجها بعض الكتاب في كتابتهم عن الإسلام لا ثمر لها، فكل فكرة في الإسلام في رأيهم يجب ان تقاس بمقاييس الغرب، وموازينه قياسًا كاملًا - حتى تصبح مقبولة عند هؤلاء.

هذه الحضارة هي شيء مفزع ورهيب في نظر المسلم العادي، ولكنها مع ذلك وكما يؤكد أوهى من بيت العنكبوت.

إنها حضارة لا أساس لها، مادة بلا روح، وأهواء بلا عقيدة، وليست تنطوي على أية نزعة إنسانية او خلقية، وهي تقف كل لحظة أمام أبواب الفناء الذري، وأكثر رؤوس الأموال التي تغذي هذه الحضارة وتدعمها هو من خيرات بلادنا المنهوبة، ومن الأرباح الربوية المكدسة في بنوك اليهود في شتى أنحاء العالم.

يقول إقبال: (مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوّله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد، ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمُثُلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية. ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بَنَى للبشرية البيت الحرام، وورّث محمدًا وإبراهيم قيادة العالم).

يقول غوستاف لوبون: (الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء إرهابًا عدة قرون، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السابقة، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس).

وقد ذعر الشاعر الإيطالي المشهور بترارك (١٣٣٤ - ١٣٧٤م) الذي مضت على وفاته اليوم ستة قرون كاملة لسيادة الحضارة العربية وعجز العقل الأوربي عن مجاراتها فقال: (يا عجبًا لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالبًا، وسبقناها أحيانًا، إلا العرب، فيا لعبقرية إيطاليا الخامدة، فهل قدر علينا ألا نعمل شيئًا بعد العرب).

لقد وقف المفكرون الغربيون حيال الشرق العربي موقف المتعجب المذهول.

يقول غوستاف لوبون: (إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة).

ويقول ولز: (الدين الحق الذي يساير المدنية هو الإسلام) ومن قبل، قال عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لبعض أصحابه : «لقد أعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله».

وقال الهرمذان الفارسي لعمر وقواده: (إنما غلبتمونا بالإسلام).

ونحن نقول أخيرًا في كلمة موجزة قليلة:

«إن الغد للإسلام»!.

ضمير المسلم

يتعامل الصوفي المسلم مع ضميره الديني تعاملًا مستمرًا، لأن هذا الضمير هو سر الاله في نفسه، وهو الرقيب العتيد الذي اقامه الله على المسلم يحرسه من ان يتردى في المعصية، ورقابة هذا الضمير هي اولًا وأخيرًا هدف التصوف الحقيقي الذي يتعامل مع الباطن والوجدان والشعور، ولا يتعامل مع الحس والمظاهر الفارغة من كل معنى، الكاذبة دائمًا وأبدًا على الحقيقة والنـاس.

الحد اولًا وثانيًا

لننظر بعمق في موقف لعمر بن الخطاب الخليفة الثاني رضي الله عنه وكرَّمه. روى عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها، قال: رحم الله عمر، ما رأيت أحدًا بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد.. ثم قال: والله اني لفي منزلي في مصر، اذا أتاني آت، فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر - أمير المؤمنين - وأبو سروعة، يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران، فقالا: اتم علينا حد الله، فانا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا، فطردتهما. فقال عبد الرحمن بن عمر: ان لم تفعله اخبرت ابي اذا قدمت عليه، فعلمت أني ان لم اقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل عبد الرحمن بن عمر ناحية في الدار، فحلق رأسه

وكانوا يحلقون رؤوسهم مع الحدود. ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاء في كتابه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر إلى العاصي بن العاصي عمرو، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك علي وخلافك عهدي، فما اراني إلا عازلك، تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت ان هذا يخالفني، إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ان لا هوادة لأحد من الناس عندي، في حق يجب لله عليه فاذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع.

فبعث عمرو بن العاص به كما قال أبوه، وكتب إلى عمر كتابًا اعتذر فيه لأنه اقام عليه الحد في صحن داره مقسمًا بالله الذي لا يحلف بأعظم منه، أني لأقيم الحدود في صحن داري، على جميع الناس.

وبعث بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة، ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال عمر: يا عبد الرحمن، فعلت وفعلت، فكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحد، فلم يلتفت عمر إلى كلامه، فجعل عبد الرحمن بن عمر يصيح: إني مريض وانت قاتلي، فأقام عليه ابوه الخليفة الحد ثانية، وحبسه، فمرض، ثم مات رحمه الله.

وهنا نجد عمر بن الخطاب يأبى ان يقيم للبنوة امتيازًا على الناس، ويرى ان اقامة حد الشرب على ابنه في صحن دار واليه على مصر لا يجزىء في إقامة الحد الذي يجب ان يقام علنًا على مشهد من الناس، ومن أجل ذلك فهو يعيد إقامة الحد عليه مرة ثانية على الرغم من مرضه، وقد كان ابنه مريضًا فعلًا، فمات من أثر ذلك رحمه الله.

من فوق سبع سماوات

هذا الضمير الديني اليقظ هو ما يعنيه التصوف وهو الذي يربيه وينميه التصوف في قلب المسلم.

هذا هو عمر، هازم أعظم امبراطوريتين في التاريخ، وناشر الإسلام في كل مكان.. خرج هذا الخليفة يومًا من المسجد، مسجد رسول الله ومعه الناس، ومنهم الجارود العبدي، فإذا امرأة مسلمة على ظهر الطريق، تناديه، وكانت هذه المرأة هي خولة بنت ثعلبة التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها، وتَشْتَكِي إلى اللهِ، واللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما، إنَّ اللهَ سميعٌ بَصيرٌ﴾[1] وقد حسبت خولة ان عمر امير المؤمنين قد علاه الكبر، وان نفسه قد قادته إلى هلكة الغرور وما حسبت خولة - رحمها الله - ان عمر المؤمن العميق الايمان ما كان ليغيره شيء من نفسه وخضوعه لله رب العالمين، وسلم عمر على هذه المرأة، فردت السلام، والتفتت إليه تقول له: هيه يا عمر، عهدي بك وانت تسمى عميرًا في سوق عكاظ - اي في الجاهلية - ثم لم تذهب الايام حتى سميت امير المؤمنين، فاتق اللهَ في الرعية. فضاق بها الجارود، فقال: قد اكثرت على أمير المؤمنين أيتها المرأة، فقال له عمر: دعها، أما تعرفها؟ هذه خوله امرأة الفرج بن الصامت، التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، فعمر أحق والله ان يسمع لها.

احفظ الله يحفظك

ان هذا الحضور الصوفي الدائم لله في قلب عمر هو الذي جعله دائمًا مقبلًا على الله، ومن لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان قيد اليه بسلاسل الامتحان، كما يقول ابن عطاء في كتابه «لطائف المنن». وتغليب الخوف على الرجاء ملأ قلب عمر ايثارًا لمرضاة الله على مرضاة الناس. وما اعز ما قال المصطفى ﷺ ينصح المسلم الصادق الإيمان: احفظ الله يحفظك، احفظ الله

(١) سورة المجادلة آية ١.

تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم ان ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك. واعلم ان النصر مع الصبر، وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرًا ».

ان التصوف عقيدة ومنهج وعمل وليس كلامًا وتزييفًا وشعارات فارغة، وهذا عمر بن الفارض يقول عن بعض المدعين للتصوف:

رضوا بالاماني وابتلوا بحظوظهم — وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم — وما طعنوا في السير عنه وقد كلوا

وبحق ما قال ابن الفارض:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده — ولا الصبابة الا من يعانيها.

وماذا عن ضمير الصوفي الحاضر دائمًا أبدًا، والذي لا يغيب طرفة عين عن الوعي الكامل المدرك لكل حقائق الحياة والعقيدة الساعي إلى خير عمل، الناطق بخير كلام، بكلام الحق والعدل والمعرفة والنور؟

ان الصوفي هو المتحقق بالحضور بعد الغيبة، وبالبقاء بعد الفناء، وبالصحو بعد السكر وبالسعادة بعد الشقاء، وبالنور بعد الظلام، هو الذي سعى فما كل، وسرى فما ضل، وعز فما ذل، وكثر فما قل. هو النجم الثاقب، والضوء الذاهب، والناسك الراهب، هو الأمل المشرق، والفيض المغدق، وهو الصامت المطرق، هو الذاهب في بحار الحب والسابح في تيار التأمل والقرب، الذي تجرى الحكمة في بيانه، والسحر على لسانه دائمًا أبدًا.

الملاذ من الفزع

وعندما تتحرك الاحداث فيفزع الحليم، ويضل العاقل وينام الرأي. وتستيقظ الفتنة يكون الصوفي الحقيقي هو الملاذ والمعاذ والملجأ والمنجى والصخرة العاتية، التي تتكسر حولها كل التيارات التي لا تغني من الحق شيئًا.

ان الحياة في شموخها وجلالها وابداعها لدلالة ظاهرة على الحكيم الصانع المدبر المبدع، والصوفي فيها هو الامان من الخوف، والملاذ من الفزع، والهدى في الضلال، والرشد في الغواية.

ولا رب سواه

ولننظر إلى عثمان بن مظعون القرشي الجمحي يمضي إلى الوليد بن المغيرة عجلًا، ونفسه تحدثه:

ان رسول الله ﷺ وأصحابه ليلقون من الاذى ما يلقون وانا اغدو وأروح آمنًا، بأمان الوليد بن المغيرة! لن يكون ذلك، ووالله ان غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من اهل الشرك، وأصحابي وأهل بيتي يلقون البلاء والأذى في الله، ولا يصيبني شيء، لمنقصة شديدة، وذنب كبير، وحث ابو السائب عثمان بن مظعون الخطا الى دار الوليد بن المغيرة، حتى بلغها، واستأذن. فأذن له، فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد كنت في جوارك، وقد أحببت ان اخرج منه إلى جوار رسول الله ﷺ فلي به وباصحابه أسوة حسنة.

فقال الوليد: فلعلك يا ابن اخي أوذيت أو انتهكت حرمتك؟

قال ابو السائب: لا، ولكني ارجو ثواب الله، وأرضى بجواره، ولا أريد ان استجير بغيره.

قال الوليد: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية، كما أجرتك علانية.

قال أبو السائب فانطلق وخرجا ـ الوليد، وأبو السائب ـ حتى أتيا المسجد الحرام، فقال الوليد:

هذا عثمان بن مظعون قد جاء ليرد علي جواري.

فقال عثمان: صدق، وقد وجدته وفيًا كريم الجوار، وقد احببت الا استجير بغير الله عز وجل، وقد رددت عليه جواره.

وانطلقت أصوات القرشيين مستهزئة ساخرة بعثمان وبما صنع.

وانصرف عثمان بن مظعون، فإذا لبيد بن ربيعة العامري في مجلس من مجالس الشعر حول الكعبة، وهو ينشد قريشًا: الا كل شيء ما خلا الله باطل فقال له عثمان: صدقت. فقال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال له عثمان: كذبت

والتفت القوم يتعجبون، وقالوا للبيد: أعد علينا، فأعاد لبيد، فأعاد له عثمان ما قاله، صدقه مرة. وكذبه مرة أخرى، لأن نعيم الجنة لا يزول.

وضجر لبيد من هذا الذي يصدقه مرة ويكذبه أخرى، وقال: والله يا معشر قريش، ما كانت مجالسكم هكذا، فقام سفيه من سفهاء قريش إلى عثمان بن مظعون فلطم عينه، فقال له رجل: والله يا عثمان لقد كنت في ذمة منيعة، وكانت عينك غنية عما لقيت.

فقال عثمان: بل جوار الله آمن وأعز وأمنع، وعيني الصحيحة فقيرة إلى ما لقيت أختها، ولي برسول الله وبمن معه أسوة حسنة.

وقال الوليد ساخرًا: هل لك في جواري فقال أبو السائب: لا أرب لي في جوار أحد الا في جوار الله عز وجل.

ذلك مثل من أمثلة الصوفية الكاملة الصحيحة، التي لا يرى فيها الانسان المسلم الا الله، ولا يستعز بغير الله، ولا ينام إلا في جوار الله.

وذلك قمة من قمم المواقف الصوفية الرفيعة التي لا تكون الا لله، والتي تنطق بأن المسلم كله أمره إلى الله عز وجل، وخسر وخاب من استعز بغير الله، وفاز ونجا من نجا إلى الله القادر العزيز الحكيم لا إله غيره، ولا رب سواه..

الإسلام كرَّم الإنسان

الإسلام ديننا العظيم، شريعة الحياة الكاملة، ودعوة السماء الى المثل العليا والقيم الانسانية الرفيعة، رسالة التوحيد والخير والعدل، هذا الدين، دين القيمة، هو الذي كرم الانسان ﴿ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلًا﴾[1] ومن أولى منه بأن يكرم الانسان، وان يرفع من منزلته الانسانية، وأن يحرره من العبودية والطغيان والظلم والذلة والهوان؟

ولقد صنع الاسلام العظيم ذلك، وأكثر من ذلك كله حرر الانسان من الرق، الذي كان شريعة سائدة في أمم الأرض جميعًا، فأغلق منافذه كلها، وقصرها على باب واحد، هو أسير الحرب التي يقف فيها المسلم يحارب أعداء الاسلام والذين يحاربون شريعة الله ويحولون بينها وبين الناس، ويصدون عنها من يؤمن بها. فاذا أسر أحد منهم صار رقيقًا، والرق هنا معناه تربية مثل هـذا الانسان تربية جديدة يستقيم بها فكره، ويهتدي في ضوئها عقله إلى حقائق الاسلام وأصوله، ومع ذلك فقد دعا الاسلام إلى تحرير الأرقاء، لأنه دين يكره الرق، حتى لنستطيع ان نقول: إنه دين القيمة دين الحرية والعزة والإباء والشموخ.

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.

وكذلك كرم الاسلام الانسان.. بتحريره من الاوهام والاباطيل والخرافات والاساطير، وبدعوته العقل الانساني الى التفكير وترك التقليد، ونبذ الاهواء، وبفتح منافذ الكون أمام البشر، ودعوته الانسان إلى التأمل في السموات والأرض وما خلق الله فيها، وتحمل مسئوليته كاملة في الحياة ﴿إنا عَرَضْنَا الأمانَةَ على السمواتِ والأرضِ والجبال، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ، إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

وبأن جعله انسانًا يفكر ويقود، ولم يجعله حيوانًا يهان ويقاد، وجعل من الناس رسلًا وأنبياء، وبعثهم إلى الناس هادين ومرشدين، وانزل عليهم شرائع وكتبًا لهداية الناس إلى الحق والتوحيد وإلى صراط مستقيم.

وكذلك كرم الانسان، وارتفع بانسانيته، بما حلاه به من الطاعة والعبادة وما ألزم به من الفضائل والأخلاق الكريمة، والآداب السامية، والمثل النبيلة.

وكرمه كذلك بتطهيره من المفاسد والقبائح والآثام، ومن الضلالات والبهتان، ومن الظلم والعدوان، ومن كل ما يضر بالنفس او العرض او المال او الشرف، وجعله أهلًا لأن يكون خليفة الله في أرض، كلما التزم بالميثاق وبالفضائل، وعمل بدين الله، وأدى الحقوق، ورعى الامانات، ووفى بالعهد، وعرف حقوق الناس، التزم العدل فيما بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره من البشر افرادًا وجماعات.

وكذلك كرم الانسان، بأن فرض عليه عبادات يقف فيها أمام الله، وبين يديه، ويرتفع بها إلى صفوف الملائكة المطهرين، والارواح المقربين، من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وغيرها. مما يهذب الروح، ويسمو بالنفس، ويرتفع بالانسان الى ذرى الطهر والنقاء والصفاء والعبودية لله رب العالمين،

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

وكرمه كذلك فأمره بالعدل والاحسان، وبالاخاء والمساواة، وبالعدل والانصاف، والغى الفوارق بين الاجناس والالوان، ولم يجعل لأحد فضلًا على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح ﴿إنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾[٢]، و« لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، الا بالتقوى والعمل الصالح». وكان أعظم تكريم للرسول الانسان ما رآه في الاسراء والمعراج من مشاهد الكون والخلق والقدرة، ومن قربه بمناجاة الخالق الاعظم رب الكون والحياة.

ان الاسلام بتطهيره للنفوس من أدران المفاسد والشرور والمعصية ليكرم بني آدم تكريمًا لم يعهده البشر من قبل، لأن الاسلام دين الانسانية كلها، وهذا شاعر مسيحي، هو الشاعر القروي، يدخل عليه صديق له، فيجده يتلو القرآن، ويبكي كبكاء الطفل، ويقول: « ويل لكم أيها المسلمون، أَتُذَلُّ امة بين يديها هذا الكنز الثمين، ويغلب شعب يملك هذه القوة والعظمة؟ أليست هذه قنبلة ذرية؟ ». وصدق الشاعر القروي، وأين القنبلة الذرية من عمل القرآن العظيم؟ وهذا هو المستشرق المجري المسلم عبد الكريم جرمانوس يقول: « انني وانا الرجل الاوروبي الذي لم يجد في بيئته الا عبادة القوة والذهب والسطوة، ولقد تأثرت أعظم التأثر ببساطة الاسلام، وبعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه ».

ولقد كان تكريم الاسلام للانسان فوق كل تكريم، ولم يجر على العقل الانساني، ولم يفرض عليه الوصاية أبدًا، بل امر بالتفكر والتدبر في كل شيء.

وكل شرائع الاسلام وطاعاته وعبادته وأوامره نواهيه تخضع للعقل، الذي يوضح الحكمة في كل عمل من الأعمال التي توجبها الشريعة، وبينما تفرض الاديان الوصاية على الانسان، يحرر الاسلام هذا الانسان من كل قيد، الا قيد العبودية لله رب العالمين، لأن هذا القيد هو التحرير الكامل للانسان.

أي وربي، العبودية الكاملة لله هي منتهى التحرر والحرية للانسان، الذي

كلفه الله بالمسئولية، وشرفه بالعقل وزينه بالتوحيد، وجمله بالانسانية، وحلاه بالضمير وبالوجدان النقي الطاهر الشريف، وطوبى لهذا الانسان، الذي رعاه الله وحفظه وحماه وهداه الى الخير، وجعله من إبداعه وتصويره وصنعه.

ان فضل الله العظيم على الانسان ليوجب ان يكون الانسان دائمًا أبدًا حيث يحب ان يكون، وحيث يجب ان يكون، والله عز وجل أكرم وأعطف على الانسان من الانسان نفسه وكلما قدر الانسان تكريم الله له، وشكر الله عليه، كلما زاده الله تكريمًا، ورفع من منزلته في الحياة وبعد الحياة.

الاسلام في قيادة البشرية

إن تاريخ الاسلام الحضاري لا يمكن ان يكون محل شك من أحد، إنه واضح وضوح الشمس في ريعان النهار، انه حق كما ان الاسلام الذي قام عليه حق.

ولقد بهر تاريخ الاسلام الحضاري العلماء والباحثين والمفكرين في أوربا، وأخذوا - على الرغم من تعصبهم الديني، ومحاولتهم تزييف الحقائق والتاريخ - يمجدون حضارة المسلمين ويتوهون بها: ويثنون عليها، ويعلون من منزلتها بين الحضارات، إلى حد يثير الاعجاب، ويدعو إلى الفخر، ويبعث على الكبرياء.

لقد صاح «بترارك» الشاعر الايطالي من القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٣٤ - ١٣٧٤م)، حين رأى تفوق العرب في الميدان الحضاري والثقافي، وعجز أوربا عن اللحاق بهم في هذا المضمار قائلا: «يا عجبا!!! لقد استطاع شيشرون ان يكون خطيبًا بعد ديموستين، واستطاع فيرجيل (١٩ق م) أن يكون شاعرًا بعد هوميروس، فهل قدر علينا الا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والأغريق وجميع الشعوب غالبًا، وسبقناها أحيانًا، الا العرب، فيا لعبقرية ايطاليا النائمة الخامدة.

ووقف فيكتور هوجو الشاعر الفرنسي الكبير في القرن التاسع عشر الميلادي أمام حضارة العرب في الأندلس ممثلة في قصر الحمراء، مبهورًا

مأخوذًا مندهشًا فتمتلئ نفسه بروعته، وجلاله وينشد قائلاً: «أيتها الحمراء أيتها الحمراء أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، والمائلة إلى الانهرام، حيثما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية، يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب» وهذا القصر الذي ملأت روعته نفس الشاعر الفرنسي الكبير، لم يشاهده «هوجو» على الطبيعة، انما شاهده، وجدره المزخرفة، ونقوشه النادرة قد غطيت بطبقة سميكة من الكلس، بعد خروج العرب من الأندلس، وذلك بأيدي الاسبان الملوثة بدماء العرب وحضارة الاسلام في بلادهم، يقول غوستاف لوبون: «كل ما في قصر الحمراء عجيب، وان المرء ليملكه العجب من جدرانه المزينة بالنقوش العربية الأنيقة، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلية، المطلية فيما مضى باللازورد والأرجوان والابريز، ولقد قص جميع رجال الفن، الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والالم ملء قلوبهم، ما لا يكاد العقل يصدقه، من أنباء التخريب الفظيع، الذي أحدثه الأسبان فيه، حتى لقد عدته جميع الحكومات الاسبانية مجموعة من الخرائب القديمة، التي لا تنفع لغير الاستفادة من موادها، فبيعت الواح الميناء التي كانت تزين ردهات الحمراء لصنع الملاط، وبيع باب مسجدها البرونزي كنحاس عتيق، وحرقت منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة كما يحرق الحطب ثم اتخذ من ردهاتها الجميلة سجونًا للمجرمين، ومخازن للميرة، بعد أن بيع ما أمكن نزعه منها، وأراد الأسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة، فكسوها بطبقات من الكلس، وقيل للاسبان غير مرة: إنهم يملكون بهذا القصر احدى عجائب الدنيا التي تجلب اليهم المسلمين من كل جانب، فأزيل شيء من الكلس الذي سترت به تلك النقوش العربية.. هذا هو ما يقوله أوربي فرنسي عن أثر واحد من آثار حضارة الاسلام في الأندلس، ويستمر في كلامه، فيقول: وأين غرناطة اليوم الكئيبة القذرة من غرناطة الأمس الجميلة المتحضرة؟

وعندما وقف محمد اقبال في مسجد قرطبة العظيم عام ١٩٣١، صلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين، وذرف على تربته دموعًا غزارًا، وتذكر العرب المسلمين الذين حكموا هذا الأرض ثمانية قرون، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين وكأن جو قرطبة يشكو إليه اقفاره من الأذان الاسلامي، وظمأه اليه، فنظم في ذلك قصيدة من أبدع قصائده..

ويقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» مبهورًا بعظمة الحضارة الاسلامية، وبماضي العرب الحضاري: الحق ان اتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء ارهابًا عدة قرون، وعندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية الساحقة، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

ويقول مسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون.

لقد كان العرب اذا ما استولوا على مدينة، صرفوا جهدهم إلى انشاء مسجد، واقامة مدرسة فيها، واذا ما كانت تلك المدينة كبيرة اسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين لتطبلي (١١٧٣م) أنه شاهدها في الاسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وعلى كل ما يساعد على البحث العلمي.

ويصف المؤرخ العربي الكبير أبو الفداء في تاريخه عظمة الخلافة العباسية وحضارتها، التي بهر منها سفراء قيصر الروم عام ٣٠٥هـ، حين اقام الخليفة المقتدر بالله لهم حفلة استقبال في قصره ببغداد يقول ابو الفداء: قدم رسل ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر وصفت الدار بالاسلحة وأنواع الزينة، وكان العسكر المصفوفون حينئذ مائة الف وستين

ألفًا، ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذوو الزينة الباهرة والمناطق المحلاة، ووقف الخدام بذلك، وكانوا سبعة آلاف، أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أسود، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائه حاجب، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة، وزينت دار الخلافة، فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألفًا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب، وكانت البسط اثنين وعشرين ألفًا، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، وكان جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه، وأحضروا بين يدي المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة..

ولقد سيطرت الحضارة العربية منذ اثني عشر قرنًا على الأقطار الممتدة من شواطىء المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، ومن شواطىء البحر المتوسط الى رمال افريقيا الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونظم واحدة وفنون واحدة، وكان تأثير العرب عظيمًا في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، فلم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، وأنه لفرق كبير بين بناء دولة وبين تأسيس حضارة، ولقد أنشأ العرب بسرعة فائقة حضارة جديدة لهم فأبدعوا من فورهم حضارة أفضل من جميع الحضارات التي كانت قبلها..

واذا قرأنا ما كتبه الغربيون عن «تاج محل» الاسلامي العظيم في الهند (١٠٤١ هـ) راعنا وصفهم له، يقول باحث أوربي ان كل ما يجود به الفن من الكمال صبه في تاج محل الذي بناه شاهجهان ليكون ضريحًا لزوجه، ويعد من عجائب الدنيا، وهو من المباني الاسلامية النادرة التي أفلتت من أيدي التخريب الانجليزية المنظمة، وكان الحاكم الانجليزي لورد بنتنك قد اقترح هدمه وان تنزع منه فضته، وتباع قطعه في الأسواق، ولقد هدم الانجليز أثرًا رائعًا من آثار الحضارة الاسلامية في الهند، هو قصر المغول في دهلي ويسمى قلعة شاهجهان، الذي شيده شاهجهان المسلم عام ١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م، وكان

من أجمل القصور الاسلامية في بلاد الهند وفارس، فهدموا جميع أجزائه، وأقاموا في مكانها ثكنات، ولم يبقوا منه إلا على بعض الردهات التي ضنوا على زخارفها وحلاها بالتجديد عند تحويلها إلى اصطبلات ومراقد للجنود، فطلوها بالجبس، مما أثار سخط العالم بسبب مثل هذا العمل الممجي، الذي تحمر منه وجوه وحوش البرابرة خجلًا، وعظمة الآثار الاسلامية في دهلي معروفة، حتى لكان ملائكة الف ليلة لا تستطيع ان تبدع ما هو أروع منها..
وحين استولى المغول على بغداد عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م خربوها تمامًا، وقضوا على آثار الحضارة العربية فيها، ونهبوا كل ما فيها من الأموال بأمر هولاكو التتري ودمروا كل ما وصل إلى أيديهم، وألقوا في نهر دجلة بجميع ما وصلت إليه أيديهم من مخطوطات نفيسة كانت ثروة علمية وحضارية فريدة، في مكتبات بغداد العامة، وتألف من هذه الكتب الملقاة في دجلة جسر كان يمكن للناس ان يعبروا عليه رجالًا وركبانًا، وأصبح ماء دجلة أسود من موادها ولكن أولئك الوحوش الضارية عادوا فخضعوا لسلطان حضارة المغلوبين، ففي المدرسة العربية تمدد المغول، واعتنقوا الاسلام وحضارته، وأقاموا بعد ذلك في الهند دولة عربية قوية.

وقد أذاع بعض الاوربيين ان العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية القديمة بأمر عمر بن الخطاب، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين وفي مقدمتهم بتلر نفوا ذلك نفيًا قاطعًا، وكذلك نفى هذه الخرافة جيبون وغوستاف لبون في كتابه العرب، وتاريخ العرب الفكري والثقافي والحضاري ينفي عنهم ذلك، فقد كانوا منذ نشأ الاسلام حماة الثقافة ورسل العلم ورواد المعرفة، والمشجعين على البحث العلمي في كل مكان حلوا فيه، والصحيح أن جزءًا من المكتبة أحرقه يوليوس قيصر، على أنه ليس مستبعدًا ان تكون روما هي التي اغتصبت من هذه المكتبة اثمن كتبها، كما أنه من الصعب ان تقول ان المكتبة لم تصب بأذى في عهد إضطهاد «كراكلا» الفظيع، وكان انتشار المسيحية ضربة قاضية على مكتبة الاسكندرية، ففي عام ٣٩١م أصدر

الأمبراطور الروماني أمرًا بالقضاء على عبادة الأوثان في الاسكندرية، ومن العسير ان نصدق أنه كان بالاسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع الميلادي.

أضواء على الطريق

- ١ -

نحن الآن على مشارف القرن الخامس عشر الهجري.

وفي مطلع عام ١٤٠١ للهجرة النبوية.

نودع عامًا ونستقبل عامًا.

ونتذكر تاريخًا حافلًا مرّ به الإسلام والمسلمون خلال الف وأربعمائة عام: ونتطلع إلى تاريخ جديد نكتبه نحن المسلمين المعاصرين. ونخطط به لعصر جديد، ومستقبل عتيد.

وما أكثر الذكريات، ما أحلاها وما أمرّها معًا؛ ما أجلّ ما صنع الشرق الإسلامي على امتداد الأيام والقرون، من أجل الإنسان والحياة والمعرفة والحضارة؛ وما أفدح ما لاقاه من أهوال ومحن وخطوب على طول الحقب والأجيال.. تاريخ طويل، وسجلّ حافل، وأيام لا تنسى من خَلَدِ الدهرِ، ومن عَقْل العصور.

وكيف ننسي تاريخًا صنعناه بالدماء والشهداء؛ وبالتضحيات والبطولات.. وصنعه الله لهذا الشرق الإسلامي الذي حمل الراية، ورفع اللواء، وبلغ الرسالة، ونشر الثقافة والحضارة في العالم، على امتداد هذه القرون الأربعة عشر.

إن ذاكرة الإنسانية لم تنس ولن تنسى حقوق الإنسان التي كفلها ورعاها الإسلام، والتي أقرها المسلمون في أوطانهم ودولهم طيلة أمد طويل، كان مخضبًا بالدماء، وبالحروب، وبالاضطهاد، وبالاستعباد، وبأمثال محاكم التفتيش، ومما هو أسوأ من محاكم التفتيش.

وإن راية الحرية والإخاء والمساواة التي رفعها محمد ﷺ وأصحابه لم تُنكس أبدًا في ظلال حضارات الإسلام العظيمة، التي أضاءت الشرق والغرب، والتي بنت للإنسان وللانسانية صروح الرفاهية والرخاء والسلام والطمأنينة والعدالة على مرور الأيام والأحقاب.

لنسأل مكة والمدينة، ولنسأل دمشق والفسطاط والقاهرة، ولنسأل القيروان وفاس وقرطبة وإشبيلية، ولنعد بالسؤال مرة أخرى إلى بغداد وجرجان وأصفهان وشيراز، وإلى سمرقند وبخارى، وإلى مختلف العواصم الإسلامية في كل مكان من الوطن الإسلامي الكبير: عما قدمت للبشرية من علماء وكشوف علمية ومؤلفات ونظريات وأفكار، وعما كان فيها من جامعات، ومعاهد ومدارس ودور كتب ومراكز آداب وفنون؛ وعمن نبغ فيها من شعراء وأدباء وكتَّاب ومفكرين وفلاسفة وفقهاء ومؤرخين ونقاد ومشرعين وقواد وغير ذلك.

ولنراجع ذاكرة التاريخ لتحصي لنا ما كان في المدن الإسلامية من متاحف وكنوز وآثار ومخطوطات؛ مما لم ير التاريخ له مثيلًا في شعب من الشعوب، ولا في مجموعة من مجموعات الأمم المتحضرة..

وعندما نستعرض تاريخنا لا بد أن نتساءل: هل جاد الزمان بمثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعلي وعمرو بن العاص؟ وهل جاد بمثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين والمعز لدين الله وسليمان القانوني؟.. أو بمثل خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وبيبرس والملك المظفر قطز؟.. وهل جاد بمثل مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل؟.. أو بمثل: الكندي والفارابي وابن

سينا وابن رشد وابن طفيل والغزالي وسواهم.

وحدّث عن آلاف الأعلام الذين اشتركوا في بناء صروح التقدم والمعرفة والمدنية في العالم على مدى عصور طويلة.

يقول فيلبي: «إنه عند مفترق عصرين: عصر تعطلت فيه العلوم والفنون، فغشي الدنيا كلها ظلام وجهل، وعصر تألق فيه نجم المعرفة بعد كسوف طويل، سوف ندرك مدى النهضة الفكرية الشاملة، التي عاشها المسلمون، وكانت بشيرًا بحضارة إنسانية رفيعة، تمثلت في تنقيب العلماء عن كنوز الماضي الدفينة، حتى أصبحت علوم الإغريق بعد احتباسها في متناول العالم، بعد أن نقل علماء المسلمين كتب الفلاسفة وعلماء الفلك والطب والنبات من الإغريقية إلى العربية»[١].

ولا ننسى أن الورق قد بدئ بانتاجه في سمرقند. حيث أخذه المسلمون عن الصين، ومن سمرقند انتشر في بقية الأقاليم الإسلامية[٢].

وآثار حضارة الدولة السامانية (٢٦٢ - ٣٨٩ هـ: ٨٧٤ - ٩٩٩ م) في بخارى وسمرقند، وكذلك آثار الدولة الغزنوية (٣٨٨ - ٥٨٢ هـ: ٩٩٨ - ١١٨٦ م) ما تزال ماثلة في متاحف العالم، ومنها متحف اللوفر بباريس.

وحدّث عن النهضة الفكرية والأدبية في ظلال دولة الحمدانيين في حلب والشام (٢٩٣ - ٣٨٠ هـ: ٩٠٥ - ٩٩٠ م) على الرغم من المعارك الطاحنة التي دارت بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية في ثغور الجزيرة وهذه الثغور كلها من الشام، وكيف ننسى المتنبي والفارابي وأبا فراس وابن خالويه والسلامي والوأواء الدمشقي والنامي والرفاء وابن نباتة السعدي والصنوبري والخالديين وسواهم، وكان سيف الدولة يحيط نفسه بالشعراء، ويقرب إليه

---

(١) كتاب هارون الرشيد، تأليف جون فيلبي، ص ٦٠، بالإنكليزية.

(٢) ص ٢١، كتاب الفنون الايرانية، د. زكي محمد حسن.

الفلاسفة والعلماء، وكان قصره في حلب يحفل بندوات الأدب والشعر، وفي عهده كانت حلب تضارع بغداد منزلة ومجدًا؛ وقد كان سيف الدولة رائد العروبة في عصره، وحامي حمى الإسلام، وقاهر الروم البيزنطيين، وقد وفد إليه العلماء من أمثال أبي الفرج الأصفهاني (-٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «الأغاني» المشهور، وقد أهدى إلى سيف الدولة نسخة منه، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه[1]، ويقول الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر» إن عاصمة سيف الدولة - حلب - كانت مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ولم يجتمع بباب أحد الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر[2].

وماذا عن الفاطميين في مصر وحضارتهم الزاهية فيها؟ (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ: ٩٦٨ - ١١٧١ م)، وهم بناة الأزهر والآثار والمساجد الفاطمية الكبيرة الباقية على مدى الأيام.

وحدّث عن الجامعات الإسلامية القديمة التليدة ولا حرج: الفسطاط - الأزهر - القرويين - الزيتونة - النظامية - وسواها.. ولا يزال شيخها جميعًا وهو الأزهر باقيًا، وكذلك القرويون، والزيتونة؛ وكذلك المستنصرية في بغداد.

وهل ننسى جامعة الفسطاط، الجامعة الأم، التي قامت في مصر الإسلامية، بعد الفتح الإسلامي مباشرة، على يدي عمرو بن العاص أمير الفتح وأمير مصر آنذاك (توفي عام ٤٣ هـ - ٦٦٣ م).

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، ص ٤٧٥، من الجزء الأول.

(٢) راجع ترجمة الثعالبي لسيف الدولة في الجزء الأول من (يتيمة الدهر) لأبي منصور الثعالبي.

- ٢ -

وقد صاحب مسيرة التاريخ الإسلامي نشوء المذاهب الفقهية على يدي الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل؛ وجمع الأحاديث النبوية في الكتب الصحاح المشهورة، وفي كتب المسانيد الموثقة، وظهور أعلام المحدثين؛ وفي مقدمتهم: الإمام البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ: ٧٧٠ - ٩٦٦ م) ومسلم (١٩٦ - ٢٦١ هـ: ٨١١ - ٨٧٤ م)، وسواهما.

وكان الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ: ٧٨١ - ٨٥٥ م) يعد من أئمة ومن أعلام المحدثين، وكتابه «مسند أحمد» مشهور ومطبوع؛ وكان من أكثر الناس دراية بكتاب الله، وأوسعهم إحاطة بمعانيه، وأعمقهم فهمًا لأحكامه؛ إلى تعمقه في الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية.

وعلى يدي الإمام أحمد وعلى فقهه واجتهاده تخرجت أجيال من العلماء خدموا الإسلام والمسلمين في كل عصر وكل جيل، وفي مقدمتهم: أحمد تقي الدين بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ: ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)، ومحمد بن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ: ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) تلميذ الإمام ابن تيمية، بل هو من ألمع تلاميذه، والوارث لتراثه العلمي البليغ؛ وعلى سننهم فيما بعد سار الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ: ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م)، رائد الدعوة الإصلاحية السلفية وإمامها في العصور الأخيرة. ودعوته كانت «الصرخة المدوية، والصيحة القوية، التي نبهت الأمة من رقدتها، ووجهت الأفكار إلى البحث ومناقشة الآراء وقرع الحجة بالحجة»[١].

- ٣ -

وقد كانت محنة الحروب الصليبية التي امتدت طويلًا، وأنهكت العالم الإسلامي، من أسباب وقوف نمو الحضارة الإسلامية، وجمود حركة العلوم

(١) ٢٠٢ قادة الفكر الإسلامي، عبدالله بن سعد الرويشد، نشر مكتبة عيسى الحلبي، القاهرة.

والآداب والفنون طيلة القرن السادس، بل كانت سببًا من أسباب انتهاء دول إسلامية كبيرة، وظهور دول أخرى حلّت محلها في حكم الرقعة الطويلة الممتدة في العالم الإسلامي.

وكان انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في معركة «حطين» المشهورة (٢٣ من ربيع الآخر ٥٨٣ هـ - ٣ يوليو (تموز) ١١٨٧ م)، وهزيمة الصليبيين أمامه هذه الهزيمة الساحقة المدوية، واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس إثر ذلك (في ٢٧ من رجب عام ٥٨٣ هـ - ٣ من أكتوبر (تشرين الأول) ١١٨٧ م)؛ من أحداث التاريخ الإسلامي الكبرى، التي هزت الشعوب الإسلامية هزًا عنيفًا، من أقصى أطراف العالم الإسلامي إلى أقصاه؛ وكان ظهور صلاح الدين من أهم معالم التاريخ في القرن السادس الهجري، بل في جميع القرون؛ ومع تفرغه للدفاع عن الشرق الإسلامي، ولمقاومة الغزو الصليبي ودحره، كان محبّا للعلم والعلماء، أنشأ المدارس والجامعات، وشجع العلماء والطلاب، ويقول السيوطي عنه: إنه رحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من الإمام السلفي(١)، ولم يعهد ذلك من ملك إلا هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع كتابه «الموطأ» منه(٢).

وحاقت بالمسلمين محنة أخرى هي الغزو المغولي للعالم الإسلامي، وتدميرهم لبغداد، وقضاؤهم على الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م، بقيادة هولاكو المغولي شقيقَ إمبراطور الدولة المغولية مانجوخان في شرق آسيا(٣)،

---

(١) من أشهر أعلام العلماء في العصر الفاطمي والأيوبي، توفي عام ٥٧٦ ه، في الإسكندرية عن أكثر من مائة عام (راجع ٢/٧٣ قصة الأدب في مصر).

(٢) راجع كتاب السيوطي «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، وكتابه الآخر «تاريخ الخلفاء».

(٣) كانت عاصمتهم هي قره قوروم في شمال الصين. ويلاحظ أن فتح بغداد كلف الخلافة العباسية قتل مليون وثمانمائة ألف نفس في تقدير الذهبي في كتابه «دول الإسلام»، أو =

ولقد اجتاح المغول العالم الإسلامي وطوّقوه تطويقًا كاملًا، ودمروا مراكز الثقافة والحضارة في ربوعه، ولم يقفوا عند بغداد، بل زحفوا غربًا إلى الشام وفلسطين، قاصدين مصر لغزوها. وفي «عين جالوت» من أرض فلسطين دارت المعركة الرهيبة بين السلطان الملك المظفر قطز وبين جيش المغوليين وذلك في ٢٥ من رمضان عام ٦٥٨ هـ ـ ٤ من سبتمبر (أيلول) عام ١٢٦٠ م، وانتهت المعركة بالنصر العظيم للملك قطز وجيشه الباسل الذي كان يقوده القائد المشهور بيبرس.

وبعد هذا النصر العظيم انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر، وحملت راية الدفاع عن العالم الإسلامي طيلة عصر المماليك.

وقد كان هذا النصر سببًا من أسباب عودة الثقة والأمان والطمأنينة إلى العالم الإسلامي، وإقباله من جديد ومرة أخرى على العمل من أجل بناء الحضارة وتعمير البلاد من آثار التدمير المغولي.

ومن الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام أن إمبراطور المغول غازان خان أعلن إسلامه في الرابع من شعبان عام ٦٩٤ هـ ـ ١٨ من يونيو (حزيران) عام ١٢٩٥ م، وبذلك آثر اعتناق الإسلام، ودخل جميع رجال دولته في الدين الجديد، وبذلك عاد المغول إلى التكفير عن ذنوبهم وخطيئاتهم التي ارتكبوها في كل مكان في أنحاء العالم الإسلامي.

وفي يوم الجمعة ١٥ من جمادى الآخرة عام ٦٩٠ هـ ـ ١٥ من يونيو (حزيران) عام ١٢٩١ م، تحررت أرض فلسطين من الاستعمار الصليبي الأوروبي، وعادت أرض فلسطين لأهلها من العرب بعد استعمار صليبي طويل للأرض المقدسة، دام نحو قرنين من الزمان.

= ثمانمائة ألف نفس فقط في تقدير ابن القنوطي المؤرخ العراقي. ويروي ابن العماد الحنبلي أن القتل والسبي استمرا في بغداد أربعين يومًا (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد).

ومرت الأيام، وكان فتح القسطنطينية على يدي محمد الفاتح العثماني عام ٧٥٧ هـ - ١٤٥٣ م، من أهم أحداث التاريخ الإسلامي بل العالمي كله، وكان من نتائج فتح القسطنطينية آنذاك انتشار النفوذ الإسلامي في شرق أوربا، وخضوع كثير من الشعوب الأوروبية لحكم العثمانيين.

وقد مني العالم الإسلامي مرة أخرى بنكبة هزت أعماق كيانه وهي سقوط غرناطة، وضياع الأندلس من أيدي المسلمين، وذلك عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م.

وكان فتح الأتراك العثمانيين لمصر، ودخولهم القاهرة، يوم الاثنين الثالث من المحرم عام ٩٢٣ هـ - ٢٦ من يناير (كانون الثاني) عام ١٥١٧ م، ونقلهم الخلافة العباسية وكنوز مصر وآثارها وتراثها إلى القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ الإسلامي الكبير.

ومن أهم معالم تاريخنا[١] ظهور الدولة السعودية في الجزيرة العربية، وظهور الدولة السنوسية في ليبيا، وظهور المهدي في السودان، وظهور محمد علي وأسرته في مصر.

- ٤ -

ولقد دمر الاستعمار الأوروبي العالم الإسلامي تدميرًا شديدًا، حيث قضى على معظم كنوزه وذخائره ومتاحفه ودور كتبه، وقضى على الحركة العلمية والأدبية وعلى الثروات فيه، وجعل الناس يعيشون في فقر مدقع، وحارب الدين واللغة العربية حربًا شعواء، ونشر دعوات التبشير في كل مكان، كما نشر المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التبشيرية في ربوعه.

(١) من أهم الدول الإسلامية التي قامت في الشمال الإفريقي: دولة المرابطين - دولة الصنهاجيين - دولة المرينيين - الأغالبة - الأدارسة - السعديين - الموحدين - الحفصيين - العلويين أو الفلاليين - الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية والمماليك في مصر - ثم جاء الحكم العثماني لمصر، وفي نهايته ظهر محمد علي.

واستنفد الجهاد من أجل تحرير الوطن الإسلامي من نير الاستعمار الغربي جهدًا ووقتًا طويلًا، واستلزم تضحيات هائلة لا نهاية لحدودها.

وقامت دولة باكستان، ولكن أيدي الاستعمار فصلت عنها دولة سموها دولة البنغال، وحارب التبشير والاستعمار الأقليات المسلمة في كل مكان، وهاجمت الشيوعية العالمية العالم الإسلامي مهاجمة حاقدة، ولا زالت تعبث في ربوعه وأراضيه فسادًا حتى اليوم.

- ٥ -

ماذا نصنع - نحن المسلمين - ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري؟

لا ريب أن العالم الإسلامي لا بد له من أن يوحد صفوفه، ويجمع شمله، ويرأب الصدع الذي لحق به.

ثم عليه أن يحافظ على تراثه وأصول نهضته ومقومات روحه، وعلى أصالته بصفة خاصة.

وأهم واجب على المسلمين أن يتحرروا من استعباد المبادئ الهدامة لهم من إلحادية وشيوعية وعلمانية وغيرها.

ثم عليهم أن يسعوا بكل جهدهم وطاقاتهم للحاق بركب الحياة المعاصرة في العلوم والتكنولوجيا الحديثة وفي كل جانب من جوانب الحياة.

وعلى الجامعات الإسلامية أن تتعاون فيما بينها من أجل الدعوة إلى الإسلام، ومن أجل محاربة التخلف والجهل والإلحاد في صفوف المسلمين.

ولا بد للعالم الإسلامي من العناية بمخطوطات كتب التراث والعمل على نشرها وتحقيقها. وعليه أن يحارب البدع والخرافات والأوهام والتخلف بكل ما يستطيع، مع الاهتمام الأكبر بجوهر العقيدة وتصحيحها في أذهان الناس.

والتكامل الاقتصادي والثقافي بين دول العالم الإسلامي ضرورة ملحة يقتضيها العصر والحاجة إلى القوة، وإلى دفع الهجوم المستمر الذي تتعرض له الشعوب الإسلامية من أعدائها المتنمرين المتكالبين عليها وعلى كنوزها وخيرات بلادها.

ولا بد للعالم الإسلامي من تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقًا كاملًا وسريعًا لا هوادة فيه، فالحكم بما أنزل الله ضرورة دينية واجتماعية وسياسية في وقت واحد: وقيام المجتمعات الإسلامية على الأخلاق والفضيلة هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات الدولية.

وأهم واجب على العالم الإسلامي الإيمان بالعدالة في كل شيء وإلزام كل المسلمين بها حكامًا ومحكومين، والفصل في كل أمر كبير أو صغير وفق قوانين العدالة الحتمية الإلهية التامة.

ومن الضروري أن يكون نظام الاقتصاد في العالم الإسلامي موحدًا وسائرًا وفق النظام الاقتصادي الإسلامي، حتى تعتدل الموازين، وتستقيم الأمور، ويتحقق الإصلاح الشامل. وعندئذ سيصبح للمسلمين كيان، وسيصير لهم شركة وقوة، وسيحترمهم العالم كله، ما داموا ملتزمين بمبادئ الإسلام وإنسانيته وقيمه وفضائله وأصالته وطهره وتوحيده.

إن العالم الإسلامي هو القوة الجديدة التي يجب أن تظهر على مسرح الحياة الدولية. والتي يجب أن تتسلح بالإيمان والأخلاق والفضائل، وبالعلم والمعرفة اللذين لا حد لهما.

وما دام المسلمون ينصرون الله، فالله ناصرهم ﴿إن تنصُرُوا اللهَ ينصُرْكُمْ ويثَبِّتْ أقدامَكُم﴾[1].

---

(١) سورة محمد آية ٧.

هكذا قال محمد بن عبدالله

من وصايا الرسول الأعظم

نبي الإسلام، وما أعظم نبي الإسلام، محمد بن عبدالله.

الأمين على شرع الله، ودين السماء، ورسالة التوحيد..

والذي أبلى البلاء الكبير من أجل تبليغ رسالة الله.

انه الجهاد الخالد، من أجل اداء الأمانة، ونشر العقيدة، ودعوة البشر كافة إلى القرآن، ومن أجل هداية الإنسانية إلى الله وجميع الناس كافة على الإسلام.

وأي جهاد أكبر من جهاده ﷺ، في دعوة الناس إلى شريعة التوحيد، وصرفهم عن الشرك والوثنية، وعن عبادة الأصنام، وعن عبادة آلهة لا تضر ولا تنفع، إلى عبادة اله واحد، لا إله سواه، ولا معبود بحق غيره.

ولننظر إلى هاتين الصورتين:

صورة الإسلام في بدايته، وليس في الدنيا أحد آمن به غير رسول الله، وزوجه خديجة، وابن عمه الشاب الصغير علي بن أبي طالب..

وصورة مجد الإسلام وعظمته في عيد الرسالة والرسول، وقد آمن به الناس في جزيرة العرب، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

أما الصورة الأولى فيحدثنا عنها عفيف بن قيس الكندي، قال: كنت في الجاهلية عطارا ـ بقالا بلغتنا اليوم ـ فقدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب فبينما أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كان في وجهه القمر، حتى رمى ببصره الكعبة، فنظر إلى الشمس، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصف قدميه حتى يصلي.

فخرج على أثره فتى ـ شاب ـ كان وجهه صفيحة يمانية، فقام، عن يمينه فجاءت امرأة متلففة في ثيابها، فقامت خلفهما.

فأهوى الشاب ـ ﷺ ـ راكعًا، فركعا معًا، ثم أهوى إلى الأرض ساجدًا فسجدا معه..

فقلت للعباس: يا أبا الفضل أمر عظيم.

فقال العباس: أي والله، أمر عظيم.

أتدري من هذا الشاب؟ قلت لا .. قال: ابن أخي محمد بن عبد الله.

أتدري من هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي علي بن أبي طالب.

أتدري من هذه المرأة؟ قلت: لا.. قال: هذه ابنة خويلد، هذه خديجة، زوج محمد.

وان محمدًا يذكر ان الهه اله السماء والأرض، أمره بهذا الدين وإن الله بعثه رسولًا إلى الناس كافة.. وقد صدقه علي ابن عمه، وزوجه خديجة.

ومن هذه الصورة نعرف كيف بدأ الإسلام، الرسول وخديجة، وعلي، هؤلاء الثلاثة كانوا هم النواة الأولى لأمة الإسلام..

ومضت الأيام، لنرى بعد حين صورة أخرى تختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف، صورة الإسلام، بعد هجرة رسول الله إلى المدينة، وبعد أن أخطر الرسول الأعظم إلى أن يسير بجيشه الكبير لفتح مكة، بعد أن صار

للإسلام دولة وقوة، وبعد أن نفضت قريش كل مواثيقها مع رسول الله.

أبو سليمان زعيم قريش قلق في مكة، يعلم أن قريشًا نفضت مواثيقها وعهودها مع رسول الله، وان الأمر صار جدًا لا هزل فيه، فيخرج ليلًا إلى ضواحي مكة، فيرى، ويا لعظمة ما رأى، يرى جيشًا كبيرًا يقف على القرب من ضواحي مكة، إنه جيش محمد ولا ريب.. فسار منفردًا نحو الجيش، ليقف بنفسه على حقيقة الأمر، وإذا هو وسط الجيش، وإذا هو لا يأمن على نفسه فيستجير بالعباس عم رسول الله، فيجيره العباس ويركبه خلفه على دابته، فيشاهده عمر فيعرفه، فيقبض عليه، وهو يقول: الحمد لله، هذا هو أبو سفيان عدو الله.. الحمد لله الذي آمن منه بغير عهد ولا عقد.

فصاح العباس: لقد أجرت أبا سفيان.. فقال عمر: لا جوار إلا لله ورسوله..

وتنازعا، فسارا، ومعهما أبو سفيان إلى رسول الله، فقال للعباس: اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به..

فلما أصبحا غدا العباس بأبي سفيان إلى رسول الله، فبادره الرسول: ويحك يا أبا سفيان. ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟

فرد عليه أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا.

فقال له الرسول: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

فرد أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه، والله، فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

فغمزه العباس، وقال له: ويحك، أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وان محمدًا رسول الله، لتنجو بنفسك، فاسلم أبو سفيان، وهلل الجيش لإسلام زعيم قريش.

وخرج العباس بأبي سفيان، وأراه قوة الجيش الزاحف إلى مكة وشاهد رسول الله في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، فقال أبو سفيان والله، يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا..

فرد عليه العباس: يا أبا سفيان انه ليس ملكًا، انها النبوة..

وفتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

إنها الصورة الثانية، صورة الإسلام في ذروة مجده وانتصاره في فتح مكة، وما أروعه وأعظمه.

إنه الإسلام حقًا وصدقًا..

دين الحق، وشريعة العدل. دين وسط بين جميع الأديان، أمته جعلها الله أمة وسطًا بين جميع الأمم. ووسطية الإسلام تعني أنه يوفق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وبين حق الحاكم وحق المحكوم، وبين مطالب الروح ومطالب الجسد، ويهدف إلى السمو الإنساني المنشود، ويجعل المسلم خليفة الله في الأرض، ينشر المبادئ الفاضلة، والقيم الرفيعة في العالم، فهو دين الفطرة الإنسانية، ودين الأمانة والمسئولية والشرف والصدق والوفاء والعهد.. والوسط يحمل معنى الفضل والخير، ولذلك كان الوسط مركزًا للتوازن وللتعاون والإيثار والاعتدال في كل شيء.

ولننظر إلى جوهر الإسلام، وكيف يصنع العدالة الكاملة..

هذه فاطمة بنت محمد ﷺ، تذهب إلى أبيها، رسول الله، تشكر له ما تشقى هي وزوجها، ابن عمها، علي بن أبي طالب في سبيل الحياة والمعيشة، وتطلب من أبيها أن يعطيها خادمًا من الاسرى وكان قد قدم المدينة عدد جم من الأسرى، فماذا قال لها رسول الله؟

قال لها: يا فاطمة زوج علي: والله لا أعطيكما، وادع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم.. ثم وجه الحديث إليهما: ألا أدلكما على خير

مما سألتماني؟

قالا: بلى يا رسول الله.

قال ﷺ: كلمات علمنيهم جبريل، تسبحان بعد كل صلاة عشرا، وتحمدان عشرا، وتكبران عشرا، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين، وتحمدان ثلاثا وثلاثين، وتكبران ثلاثا وثلاثين.

هكذا قال محمد بن عبد الله لأعز الناس عليه، ولأحبهم إليه.

على هدى رسول الله نرى عمر بن الخطاب، خليفة رسول الله، وقد جاءته في خلافته غنائم كثيرة، منها ثوب نفيس غال، فأمر عمر بايداع ذلك كله بيت مال المسلمين، لتوزيعه على المحتاجين، فقال أحد أصحابه لو بعثت بهذا الثوب إلى امرأة ابنك عبد الله بن عمر، وهي صفية بنت أبي عبيد؟ وكانت قد زفت منذ شهور الى عبد الله، فغضب عمر، ورد على محدثه: سأبعث به إلى من هي أحق به منها، إلى أم عمارة نسيبة بنت كعب الصحابية.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في يوم أحد: ما التفت يمينًا وشمالًا إلّا وأنا أراها تقاتل دوني..

انه الإسلام حقًا.

دين يدعو إلى تقديس حق الغير ويحرم العدوان على الدماء والأموال والأعراض، حتى ليجعل عقوبة السارق قطع يده، ليمتنع عن السرقة وعن أخذ ما لا يحل له.

ويا ليت الذين يقولون: إنها عقوبة قاسية يدرون أنها هي العلاج، ولا علاج غيرها، لجريمة السرقة، وان السارق كثيرًا ما يفجع الناس في معاشهم وكثيرًا ما قد يقتل المسروق أو يعتدي على أعراض من يسرقهم أو يسرقهم، وانه لا تقطع يد سارق إلا في غير ما قصد به رفع غائلة الجوع عن نفسه وعياله، وكنت أقول: لعل الناس يدركون حكمة قطع يد السارق، حتى

قرأت في الصحف أن سويسريًا ذهب إلى القاضي ليقول له: انني مع غناي معتاد على السرقة، ولا أجد علاجًا إلا أن تأمر بقطع يدي.. وعلى أية حال فإن العقوبة حين تنفذ قد لا تتكرر في المجتمع الذي يقف الناس فيه عن السرقة اثر توقيعها على سارق واحد.

كل شيء في الإسلام يمشي مع العقل، ومع المنطق، ومع الفطرة الإنسانية ومع مصلحة الفرد والمجتمع والأمة.. كل تشريعات الإسلام لا تكلف ولا تعقيد ولا إرهاق فيها، لأنه الدين المنزل من السماء من لدن رب العالمين، ان الدين عند الله الإسلام.

ويأمر الإسلام بالاعتدال في كل شيء، وبخاصة في الانفاق لا افراط ولا تفريط، لا إسراف ولا تقصير:

﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا، ولَا تُسْرِفُوا، إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١).

﴿ولَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ، ولَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(٢).

﴿والَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا﴾(٣).

﴿إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾(٤).

صدق الله العظيم.

وصدق رسول الله فيما يقول:

«يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل فيه على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل يذهب فيها دينه، فيهلك!

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٩.

(٣) سورة الفرقان آية ٦٧.

(٤) سورة الإسراء آية ٢٧.

أليس ذلك هو الذي نراه اليوم أمامنا ؟

رجل يسرق لأن امرأته تطلب منه مالا كثيرًا، من أجل مظهرها البراق، أو بسبب اسرافها الذي لا حد له.

وأراد كعب بن مالك أن يتصدق بجميع ماله، فقال له رسول الله: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك..

وأراد سعد بن أبي وقاص أن يوصي بجميع ماله، فقال له رسول الله: أوصِ بالثلث والثلث كثير، ان نفقتك على عيالك صدقة وإن ما تأكله أمرأتك من مالك صدقة، وإنك أن تدع أهلك بخير، خير من أن تدعهم يتكففون الناس.

ويقول رسول الله: ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت ؟

ويقول: كلوا واشربوا والبسوا في غير اسراف ولا مخيلة.

والقناعة والزهد والعفة في طلب المال مما أوجبه الإسلام، وفي الحديث القدسي: الشاب المؤمن بقدري، الراضي بكتابي، الفاتح برزقي، التارك لشهواته من أجلي، هو عندي كبعض ملائكتي.

إن حب المال حبًا جمًا أساس كل رذيلة، وفي الحديث عن رسول الله «تعس عبد الدنيا ـ وعبد الدرهم». وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ★ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1].

ويقول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[2].

وما أروع ما صور رسول الله الحب المتبادل بين الأطفال وآبائهم يقول

(١) سورة الفجر الآيتان ١٩ و٢٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤.

ﷺ: إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة فيقول الله للملائكة: اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة، فيقفون على باب الجنة، فيقال لهم: مرحبا، ادخلوا، لا حساب عليهم، فيقولون: فأين آباؤنا وأمهاتنا؟ فيقول الخزنة لهم: انه كانت لهم ذنوب وسيئات، فهم يحاسبون عليها ويطالبون بها، فيقولون: لا ندخلها حتى يدخلها معنا آباؤنا وأمهاتنا، فيقول الله تعالى: خذوا بأيدي آبائهم وأمهاتهم، فأدخلوهم معهم الجنة.

ان أعظم شيء في الدنيا والآخرة هو العمل بكتاب الله، وفي الحديث القدسي عن رب العزة:

من قرأ القرآن فقام به آناء الليل والنهار، يحل حلاله، ويحرم حرامه، كان القرآن له حججًا يوم القيامة، يقول: يا رب كل عامل يعمل في الدنيا يأخذ بعمله من الدنيا إلا فلانًا، كان يقوم بي آناء الليل والنهار، فيحل حلالي، ويحرم حرامي، يا رب، فأعطه، فيتوجه الله بتاج الملك، ويكسوه من حلل الكرامة، فيقول: يا رب أرغب له في أفضل من هذا، فيعطيه الله عز وجل الملك بيمينه والخلد بشماله.

لقد أوصى رسول الله بكل خير وجميل وحق وعدل وإحسان، وتكلم في كل شيء بكلام الرسول العظيم، وحض على كل ما يصلح شأن الإنسان في الدنيا والآخرة، وأمر بكل فضيلة، ونهى عن كل قبيح وكل رذيلة.

هكذا بدأ نزول الرسالة والقرآن في رمضان

الليلة هي ليلة الاثنين السابع عشر من رمضان، من العام الثالث عشر قبل الهجرة النبوية الشريفة، أو ليلة الرابع من شهر أغسطس من عام ٦١٠ ميلادية.

والمكان غار حراء، حيث الرسول صلوات الله عليه معتكف فيه، للعبادة والطاعة.

وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يحنث في حراء من كل سنة شهرًا، فإذا انصرف كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا.

وكان الرسول العظيم في الأربعين من عمره، وكان قد خرج إلى حراء، ومعه اهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ورسالته.

السماء صافية، وأضواء القمر والنجوم تملأ الأفق، وتضيء الصحراء، ورسول الله مستغرق في عبادته وفي ذكر الله، وبهرت أضواء السماء رسول الله، فرنا ببصره إليَها، فشاهد ما شاهد من السنى والسناء، فالملائكة ترَفرف بأجنحتها وجبريل وسط الموكب الجليل.

اقرأ باسم ربك

قال رسول الله، ﷺ، فجاءني جبريل وأنا نائم، بنمط من ديباج، فيه كتاب،

- فقال: اقرأ.

- فقلت: ما أنا بقارئ.

- فغطني - أي ضمني ضمة شديدة - حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني.

- فقال: اقرأ.

- قلت: ما أبا بقارئ.

- فغطني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني.

- فقال: اقرأ.

- قلت: ماذا أقرأ.

- فغطني، حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني.

- فقال اقرأ.

- فقلت: ماذا اقرأ؟

- فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ★ خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ★ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمِ ★ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ★ عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني.

وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي، فخرجت حتى إذا كنت في

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥.

وسط الجبل، سمعت صوتًا يقول: يا محمد، انت رسول الله، وانا جبريل.. فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل، صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما اتقدم أمامي، وما أرجع ورائي. حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك.

ثم انصرف عني، وانصرفت راجعًا إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست، فقالت يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا.

ثم حدثتها بالذي رأيت.

فقالت: أبشر يا بن عم، واثبت فوالذي نفس خديجة بيده، اني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة..

ثم قامت خديجة، فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله، ﷺ، انه رأى وسمع.

فقال ورقة: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى، وانه لنبي هذه الأمة، فقولي له، فليثبت.

بالبشر والبشرى

كانت خديجة آنذاك قد مضى عليها من الزواج من محمد خمسة عشر عامًا، وكانت أم أولاده الطاهرين وكانت أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا وأكبرهم مكانًا ومكانةً.

رجعت خديجة إلى رسول الله في حراء، فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى

رسول الله معتكفًا ما قضى وانصرف إلى مكة، صنع كما كان يصنع.. بدأ بالكعبة. فطاف بها فلقيه ورقة وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله فقال ورقة: والذي نفسي بيده، انك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.

ثم ادنى رأسه من محمد وقبل هامته، وانصرف محمد إلى منزله ولقيته خديجة بالبشر والبشرى، قالت يا محمد والله لا يخزيك الله أبدًا، انك لتصل الرحم، وتحمل الكل - أي الفقير - وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..

ومضى الرسول في طريقه، ليبلغ دعوة الله ورسالته إلى الناس.

وهكذا ابتدأ نزول الرسالة والقرآن في رمضان منذ ثلاثة عشر وأربعمائة وألف عام هجري، أو سبعين وثلاثمائة وألف عام ميلادي.

قال تعالى: ﴿شهرُ رمضانَ، الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ﴾[1] وامنت به خديجة، وصدقت بما نزل عليه من الرسالة، وكانت أول مسلمة على وجه الأرض.

وكان علي بن أبي طالب أول من آمن به من الشباب، وكانت آنذاك سنُّه عشر سنوات وكان في كنف رسول الله ورأى أبو طالب ابنه ومحمدًا ابن أخيه يصليان في شعاب مكة فقال لرسول الله: ما هذا؟ قال: أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا ابراهيم بعثني الله به رسولا في العباد.

ويقول عفيف بن قيس الكندي: قدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينا أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كأن وجهه القمر ثم دنا من الكعبة، فصف قدميه يصلي،

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥.

فخرج على أثره فتى، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة إلى ثيابها، فقامت خلفهم، فأهوى الشاب راكعًا، فركعا معه، ثم أهوى إلى الأرض ساجدًا، فسجدا معه. فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم.

فقال: أمر، والله عظيم. هذا ابن أخي محمد بن عبد الله، وهذا ابن أخي علي، وهذه ابنة خويلد زوج محمد، وان محمدًا يذكر ان الهه، إله السماء والأرض، أمره بهذا الدين.. صلى الله على محمد وعلى إله وصحبه وسلم.

المعجزة الخالدة: الإسراء والمعراج

- ١ -

معجزتان في معجزة لرسولنا العظيم، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، محمد ﷺ أجمعين.

والإسراء: هو السرى ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج: هو العروج والصعود إلى السموات العلى ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلي الأعلى.

ومعجزة الإسراء والمعراج من أكبر معجزات رسولنا صلوات الله عليه، ومن أعظم البراهين البينات، وأقوى الحجج المحكمات، واصدق مأثورات النبوات ومشهورات الآيات، ومن أتم الدلالات الدالة على تخصيصه عليه الصلاة والسلام بعموم الكرامات.. وكان ذلك في ليلة السابع والعشرين من رجب، وهي ليلة الاثنين في السنة الثانية عشرة من البعثة المحمدية.

والإسراء ثابت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١].

والمعراج ثابت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ

(١) سورة الإسراء آية ١.

الْمُنْتَهَى ★ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ★ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ★ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ★ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1].

والمعجزتان ثابتتان بالقرآن وبالسنة وبالاجماع ولقد أمد الله رسوله الكريم بمعجزة الاسراء والمعراج، تأييدًا لرسالته، ودعمًا لنبوته، وتكريمًا لعبوديته وتشريفًا لصموده في مجال الدعوة وتبليغ الرسالة.

وجاء ذكر الإسراء والمعراج في الحديث الشريف في روايات كثيرة متضافرة، حفلت بها كتب السنة الصحاح.

ففي ليلة السابع والعشرين من رجب من السنة الثانية عشرة لنزول الرسالة المحمدية - ٦٢١ ميلادية، وقبيل هجرة الرسول الأكرم بنحو سبعة أشهر، كانت هذه المعجزة التليدة الخالدة، تأييدًا ورعاية من الله لنبيه، وتمكينًا لدينه القويم.

- ٢ -

لقد كانت رحلة جبريل عليه السلام برسول الله ﷺ ليلًا من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، رحلة فريدة على وجه الزمان.

بينما رسول الله ﷺ عند الكعبة في بيت أم هانئ بنت عمه ﷺ بين النائم واليقظان، وهو بين عمه حمزة وابن عمه جعفر ابن أبي طالب إذ استأذن مستأذن ففتحت له فاطمة الزهراء، فإذا جبريل، فأخذ رسول الله، خارج البيت وبدأت الرحلة المباركة.. وفي رواية أنه فرج سقف البيت الذي هو فيه، ونزلت الملائكة، فاحتملوه، وجاءوا به إلى المسجد الحرام، ومن هنا بدأت الرحلة الميمونة.. وفي رواية أخرى ان جبريل وميكائيل واسرافيل أتوه، فقال جبريل: أيهم هو؟ فقال ميكائيل: أوسطهم، وهو خيرهم، فقال اسرافيل: خذوا خيرهم.

(١) سورة النجم الآيات ١٣ - ١٨.

ولقد كان الإسراء، كما كان المعراج، بروح رسول الله وجسده معًا، على ما اتفق عليه جمهور العلماء من السلف والخلف، ﷺ دائمًا أبدًا إلى يوم الدين.

بدأت رحلة الإسراء اذن من بيت ابنة عم الرسول هند (أم هانئ) بنت أبي طالب، وبعد أن صلى الرسول صلاة العشاء الآخرة، ثم نام ونام أهل البيت، فأراد ربك أن يري نبيه الأعظم الأرض المقدسة موطن أخوته الأنبياء، ومهبط الوحي على المرسلين، السالفين، فجاء جبريل، وأخذ بيد الرسول الأمين وأسرى ليلًا من المسجد الحرام في البلد الأمين، مكة المطهرة، إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس بأرض فلسطين في الشام، ليري الله عز وجل رسوله ما يمكن أن يراه من آيات الله الكبرى.. ولقد شاهد الرسول في طريقه في هذه الرحلة المباركة آيات عظامًا، ولما وصل بيت المقدس احتمى به الملائكة والنبييون والمرسلون أجمعون، واثنوا عليه ثناء رفيعًا، هو وأهله، ونوهوا بفضله عند الله والناس والملائكة أجمعين.

وفي بيت المقدس صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبيين امامًا، ثم عرج به جبريل إلى السموات العلى.

- ٣ -

وكما رأى رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء آيات الأنبياء السابقين، والمسجد الأقصى وديار الحجاز والشام، رأى صلوات الله عليه في رحلة المعراج ملكوت السموات، وعظمة الأملاك والأفلاك، والكواكب والعرش والأرواح والملائكة، حيث كان الموقف العظيم في حضرة الرب جل جلاله، وفي حظيرة القدس وبين العرش الأكبر.

في السماء الأولى احتفى به آدم عليه السلام.

وفي السماء الثانية احتفى به يحي عليه السلام.

وفي السماء الثالثة احتفى به يوسف عليه السلام.

وفي السماء الرابعة احتفى به إدريس عليه السلام.

وفي السماء الخامسة احتفى به هرون عليه السلام.

وفي السماء السادسة احتفى به موسى عليه السلام.

وفي السماء السابعة احتفى به ابراهيم أبو الأنبياء.

وفي كل سماء كان جبريل عليه السلام يستفتح فيفتح له. ثم تقدم الرسول فرفع إلى سدرة المنتهى، متخطيًا في أقل من لمح البصر كواكب وأملاكًا، ومجرات وملايين من الحجب من نور ونار، وضياء وظلمة، وفضاء وهواء وماء. كما تخطى حجب الجمال والجلال. ووقف بين يدي رب العرش العظيم، حيث يسمع صرير الأقلام ويشهد قدرة الله، ويرى ما يعجز البيان عن تصويره وقصوره، ووصف عظمته.

وفرض الله عز وجل عليه فريضة الصلاة في تلك اللحظات لأمته وتشريفًا.

- ٤ -

وعاد الرسول الأعظم، ﷺ، من رحلته الميمونة الكريمة إلى حيث كان ينام في بيت ام هانئ.

وفي المسجد الحرام جلس رسول الله صلوات الله عليه حزينًا، لعلمه ان الناس لا يزالون يكذبونه، ولا يزال سادة قريش وكفارها على تكبرهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله وللرسالة البيضاء التي جاء بها.

ومر به أبو جهل، فقال في سخرية واستهزاء: هل كان من شيء يا محمد؟.

فقال له الرسول الكريم: نعم، أسري بي الليلة إلى بيت المقدس ورأى أبو جهل في ذلك دلائل كذب محمد، وشواهد تكذيب له من الناس.. فقال

لرسول الله ﷺ : أوتخبر قومك بذلك؟ قال صلوات الله عليه له: نعم.

فدعاهم أبو جهل وتجمعوا.

وقال لرسول الله: قل لهم ما قلت إلي آنفًا، فحدثهم رسول الله بحديث الإسراء فردوا جميعًا عليه: ان هذا والله هو الكذب المبين، والله ان الابل لتسير شهرًا من مكة إلى الشام، وشهرًا من الشام إلى مكة، أو يذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة.

- ٥ -

ولم يكن رسول الله يومئذ قد حدَّث أبا جهل ومن معه حديث المعراج، لأنه رآه تشريفًا له، وتكريمًا لأمته، وتقريبًا لمنزلته عند الله.

فما بالنا لو حدثهم هذا الحديث العجب كذلك. وارتد أكثر من أسلم ودخل في الدين.

وسمع أبو بكر القصة من أفواه الناس فقال لهم:

والله لئن كان قال ذلك لقد صدق، انه ليخبرني أن الوحي يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ومن يومئذ سماه رسول الله الصديق.

وعن رسول الله ﷺ : لما كذبتني قريش قمت في الحجرة، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت اخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه، وأبو بكر يقول: صدقت يا رسول الله فسمي الصديق.

هذه هي معجزة الإسراء والمعراج في اختصار شديد، ولو تحدثت عنها باطالة لما وسعتها الصفحات، بل المجلدات.

انها رحلة تكريم واصطفاء، رحلة تأييد وتمكين، رحلة تقدير واعزاز، من المولى الخلاق لمحمد نبيه ورسوله ومصطفاه، الذي جاهد فأبلى، وبلَّغ الرسالة،

وأدى الأمانة، وتعرض لايذاء قومه وتكذيبهم وبهتانهم، ولقي هو ومن آمن به كل صنوف الإيذاء والتعذيب، انها رحلة التعظيم، التي قالت له السماء على لسانها: أن الله معك وناصرك ومؤيدك، ومؤيد دينه ورسالته، وانك لمن الغالبين وانك لمن المنصورين، وانك لمن الفائزين.

وما أعز وأكرم الرسول والرسالة والمعجزة، التي جاءت بعد جهاد طويل، وبعد أن مات أبو طالب وماتت خديجة وقل الناصر، وعز المعين لرسول الله، وظهرت وقاحة المشركين، وازداد سفههم، وأمعنوا في الضلال.. ونال رسول الله منهم ما لم يكن يناله من قبل من سفه وعنت وطغيان.

وقالت له المعجزة العظيمة: لقد قرب أوان النصر، وقرب يوم الفوز، وحانت ساعة الخلاص، ﷺ.

في ذكرى الإسراء والمعراج

الرحلة.. المعجزة

- ١ -

ذكرى ويا لها من ذكرى

ذكرى تتجدد كل عام

ذكرى الرحلة المعجزة

ذكرى الإسراء والمعراج..

حينما صعد الانسان لأول مرة على سطح القمر عد ذلك الإنجاز العلمي الرائع - معجزة... مع انه كان وراءه دولة بكل امكانياتها العلمية والمادية، بل كان وراءه العقل الإنساني كله يخطط ويدبر وينفذ ويعمل ليل نهار، وكان وراءه سلسلة طويلة من الانجازات العلمية الرائعة.

فما بالنا بهذه الرحلة المعجزة التي لم تكن من صنع فرد ولا أمة ولا أمم، ولم تدعمها ثروة، ولم تخطط لهم العقول الانسانية الجبارة.

وفي الحقيقة انها كانت رحلتين ومعجزتين، وقعتا في ليلة واحدة، مما جعلها معجزة لا معجزتين:

١ - فالأولى هي رحلة الإسراء أي السير ليلًا من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في الشام.

٢ ـ والثانية هي رحلة المعراج، وهي الصعود إلى السماوات السبع، ثم إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من تكريم ورعاية ومجد كبير.

كم قطع محمد ﷺ في هاتين الرحلتين من مسافات وبلاد وأملاك وأفلاك وكواكب وسماوات ونجوم ومجرات وطباق؟.. مما لا يمكن ان يتم إلا في زمن طويل، فما بالك وقد وقع ذلك كله في ساعة أو ساعات من ليل.. أليس ذلك هو معنى المعجزة وحقيقتها؟

لقد حوى رسول الله كل أحداث الزمان في ساعات قصار بل قل في ساعة قصيرة، ولكنها طويلة طول ما تم فيها من آيات باهرات.

ـ ٢ ـ

ومعجزة الإسراء والمعراج حدثت في ليلة مباركة من ليالي السنة الثانية عشرة لنزول الرسالة المحمدية «٦٢١ م»، وهي ليلة السابع والعشرين من رجب، وقبيل هجرة الرسول الأكرم من مكة إلى المدينة بنحو سبعة أشهر، وكانت هذه المعجزة برهان صدق الرسول فيما بلغ به عن ربه، ودليل تأييد ورعاية وحفظ وتكريم وتشريف من الله عز وجل لنبيه الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه.

والإسراء هو رحلة جبريل برسول الله ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ﴿**سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبِدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَه، لِنُرِيهِ مِنْ آياتِنَا، إنَّهُ السَّمِيعُ البَصِيرِ**﴾[1].

أما المعراج فهو صعود رسول الله ﷺ من بيت المقدس إلى السموات

(١) سورة الإسراء آية ١.

العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث الجلال والجمال وما لا يمكن وصفه بحال، وإلى مقام الاله الكبير المتعال. وفي ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ولقد رآهُ نزلةً أخرى ★ عندَ سِدرةِ المنتَهى★ عِندَها جَنَّةُ المأوَى ★ إذْ يَغْشى السدرة ما يَغْشَى ★ ما زاغَ البصرَ وما طغَى ★ لقد رأى من آياتِ ربهِ الكبرى﴾[1].

من بيت أم هانئ بنت عم الرسول صلوات الله عليه، أي بنت أبي طالب، وكان قريبًا من الحجرة، بدأت رحلة الإسراء.. وبيت أم هانئ عند الكعبة.

ومن بيت المقدس بدأت رحلة المعراج هذه الرحلة التي هزت الدنيا، وعطر أريجها الوجود كله.

ومن المأثورات ان رسول الله ﷺ ركب في رحلة الإسراء البراق، وهو في هيئة دابة.. ولكن أين الدواب منه؟ واين تكون المطايا الحسان من عظمته، دابة تقطع الكون كله في لحظات قصار، يا لها من دابة كرمت عند الله والناس.

ومن المأثورات كذلك ان الملائكة الكرام أحاطوا بالبراق، فلما ساروا مروا بأرض ذات نخيل، فقال جبريل لرسول الله: انزل يا محمد وصل ها هنا، فنزل فصلى ثم ركب، فقال جبريل: أتدري يا محمد اين صليت؟ قال: لا، قال جبريل: لقد صليت بطيبة، وهي المدينة المنورة، مدينة رسول الله ومهاجره الكريم.

ودخل رسول الله بيت المقدس ودلف إلى المسجد الأقصى، فصلى فيه، فاجتمع عليه الأنبياء والمرسلون، وإذن جبريل، وأقيمت الصلاة، وأم رسول الله الرسل الكرام، وأنبياء الله المطهرين، وملائكته المقربين، صلى الله عليه وعلى اله وصحبه صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين. وقالت الملائكة يا

---

(١) سورة النجم الآيات ١٣ ـ ١٨.

جبريل، من هذا الذي معك؟ قال لهم جبريل: هذا محمد خاتم النبيين والمرسلين، قالوا: او قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حَيَّاهُ الله من أخ كريم، ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء.

- ٣ -

ونصب المعراج، وصعد عليه محمد الى السماء الأولى، حيث رحب به آدم عليه السلام، فالسماء الثانية، حيث رحب به يحي وعيسى، فالسماء الثالثة، حيث رحب به يوسف، فالسماء الرابعة، حيث رحب به إدريس، فالسماء الخامسة، حيث رحب به هرون، فالسادسة حيث رحب به موسى، فالسابعة حيث رحب به ابراهيم عليهم سلام الله ورحمته وبركاته أجمعين.

جبريل يقول لحارس كل سماء: افتح ويرد عليه الملك الحارس: ومن أنت؟ ويرد جبريل: جبريل.

ويقول الملك: وهل معك أحد؟

فيرد جبريل: نعم معي محمد ﷺ.

ويقول الملك الحارس: أو قد أرسل إليه؟

فيرد جبريل: نعم.

فيقول الملك الحارس: مرحبا به، فنعم المجيء جاء.

ما أعظمك وما أجلك يابن عبد الله، ويا خاتم النبيين والمرسلين. صلى الله عليك وعلى آلك وصحبك أجمعين.

وفي هذه الرحلة المعجزة فرضت على أمة محمد ﷺ الصلاة، خمس صلوات في الفعل، وخمسون في الثواب، والحسنة بعشر أمثالها.

وعاد رسول الله من هذه الرحلة الخالدة التليدة إلى بيت أم هانئ ، فحدثها الحديث العجب ، وصلى الفجر في المسجد الحرام ، وجلس في أروقته ، فمر به أبو جهل ، فقال لمحمد في استهزاء وسخرية شديدين :

هل كان من شيء ؟.

فرد عليه رسول الله ﷺ نعم ، أسري بي الليلة إلى بيت المقدس.

وصاح أبو جهل : إلى بيت المقدس ؟ أو تخبر قومك بذلك ؟

فرد عليه رسول الله : نعم.

فدعا أبو جهل أهل مكة كلهم إلى المسجد الحرام حيث يجلس رسول الله ، فتجمعوا في هذا المكان.

فقال أبو جهل : قل لهم يا محمد ما قلته لي آنفًا .

فحدَّثهم رسول الله حديث الإسراء . .

أما حديث المعراج الذي حدث به رسول الله أم هانئ فتركه ، لأنه حديث تشريف وتكريم لرسول الله ، وداعي فخر ومجد لابن عدنان ، ومن شأن الرجل العظيم ان يترك الحديث عن كل داعية فخر ومجد له من أحاديث وكلام.

ورد المشركون جميعًا على رسول الله قائلين له : « ان هذا ـ والله ـ هو الكذب المبين ، وإذ ان الإبل لتسير شهرًا من مكة إلى الشام ، وشهرًا من الشام إلى مكة ، أيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟

وارتد كثير ممن أسلم.

وسمع أبو بكر الحديث من أفواه الناس فقال لمحدثيه :

والله لئن كان قد قال ذلك لقد صدق ، وانه ليخبر في ان الوحي يأتيه

من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فاصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه..

وعن رسول الله ﷺ: لما كذبتني قريش قمت في الحجرة، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم من آياته، وأنا أنظر إليه، وأبو بكر يقول صدقت يا رسول الله فسمي من يومئذ بالصديق.

- ٥ -

إن الزمان ليقف، وان التاريخ ليهتف وان الانسانية كلها لتعرف، وحدث الرواة والعلماء والمحققون وأئمة الدين حديث هذه المعجزة الكبرى منذ وقعت إلى اليوم، وكلهم نشوة واجلال وتقدير.

ارو يا زمان هذه الرحلة المعجزة لكل من تلقاه من البشر.

وارو يا دهر حديث الجلال والعظمة والكبرياء لنبينا عليه السلام.

وتحدث ايها التاريخ حديث هذه الرحلة وما رآه فيها الرسول الأعظم، صلوات الله عليه، من آيات باهرات ومعجزات بينات.

صلى الله عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم يا بن عبدالله صلى الله عليك وسلم يا مجد الحياة، ويا فخر الهداة والدعاه والمرسلين والنبيين، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم تقوم الساعة.

انسانية الرسول

بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ، رسولًا إلى الناس كافة، وهاديًا وبشيرًا ونذيرًا للعباد عامة، ونشأه قبل الرسالة على الخلق الارفع، والأدب الأقوم، وعلى الانسانية الكاملة، التي ترتفع وتتسع، لتشمل الناس جميعًا، بالحنان والحب والعطف والرحمة وطلب الخير والسعادة والرضاء والهداية لهم جميعًا.

اتسع قلبه ﷺ للناس جميعًا فكان للعالمين رحمة وهدى وخيرًا، ومصدر سعادة للبائسين، وداعية هداية للحائرين، حتى مع المشركين الذين حاربوه وقاتلوه، قيل له: يا رسول الله، ادع على المشركين فقال: إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة - رواه مسلم..

وشمل برحمته الفقير والغني والصغير والكبير والرجل والمرأة والضعيف والقوي، والخادم والمخدوم، الحاكم والمحكوم، حتى الحيوان ناله من حنانه وعطفه ما ناله، فقال ﷺ «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض..»

وبشر رسول الله ﷺ بأن امرأة دخلت الجنة في كلب كان يلهث من العطش حتى كاد يهلكه العطش، فخلعت خفها وربطته بخمارها ودلته، ونزعت له ماء وسألته، فغفر الله لها.

وحين انتصر رسول الله على المشركين في فتح مكة لم يعمل السيف فيهم،

وهم الذين حاربوه وآذوه وأخرجوه هو وأصحابه من دارهم ووطنهم، بل عفا عنهم وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء..

ودعوة رسول الله ﷺ إلى العدالة والمساواة والإخاء والحرية دعوات انسانية شريفة، وقال ﷺ: الظلم ظلمات يوم القيامة وقال: سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وجعل من السبعة الامام العادل، وقال ﷺ: لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح وفي القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وانظر إلى انسانية الرسول: جاء زعماء قريش: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والحارث بن عامر بن نوفل وغيرهم من أشراف المشركين من بني عبد مناف يقولون لعمّه أبي طالب لو ان ابن أخيك طرد من مجلسه هؤلاء العبيد الذين يلتفون حوله من مثل بلال وصهيب وعمار وسالم وأضرابهم، لكان أعظم له في صدورنا، وأطوع له عندنا، فأدنى لاتباعنا اياه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب لرسول الله ﷺ، وقال عمر بن الخطاب لرسول الله لو فعلت ذلك يا رسول الله لكان أصوب، حتى ننظر مايريدون بقولهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا: فاذا صلينا فأخر هؤلاء الفقراء فليصلوا خلفنا، فأبى ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. قالوا: فاجعل لنا يومًا ولهم يومًا قال رسول الله ﷺ: لا أفعل، قالوا: فاجعل مجلسنا واحدًا، ولكن اقبل علينا ولهم ظهرك، فأبى فقالوا: لولا بلال واضرابه لبايعنا محمدًا فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. وهكذا كان محمد كما كان الاسلام لا يعرف فقيرًا وغنيًا، ولا كبيرًا وصغيرًا ولا حرًا وعبدًا ولا سيدًا ومسودًا.. بل كان يعرف مؤمنًا وغير مؤمن فكل بعمله وكل جزاؤه عند الله.

ومن أجل ذلك قال أبو سفيان لرسول الله بعد أن أسلم أبو سفيان وبعد أن انتهى حربه للرسالة والرسول، قال: يا رسول الله، والله إنك لكريم فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك، فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فلنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا.

ومع خصومة أبو سفيان للاسلام والمسلمين والرسول قبل أن يسلم في فتح مكة، كانت ابنته أم حبيبة من أوائل المسلمات، وهاجرت إلى الحبشة فرارًا من اضطهاد أبيها وقومها لها ولزوجها عبيدالله بن جحش فصحبت زوجها في هجرته، وولدت له هناك ابنته حبيبة، ولكن زوجها ترك دينه في الحبشة ودخل في المسيحية، وبقيت أم حبيبة وحدها هي وبنتها مسلمتين في الحبشة، ولم يغب عن رسول الله هذا الموقف الذي وقفته أم حبيبة في سبيل دينها وعقيدتها فأرسل إلى ملك الحبشة النجاشي يخطبها لنفسه وعادت أم حبيبة إلى المدينة، فتزوجها رسول الله تكريمًا لجهادها وبطولتها.

ولما جرح شماس المخزومي في أحد، وانتهت المعركة، أمر رسول الله المسلمين أن يحملوه إلى المدينة، فحمل اليها جريحًا وبه بقية من رمق، فقال صلوات الله عليه: احملوه إلى أم سلمة أم المؤمنين وزوج رسول الله، وهي مخزومية قرشية، فحمل إلى حجرتها ليطيب فيها.

ولما فتحت خيبر، وسبى المسلمون صفية بنت حي بن أخطب ملك خيبر غير المتوج، كرمها الرسول صلوات الله عليه فاصطفاها لنفسه، وتزوجها وهي

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٢.

من أعدائه، ولما قدم رسول الله إلى المدينة ومعه صفية رأتها عائشة أم المؤمنين فقالت لرسول الله فيها: رأيتها يهودية بين يهوديات، فقال صلوات الله عليه: لا تقولي هذا فقد أسلمت.

أية انسانية هذه الانسانية، وأية روح عالية شريفة عظيمة هذه الروح الملائكية الطاهرة.

انظروا إلى رسول الله يولي بلالا نائبًا عنه على المدينة وفيها سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار، ويسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن، ولما مات مهران ولي ابنه مكانه، ويقول في سلمان الفارسي الأعجمي: سلمان منا أهل البيت.

وانظروا إلى رسول الله يقول: والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم هو يمنع فاطمة أن تأخذ عبدًا من الاسرى يخدمها لأن فقراء أهل الصفة لا يجدون من ينفق عليهم.

أية إنسانية هذه الإنسانية، إنها إنسانية الرسول، إنسانية البشير النذير، إنسانية الإسلام إنسانية القرآن، إنسانية الوحي السماوي المنزل من السماء على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

في ذكرى ميلاد رسول الله الميلاد الخالد

- ١ -

صلى الله عليك وسلم، يا رسول الله، يا حبيب الله، يا صفي الله، يا خاتم رسل الله - صلاة وسلامًا دائمين ما دامت الأرض والسماء.

صلى الله عليك وسلم.. يا أبا الزاهراء، يا كوكبًا من ضياء، يا نجمًا شق أفق السماء، يا سيد الأنبياء، يا أملا للإنسانية على طول الآباد والآماد، والأحقاب والعصور والأزمان والأجيال، صلاة وسلامًا تهتز بهما الآفاق والأرجاء، وتدوي بهما الدنيا أبدًا كل صباح ومساء.

صلى الله عليك وسلم يا رسول لله..

في حياتك ومماتك، في ميلادك وطفولتك ونشأتك وشبابك ورجولتك وبعثتك وهجرتك، وفي سلمك وحربك، وفي ارتحالك وحلّك، وفي كل لحظة من لحظات الحياة نذكرك فيها، وكل دقيقة من دقائق الزمن تمتزج فيها حياتنا بذكراك العاطرة الباهرة الخالدة التالدة.

- ٢ -

لقد أظلتنا اليوم يا رسول الله ذكرى ميلادك العظيم الجليل، ذكرى هذا اليوم الكبير الخالد في تاريخ الإنسانية، ذكرى تحقق بشارات الأنبياء والمرسلين ببزوغ نجمك، وسطوع فجرك، واشراق ضوئك.

وما أحوجنا دائمًا وأبدًا إلى هذه الذكرى العاطرة ذكرى الأمل والنور والحياة، ذكرى العزة والنشوة والفرحة والبسمة، ذكرى النور والضياء والبهاء والرواء، ذكرى ظهور الرسول العربي العظيم إلى الحياة، الرسول الذي قال عنه «جوته» المسيحي شاعر الألمان في كتابه «الديوان الشرقي» الذي طبعه عام ١٨١٩ : ان رسول الإسلام كان بطلًا مختارًا في كل شيء، وكثيرًا ما أوضح لقومه انه ليس بشاعر، بل نبي فحسب. ومن ثم يجب ان ينظر إلى القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزل عليه، كشرح الهي، وتعليم سماوي، وليس كتابًا إنسانيًا للدراسة والمتعة.

ويقول كذلك: «ان محمدًا رسول الله لم يرسل برسالة شاعر، للتفنن في القول، والتنويع في ضروب الكلام، وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام، بل إنما هو نبي مرسل لهدف مقدر، وغاية مرسومة، وهذا الهدف هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها، لينضووا تحت لوائها»..

- ٣ -

ولد رسول الله محمد ﷺ في بيت كريم، ومن أبوين كريمين، وقد مات الأب قبل الميلاد الشريف، والأم حاملة به، ﷺ..

فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب: ان قد ولد لك غُلام، فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه، وحدثته الأم بما رأت حين حملت به، وبما قيل لها فيه، وبما أمرت به أن تسميه.

وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم، فدخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، وعاد بالوليد إلى أمه فدفعه إليها فقبلته ووضعته إلى صدرها.

وكان هذا الميلاد النبوي الكريم، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل ٥٧٠ للميلاد، وقيل إن هذا الميلاد كان يوم ثاني اثنين من ربيع الأول ـ وهو التاسع من ربيع الأول: العشرين من ابريل عام ٥٧٠ م.

وهللت الدنيا لهذا الميلاد الخالد، واهتز ايوان كسرى، وانطفأت نيران فارس، وسبحت ملائكة الله في السماء بذكر الله وحمده، وتلألأت آفاق مكة بالضياء والبهاء والسناء.

وكانت الأحداث في الدنيا كلها تدور حول مجد العرب وعزتهم، بشرى بميلاد رسول الإنسان وخاتم الأنبياء.

جيش أبرهة الحبشي الذي قدم غازيًا لمكة يفنيه الله ويبيده وهو خارج مكة وقبل أن يدخلها، وكان ذلك هو حادث الفيل الكبير، وكان قدوم أبرهة إلى ضواحي مكة راكبًا الفيل يوم الأحد لثمان ليال بقيت في المحرم، وكان الميلاد النبوي بعد هذا الحادث بخمسين يومًا.

وكان هلاك جيش أبرهة نصرًا مؤزرًا من الله عز وجل لأمة العرب، وبشرى بميلاد النبي العربي القرشي الأمين.

وحين الميلاد كان كسرى انو شروان على عرش فارس، ويقول رسول الله ﷺ: ولدت في زمن الملك العادل انو شروان.

وكان على عرش امبراطورية الروم الشرقية القيصر قسطنطين. وعلى عرش الحيرة الملك المنذر بن عمرو بن هند، وعلى عرش دولة الغساسنة الحارث الغساني.

وبعد أعوام من الميلاد النبوي الكريم كان يوم ذي قار الذي هزمت العرب فيه جيوش فارس في صحراء الحيرة، وكان هذا النصر معجزة كبيرة، وبشارة عظيمة ببعثة الرسول. وفي هذا اليوم يقول الرسول ﷺ: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا».

وبعد الميلاد النبوي بقليل انتصر كذلك سيف بن ذي يزن القائد اليمني على الحبشة وجيوشها وحرر بلاده ـ اليمن ـ من الاحتلال الحبشي المشئوم،

واجلى قوات الحبشة عن بلاده.. وكان ذلك النصر كذلك تأييدًا من الله عز وجل لأمة العرب التي اختار منها رسوله الكريم.

وبعد الميلاد كذلك، وفي مكة، في دار عبدالله بن جدعان عقدت قريش حلف الفضول، حيث تعاهدت قبائلها على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا، من أهلها، أو من غيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد إليه مظلمته، وقد شهده رسول الله ﷺ، وهو في سن العشرين، وقال فيه: «لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفًا ما أحب ان لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

- ٥ -

ولقد عاش اليتيم القرشي العربي محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، مع أمه آمنة بنت وهب، وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا حسنًا، لما يريد به من كرامته. ولما بلغ رسول الله ست سنين توفيت أمه بنت وهب بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار لزيارتهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة المكرمة..

وعاش رسول الله بعد وفاة أمه مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه حتى يخرج اليهم، لا يجلس عليه أحدًا منهم اجلالًا له وتعظيمًا. وكان رسول الله صلوات الله عليه يأتي وهو غلام صغير فيجلس على الفراش، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عن الفراش، فيقول لهم عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله ان له لشأنًا، ثم يجلسه معه عليه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وكانت فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وهي زوجة عمه ابي طالب

بمثابة الأم لرسول الله صلوات الله عليه، فلقد ربي الرسول في حجرها، وكان يجعلها كالأم له.. حتى انها لما توفيت كفنها رسول الله في قميصه.

فلما بلغ محمد بن عبدالله ثماني سنين توفي جده عبد المطلب، وذلك بعد الفيل بثماني سنين، أي عام ٥٧٨ م، وولي زمزم والسقاية عليها بعد عبد المطلب ابنه العباس بن عبد المطلب، وهو عم رسول الله صلوات الله عليه، وكان يومئذ من أحدث اخوته سنًا، فبقيت في يده حتى قام الإسلام وهي في يده، فأقره رسول الله ﷺ على ما مضى من ولايته.

وكان عبد المطلب في حياته يوصي ابنه أبا طالب بمحمد، لأن أبا طالب وعبدالله والد رسول الله ﷺ أخوان لأب وأم، وأمهما هي فاطمة المخزومية.. وكفل أبو طالب محمدًا بعد وفاة عبد المطلب، فكان رسول الله بعد جده مع عمه أبي طالب.

- ٦ -

ومضت الأيام برسول الله، عامًا بعد عام، حتى كانت البعثة النبوية الشريفة، والرسول ﷺ في الأربعين من عمره الشريف.

وكافح رسول الله بعد البعثة ما كافح، من أجل نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة، ونشر كلمة الله، والله عز وجل يؤيده بنصره، ويخذل أعداءه خذلانًا مبينًا، وكانت قريش قومه ألد أعداء الدعوة والرسالة وكلمة الله.

وفي المدينة، وبعد الهجرة النبوية الشريفة، انضم اليهود إلى صفوف الأعداء، فكانوا حربًا على رسول الله ﷺ وعلى من آمن معه من أصحابه.

فلقد رأى اليهود ما أصاب الإسلام في المدينة من نصر وتأييد وتمكين، فأعلنوا العداوة لرسول الله، وللرسالة التي جاء بها، وذلك منهم بغي وحسد لرسول الله ﷺ. ومال اليهم في عداوتهم لرسول الله وللإسلام رجال من

الأوس والخزرج كانوا قد ظلوا على جاهليتهم. ووثنيتهم. وأظهروا الإسلام نفاقًا.

ولما قدم رسول الله المدينة كان سيد أهلها عبدالله بن أبي بن سلول، لا يختلف عليه في شرفه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله وبعده على رجل من أحد الفريقين غيره، حتى جاء الإسلام، ومعه من الأوس رجل هو في قومه شريف مطاع، وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان وكان قد ترهب في الجاهلية، ولبس مسوح الرهبان، فكان يقال له: الراهب.

- ٧ -

لقد أيد الله رسوله العظيم بالبعثة ونصره بعد البعثة على قريش، وحماه من مؤامرات قريش وغير قريش، وأوحى إليه بالهجرة، ونصره في بدر وبفتح مكة، وكتب لرسالته النصر في كل مكان وزمان، وحماه وحمى الرسالة من عدوان المشركين والمنافقين واليهود، وأعز الله به وبرسالته الأمة والعالم كله والانسانية جمعاء، وأخرج الدنيا به من الظلام إلى النور، وكتب لها الكرامة والشرف والجلال والحياة.

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله:

لقد كافحت كفاح الرسل، وجاهدت وجالدت الشرك في كل مكان، وأسلمت وجهك لله رب العالمين وحده لا شريك له ونصرك الله نصرًا مؤزرًا في كل لحظة من لحظات حياتك المباركة العظيمة التالدة الماجدة.

- ٨ -

وتجيء ذكرى الميلاد العظيم، وتجيء بشائره العاطرة، فتنتشي الحياة والبشر بعطر هذه الذكرى وجلالها وعظمتها.

عظمة الميلاد انه لم يكن ميلاد فرد ولا ملك ولا زعيم، وإنما كان ميلاد

بطل الأبطال، وسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين، والبشير النذير، الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

وعظمة هذا الميلاد انه انقذ الإنسانية من حياة الطغيان والذل والهوان والشرك والبهتان، والوثنية والعدوان إلى حياة الشرف والفضيلة والحق والخير والجمال والجلال والرفاهية والرخاء والأمان والعدالة والاحسان والإيمان والتوحيد الخالص لله رب العالمين.

وعظمة هذا الميلاد انه يجدد في الإنسانية كلها روح الأمل والحياة، وروح الإخلاص والإيمان واليقين والاطمئنان.

وعظمة هذا الميلاد الشريف انه يقترن بالأمل في بعث جديد يعز الله به الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان وتبارك الله رب العالمين، الذي يقول في محكم كتابه المبين:

﴿كتَبَ اللهُ لأغلبَنَّ انَا ورُسُلي إنَّ اللهَ قويّ عزيزٌ﴾[1] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة المجادلة آية ٢١.

وماذا بعد حديث المولد الشريف؟

- ١ -

نعم، وماذا بعد حديث المولد النبوي الشريف؟

نريد من المسلم أن يذكر مجد المسلمين وعزتهم وحضارتهم بالميلاد المحمدي العظيم.

ونريد منه أن يذكر السبب في هذا المجد وهذه العزة دائمًا، والا ننسى شيئًا من ذلك أبدًا، نريد منه أن يعرف ان كل خير أصاب المؤمنين فالفضل فيه له ولرسوله الأمين، ولجهاد المسلمين الأولين.

صلابة الرسول في تبليغ الدعوة، وشجاعة المؤمنين به من ورائه.. هما سبب كل شرف ناله المسلمون من قبل ومن بعد.

وحدث ولا حرج عن نضال رسول الله وكفاحه من أجل تبليغ رسالة الله إلى الناس.

أمامنا هذه الصورة للإسلام في أول أمره، وبعد البعثة بقليل، يحدثنا بها الصحابي الجليل أبو نجيح عمرو بن عبسة السلمي، قال:

كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وانهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان..

فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا.. يريد رسول الله ﷺ: ثم يستمر أبو

نجيح في حديثه فيقول: فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه ـ أي على رسول الله فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ مستخفيًا، جرءاء ـ جمع جريء ـ عليه قومه.

فتلطفت: حتى دخلت عليه بمكة

فقلت له: من أنت؟

قال: « ﷺ »: أنا نبي.

قلت: وما نبي؟.

قال: أرسلني الله.

قلت: بأي شيء أرسلك؟

قال: أرسلني بصلة الارحام، وكسر الأوثان، وان يوحد الله، لا يشرك به شيئًا.

قلت: فمن معك على هذا؟

قال: حر وعبد، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال رضي الله عنهما.

قلت: إني متبعك، أي مؤمن بك.

قال: انك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن أرجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني.

قال أبو النجيح: فذهبت إلى أهلي.

وقدم رسول الله المدينة ـ أي بهجرته إليها ـ وكنت في أهلي.

فجعلت أتخبر الأخبار، واسأل الناس، حين قدم المدينة حتى قدم نفر من أهلي المدينة.

فقلت: أي لهم بعد عودتهم في ما فعل هذا الرجل محمد الذي قدم المدينة؟

فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله ـ أي في مكة قبيل الهجرة ـ فلم يستطيعوا ذلك:

فقدمت المدينة، فدخلت عليه.

فقلت: يا رسول الله، أتعرفني.

قال: نعم، أنت لقيتني بمكة.

فقلت: يا رسول الله، أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة.. فأخبره صلوات الله عليه بما أراد ثم قال أبو نجيح لرسول الله: يا نبي الله فالوضوء حدثني عنه فحدثه رسول الله.

وهذا الحديث يشير في أوله إلى بدء ظهور الإسلام، الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الإيمان به سرًا، والذين آمنوا به ـ عدا زوجته خديجة، وابن عمه علي ـ رجلان عبد وحر، أبو بكر وبلال، وقريش جريئة على رسول الله بالإيذاء والتهكم والامعان في الخصومة. ورسول الله حريص على ألا يؤذى أي أحد بسببه، وهو يؤجل أبا نجيح، حتى لا يظهر ايمانه ـ إلى ما بعد ظهور رسول الله، وأبو نجيح مطمئن قلبه بالإسلام سائر في طريقه، فينتظر حتى يظهر الله أمر محمد ﷺ.. حتى كانت الهجرة، وكان قدوم رسول الله إلى المدينة صلوات الله عليه.

صورة لأوليات الإسلام، وما أروعها من صورة.. وهي تشبه صورة أخرى رواها عفيف بن قيس الكندي قال: كنت في الجاهلية عطارًا ـ تاجرًا في العطارة أو في العطر فقدمت مكة فنزلت على العباس ابن عبد المطلب.

فبينما أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء.. أقبل شاب، كأن في وجهه القمر.. حتى رمى ببصره إلى السماء. فنظر إلى الشمس ساعة.

ثم أقبل حتى دنا من الكعبة فصف قدميه حتى يصلي.

فخرج على أثره فتى، فقام عن يمينه.

فجاءت امرأة متلففة في ثيابها فقامت خلفهما.

فأهوى الشاب راكعًا، فركعا معه ثم أهوى إلى الأرض ساجدًا، فسجدا معه فقلت للعباس يا أبا الفضل، أمر عظيم.

فقال: أمر ـ والله ـ عظيم أتدري من هذا الشاب؟

قلت: لا!

قال: هذا ابن أخي محمد بن عبدالله أتدري من هذا الفتى؟

قلت: لا.

قال: هذا ابن أخي، علي ابن أبي طالب.

أتدري: من المرأة؟

قلت: لا.

قال: هذه ابنة خويلد، هذه خديجة، زوج محمد، «ﷺ»، وان محمدًا يذكر ان الهه، اله السماء والأرض، أمره بهذا الدين، فهو عليه كما ترى ويزعم انه نبي.

وقد صدقه على قوله علي ابن عمه هذا الفتى وزوجه خديجة، هذه المرأة.

صورة لأول نشأة الإسلام، كالصورة السابقة وبجهاد رسول الله والمؤمنين بها من أجل تبليغ الدعوة ونشر الرسالة، كان النصر للإسلام، وكانت العزة للمسلمين، وكانت السيادة لله ولرسوله.

وها هو ذا أبو سفيان في رمضان في السنة الثامنة لهجرة رسول الله يقف ليرى جيش محمد، القادم من المدينة، لفتح مكة، وبجواره العباس بن عبد المطلب، ومرت به القبائل بألويتها، كلّما مرت قبيلة، قال: يا عباس، من

هذه؟ فيقول له: سليم، فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم ثم تمر مزينة، ويسأل عنها أبو سفيان العباس بن عبد المطلب فيقول له العباس انها مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى مرت القبائل كلها، ثم مر رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فيقول أبو سفيان: سبحان الله يا عباس!! من هؤلاء؟ فيرد عليه العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.

فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا.

قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة..

قال أبو سفيان: فنعم هذه.

وصدق العباس: انها النبوة.. إنها النبوة، وليست ملكًا ولا سلطانًا ولا دولة.

- ٢ -

أيها المسلم: هذا هو الإسلام، أنت الذي تحمل ناموسه، وتؤدي رسالته، وتبلغ أمانته، وتدعو بدعوته، وتحافظ على شريعته.

هذا هو الإسلام، حق وعدل، يقين وصدق، مسئولية وواجب عمل وعلم، دين ودنيا، التزام وعطاء.

هذا هو الإسلام.. كتاب الله فيه الهدى والنور، والخير للأمة وفيه كل ما أمر به الله عز وجل المسلمين.. وواجب أن نتمسك به ونحافظ على شرائعه..

ولنستمع إلى هذا الحديث الشريف:

انطلق ثلاثة إلى الصحابي الجليل، زيد بن ارقم، فلما جلسوا إليه، قال أحدهم:

لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، رأيت رسول الله « ﷺ »، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه. لقد لقيت يا يزيد خيرًا كثيرًا. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله « ﷺ ».

قال: قام رسول الله « ﷺ » يومًا فينا خطيبًا بين مكة والمدينة فحمدالله، وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: اما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك ان يأتي رسول ربي، فأجيب وأنا تارك فيكم كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به.. ثم قال « ﷺ »: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.

كتاب الله.. حقًّا كتاب الله هو حبل الله المتين، هو هديه المبين، هو ناموسه المنزل من السماء، هو شريعته، ختام شرائع الانبياء، هو الفضائل امرنا بالتزامها، هو الأوامر التي أمرنا بالعمل بها هو الواجبات والمسئوليات فرض علينا أداؤها.. وفيه بيان بكل الرذائل والمعاصي التي امرنا باجتنابها حقًا، إنه كتاب الله العظيم.

كتاب الله الفاصل بين الحلال والحرام، بين الحق والواجب، بين الخير والشر، بين الضلال والهدى، بين الظلام والنور، بين الأمن والخوف، وبين العذاب والثواب، وبين حقوق الله وحقوق العباد.

كتاب الله، المنزل من السماء، على خاتم الأنبياء، صلوات الله عليه، ﴿إنْ هُو إلّا وحيٌ يوحَى﴾[1] ﴿وإنه لَتنزيلُ ربِّ العالمين ★ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ ★ على قلبِك لتكونَ مِن المنذِرينَ ★ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ ★ وإنه لفي زُبُر الأولين﴾[2]

وصدق الله العظيم فيما يقول في كتابه الحكيم: « انه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين ».

---

(١) سورة النجم الآية ٤.

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ـ ١٩٦.

وحق الله على عبده المؤمن ان يطيعه وأن يلتزم باب طاعته، حتى يستوجب من الله جل جلاله المغفرة، وفي الحديث القدسي عن رب العزة عز وجل.

يقول الله عز وجل: « اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، فمن ذكرني وهو مطيع فحق علي ان أذكره مني بمغفرتي، ومن ذكرني وهو لي عاص فحق عليَّ أن أذكره بمقت ».

وفي الحديث القدسي: يقول الله عز وجل: ابن آدم، قم إلي امشي إليك، وأمش إلي أهرول إليك.

ابن آدم، أن دنوت مني شبرًا دنوت منك ذراعًا، وان دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعا.

ابن آدم، ان حدثت نفسك بحسنة فلم تعملها كتبتها لك حسنة.. وإن عملتها كتبتها لك عشرًا.. وإن هممت بسيئة فحجزك عنها هيبتي كتبتها لك حسنة، وإن عملتها كتبتها لك سيئة واحدة.

وفي حديث آخر:

يقول الله ربكم:

« يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي، املأ قلبك غنى، واملأ يديك رزقًا يا ابن آدم، لا تتباعد مني فاملأ قلبك فقرًا، واملأ يديك شغلًا ».

ان المسلم المؤمن عليه أن يؤدي حق الله، وحق العباد، عليه أن يطيع الله فيما أمر به وما نهى عنه، عليه أن يكون من التائبين العابدين، عليه أن يعبد الله حق عبادته، أن يطيعه حق طاعته، ان يلوذ ببابه، وان يرجع إلى جنابه، وألا يفرط في حق الله في شيء.

ليس الإسلام قولًا بل هو فعل، وليس كلامًا بل هو عمل والعمل هو الطاعة، والطاعة التزام باداء الواجبات، وترك الموبقات والسيئات.

وما أحوجنا نحن بعد الميلاد النبوي الشريف أن نعود إلى الله وندعوه بالليل والنهار ، مسائلين الله عز وجل المغفرة والرحمة وقبول التوبة، انه سميع مجيب الدعاء .

في ذكرى الميلاد النبوي

ذكرى الميلاد النبوي الشريد ذكرى خالدة على مرور الأيام، ليست ميلاد فرد، ولا زعيم، ولا ملك.. ولكنها ذكرى ميلاد منقذ الإنسانية، وهادي البشرية، وأكرم الخلق على الله، ﷺ، صلاة وسلامًا دائمين ما دامت الأرض والسموات.

ذكرى تتجدد على مرور الأعوام، ويحتفل بها المسلمون في كل مكان، لأنها ذكرى مشرق النور والهداية، ومطلع شمس الإسلام والسلام.

فمنذ أكثر من خمسين وأربعمئة وألف سنة هجرية، كان ميلاد رسول الله، محمد ﷺ، في البلد الحرام كله، من أبويه القرشيين العظيمين: عبدالله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب.

وهو نسب شريف عريق عظيم، لم يكن لأحد مثله من قبل ولا من بعد. وكان رسول الله ﷺ يقول: أنا أعربكم، أنا قرشي.

وكان زواج عبدالله بآمنة سنة تسع وستين وخمسمئة ميلادية. ومات عبدالله، وآمنة حاملة بأفضل الخلق، وأعظم الرسل. وكان عبدالله قد أقبل من الشام في قافلة تجارية لقريش، فنزل في المدينة عند أخواله من بني النجار، وهو مريض فأقام بها حتى توفي فيها. ومن عجب كذلك أن تموت آمنة بعد زيارتها لأخوال رسول الله في المدينة، حيث دفنت في الأبواء في طريق عودتها بين المدينة ومكة. ورسول الله في السادسة من عمره.

كرامات وبشارات

كان الميلاد النبوي الشريف في مكة ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة، أو لتسع ليال خلت من ربيع الأول سنة سبعين وخسمئة ميلادية، وذلك بعد حادث الفيل بخمسين يومًا.

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب: ان قد ولد لك غلام، فأتى عبد المطلب، فنظر إلى الوليد العظيم، وحدثته آمنة بما رأت من كرامات وبشارات. وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم فدخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم عاد بالوليد فدفعه إلى أمه، وفي اليوم السابع أقام عبد المطلب مأدبة تفوق الوصف.

ونما صلوات الله عليه، فالتمس له جده المرضعات، واختار الله له حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، فكانت هي مرضعته.

حدثت حليمة انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير، ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، يلتمسن الأطفال الصغار ليرضعنهم، وكان ذلك في سنة شهباء، سنة جدب وقحط، لم تبق لها شيئًا. قالت حليمة، فخرجت ومعنا ناقة لنا، والله ما تجود بقطرة من لبن، وما ننام ليلتنا من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، ولا في ضرع الناقة ما يغذيه. ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، وسرنا حتى قدمنا مكة، نلتمس الرضعاء، فما منّا من امرأة، الا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه، إذا قيل لها: انه يتيم. وذلك أنا إنما كنا نرجو الخير من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم، وماذا عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكره أخذه لذلك، فما لقيت امرأة قدمت معي إلا وجدتها قد أخذت رضيعًا، وبقيت وحدي لم آخذ أحدًا.

فلما أجمعنا العودة، قلت لصاحبي: أي زوجي، والله إنّي لأكره أن أرجع بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلأخذنه. قال لها

زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى أن يجعل الله لنا فيه بركة. قالت حليمة: فذهبت إليه فاخذته، وما حملني على ذلك إلا أني لم أجد غيره، ورجعت به إلى رحلي؛ فلما وضعته في حجري جاد ثدياي بما شاءا من اللبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كان أخوه ينام قبل ذلك من بكائه من الجوع.

ثم قام زوجي إلى الناقة فدرت باللبن، فحلب منها ما شاء، وشرب وشربت معه، حتى امتلأنا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، وأصبحنا.. فقال زوجي: اعلمي يا حليمة انك أخذت نسمة مباركة. فقلت له: إني لأرجو ذلك، وخرجنا، وركبت الناقة، وحملت الطفل عليها معي، فسارت بي سيرًا سريعًا، حتى أن صاحباتي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك مهلًا، أليست هذه هي ناقتك التي كنت قد خرجت عليها، فأقول لهن: والله انها لهي هي. فيقلن لي: والله إن لها لشأنًا. وسرنا حتى قدمنا منازلنا من بلاد السعديين وما أعلم ارضا من أرض أجدب منها، وكانت غنمي تعود من المرعى شباعًا بعد قدوم اليتيم إلى بلادنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجد في ضرع ناقة قطرة من لبن، حتى كان القوم يقولون لرعاتهم: ويلكم، أسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتعود أغنامهم من المرعى جياعًا ما تجود بقطرة لبن، وتعود غنمي شباعًا تمتلىء لبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير.. حتى مضت سنتان من حياة اليتيم معنا، وفصلته وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته.

فكلمنا أمه، فقلت لها: لو تركت طفلك عندي وقتًا أطول، فإني أخشى عليه وباء مكة. ولم أزل بها أحسن لها ذلك حتى ردته معنا، فرجعنا به فرحين مستبشرين.

وعادت به حليمة إلى بلادها من أرض السعديين، ترعاه وتربيه..

رافع الرأس إلى السماء

وتقص حليمة قصة جديدة عظيمة لذياك اليتيم العظيم، فتقول:

والله انه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه عبدالله، لفى غنم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذلك أخي القرشي، قد أخذه رجلان، عليهما ثياب بيض، فاضجعاه، فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائمًا ممتقع الوجه، فالتزمته، والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: لقد جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فاضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو، فرجعنا به إلى بيوتنا. وقال لي زوجي: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيهِ باهله، قبل أن يظهر ذلك به، فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، وهو ابن خمس سنين وشهر، فقالت لي أمه: ما أقدمك به يا حليمة؟ وقد كنت حريصة عليه، وعلى بقائه عندك؟

فقلت: نعم، قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي وتخوفنا الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت آمنة لحليمة: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت آمنة: أفتخافين عليه الشيطان؟ قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، والله ان لبنيّ لشأنا، أفلا أخبرك خبره، فقلت بلى. قال: رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وانه لواضع يده بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه منك يا حليمة: وانطلقي راشدة.

إلى يوم الدين

وعن رسول الله ﷺ: استرضعت في بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا، نرعى غنمًا لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، ومعهما طست من ذهب، مملوءة ثلجًا، فأخذاني، فشقا بطني، واستخرجا قلبي، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك

الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه:

زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم. قال:

دعه عنك فلو وزنته بأمته كلها لوزنها.

وحادثة شق الصدر الشريف هذه حدثت مرة ثانية ورسول الله ﷺ في العشرين، ومرة ثالثة عند البعثة، ومرة رابعة عند الإسراء والمعراج.

ويروى أن حليمة السعدية حين رجعت برسول الله إلى مكة بعد فطامه، لقيها نفر من الحبشة من النصارى، فرأوا محمدًا معها، فنظروا اليه، وسألوها عنه، وأخذوا يرمقونه بأبصارهم، ثم قالوا: لنأخذن هذا الغلام معنا إلى بلادنا فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن، نحن نعرف أمره. واحتالت حليمة حتى أخذته من أيديهم، وسارت به مسرعة نحو مكة.

وعاش رسول الله ﷺ مع أمه آمنة وجده عبد المطلب، في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا حسنًا، لما يريد به من كرامته.

صلى الله عليه في الأولين.

وصلى الله عليه في الآخرين.

صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين.

ان هو إلا نبي مرسل

هذا هو رسول الله الذي بعثه الله بالإسلام وبالقرآن، برسالة السماء، إلى الناس كافة، شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله باذنه وسراجًا منيرًا، هذا هو الرسول في طفولته الكريمة.

هذا هو الرسول الذي كافح الشرك والمشركين في مكة ثلاثة عشر عامًا، ثم انتقل إلى المدينة، وفيها عاش بين أصحابه من الأنصار والمهاجرين بنشر رسالة الله، ويحارب أعداء الله، عاش بين المؤمنين به عزيز الجانب، منيع الركن، قويًا في الحق، صلبًا على الأعداء، ومعه رعاية الله وتأييده.

كان عروة بن مسعود الثقفي احد المتفاوضين في صلح الحديبية، ولما عاد من عند رسول الله إلى قومه، قال لهم:

إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا.

وفي فتح مكة قال أبو سفيان للعباس بن عبد المطلب: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا. فرد عليه العباس: يا أبا سفيان، إنه ليس الملك، إنها النبوة.

ولما وفد عدي بن حاتم الطائي إلى المدينة ليسلم بين يدي رسول الله ﷺ، وشاهد من رسول الله ما شاهد، ملكه العجب وقال في نفسه: والله ما هذا بملك إن هو إلّا نبي مرسل. وبادر فأعلن بين يدي رسول الله كلمة الإسلام: أشهد ان لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

السلام والعدل والرحمة

في ذكرى الميلاد النبوي العظيم، نذكر الرسالة المحمدية العظيمة، نذكر عظمة الإسلام وجلاله وسموه، نذكر مبادئ السلام والرحمة والإحسان والعدالة التي دعا إليها وبشر بها رسولنا العظيم..

نذكر قيام عصر جديد من النور والتوحيد والعلم والمعرفة، والإخاء والمساواة والحرية وحقوق الإنسان.. نذكر تعاليم ديننا السمح الكريم، وشريعته الجليلة التي هي الأمان والملاذ للإنسان في الدنيا والآخرة.

نذكر حضارة الإسلام التي استظل بظلها العالم قرونًا وأجيالًا طوالًا، فكانت أعظم وأجل حضارة استظل بها الإنسان على امتداد عصور التاريخ..

نذكر مئات المعارك التي خاضها المسلمون في سبيل الشرف والكرامة والدفاع عن الوطن الإسلامي وعن حريات الشعوب، من بدر الخالدة، إلى معركتنا القريبة، معركة العاشر من رمضان.

نذكر الحروب والمؤامرات والدسائس الخفية والعلنية، التي شنها أعداء الإسلام على ديننا وعلى المؤمنين به، لتقويض سلطانه، ولاطفاء نوره في نفوس المؤمنين به، ﴿يُريدُون لِيُطْفِئُوا نُوْرَ اللهِ بأَفْوَاهِهِم، واللهُ مُتِمٌّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون. هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[1].

ونذكر كذلك ان الحروب لا تزال تعلن على الإسلام في كل ركن من أركان العالم، ومن كل العناصر المعادية للإسلام، من صهيونية وشيوعية وإلحادية واستعمارية ووثنية وغيرها.

تعتبر أوربا ان الإسلام هو الخطر الأكبر عليها، وان كل عمل ضد الإسلام في بلاده هو خط أمان جديد لها في الحاضر والمستقبل. وقد أسهمت أوربا في الدعوة إلى العلمانية في نشرها بين أبناء المسلمين، وبخاصة المثقفين منهم في جامعات الغرب، لعزل الإسلام عن المجتمع، وجعله دين رهبنة فحسب كغيره من الأديان الأخرى، مع انها تحافظ على دينها وتقدّمه وتجله وتحترمه، وهذا منطق يأباه الإسلام لأن مجتمع الغرب غير مجتمع الإسلام، ولأن الاسلام دين يجمع بين العقيدة والحياة، والفكر والعمل، والمادة والروح، والدنيا والآخرة. وليست الحدود والمعاملات والفضائل في الإسلام إلا من صميم حياة المجتمع الإسلامي.

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٣٢، ٣٣.

وكل ذلك مما يزيدنا تصميمًا على أن نعيش مسلمين، ونحيا مسلمين، ونموت مسلمين، وعلى أن يحيا أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا مسلمين حتى يوم الدين.

وذلك أيضًا مما يحفزنا على أن نتسلح بسلاح القوة والعزة والمنعة.

لقد هدم الإسلام المحسوبية، ودعا إلى تحمل المسئولية، والواجب، وحماية العرض والدم والمال، وإلى المساواة الشاملة بين الناس كافة، وفي احترام حقوق الإنسان كاملة، كما دعا إلى تكافؤ الفرص بين الناس كافة، وفي تطبيق هذه المبادئ وغيرها حماية للمجتمع من الانهيار..

مع الحق والتكافل الاجتماعي

وانظروا إلى تعاليم الإسلام السمحة وشرائعه في العدالة والحق والتكافل الاجتماعي.

سرقت امرأة من بني مخزوم، فقالت قريش: من يكلم رسول الله ليضع عنها الحد؟ وقال بعضهم: ومن يجترئ على رسول الله إلا أسامة حب رسول الله؟ فكلّم رسول الله، فقال له الرسول ﷺ:

أتشفع في حد من حدود الله؟!.. ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها!.

ويحث الإسلام على الاستعانة بذوي الكفايات وينهى عن المحاباة في كل شيء حتى في اختيار الموظف.. وهكذا رسول الله صلوات الله عليه يقول: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا، فأمر عليهم أحدًا بمحاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله النار».

ولّى رسول الله ﷺ بلالًا الحبشي على المدينة، وفيها سادات الأنصار

والمهاجرين واسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن.

وقدم على عمر جماعات من المسلمين، فأذن لصهيب وبلال قبل أبي سفيان وسهيل بن عمرو وغيرهما من سادات القرشيين، حتى قال أبو سفيان: لم أر كاليوم، يأذن لهؤلاء ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا؟ فرد عليه سهيل: إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتم، فاسرعوا وأبطأتم.

وشكا يهودي علي بن أبي طالب في خصومة لخليفة المسلمين عمر، فأحضرهما عمر في مجلسه، وقال لعلي: قف يا أبا الحسن بجانب خصمك، فبدأ التأثر على وجه علي، فقال له عمر: أكرهت يا علي ان تقف إلى جانب خصمك، قال: لا يا أمير المؤمنين ولكني رأيتك لم تسو بيني وبينه، إذ عظمتني بالكنية ولم تكنه.

صلاح الإنسانية في الإسلام

هذا هو الإسلام وشريعته في العدالة والمساواة، حتى لقد قال مفكر غربي مثل برناردشو: لا بد أن تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الإسلامية في نهاية هذا القرن، ولو ان محمدًا بعث في هذا العصر لقاد العالم إلى السعادة والسلام المنشودين.

حتى لقد قال جوتة شاعر الألمان الكبير: إن كان هذا هو الإسلام فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين.

وقال مستشرق غربي: إن كان الإسلام هو هذا أفلا نكون جميعًا مسلمين؟

ويقول اقبال شاعر الإسلام: انك أيها المسلم في العالم كله حق وحدك، وما عداك فهو سراب خادع ووهم باطل.

ويقول المودودي: ان فلاح الإنسانية وصلاحها في المستقبل في أن تؤمن بالإسلام.

وإذا كانت ورقة اكتوبر تقول: إن الهدف أن يكون شعار دولة العلم والإيمان حقيقة وليس مجرد كلمة.. أفلا يعني ذلك أن نبدأ بالتطبيق لشريعة الله؟! ان حضارة الغرب قد مثلت دورها وشاخت وهرمت، وسوف ينهار العالم الذي يقوم على أركانها المتداعية، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمدًا وإبراهيم قيادة العالم، كما يقول اقبال.

ويعترف مفكر غربي هو غوستاف لوبون بأن سبب انحطاط الشرق الإسلامي هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة.

وحقًا، ما تأخر الشرق الإسلامي إلا بعد ان تكالب العالم على الإسلام وعلى المسلمين، وعمل على استعباد المسلمين، واستعمار بلاد الإسلام. ولكن اليقظة بدأت، ومجد الإسلام عاد، ولا بد أن ترتفع راياته محلقة في كل مكان باذن الله.

وفي هذه الذكرى العاطرة نرفع إلى الله عز وجل أكف الضراعة أن يحفظ وطننا العزيز والوطن الإسلامي كافة، وأن يعزنا بالحق ويعز الحق بنا، وأن يجمع شمل العالم العربي والأمة الإسلامية على كلمة الحق والإيمان والخير، انه المأمول، ولا مأمول سواه وما توفيقنا إلا بالله.

ليلة النصف من شعبان

ليلة مباركة مأثورة من ليالي العام المباركات الطيبات، يلتقي فيها المسلمون على الخير، ويجتمعون فيها على العبادة، ويتجهون فيها بقلوبهم وأرواحهم وكل مشاعرهم إلى الله عز وجل خالق الأمم، وبارئ النسم ومدبر الأمر، وعالم السر والجهر.

قيل إنها الليلة التي نجى الله فيها موسى من فرعون وكيده، وقيل انها الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، ومن ثم كان بعض المفسرين يجعلون قوله تعالى من سورة الدخان ﴿إنَّا أنزلناهُ في ليلةٍ مبارَكة ★ إنَّا كنَّا منذرينَ ★ فيها يُفْرقُ كلُّ أمرٍ حكيمٍ ★ أمرًا من عندِنَا إنَّا كنَّا مُرسِلينَ ★ رحمةً مِن ربِّك إنَّه هُو السميعُ العليمُ﴾[1] - إشارة إلى ليلة النصف من شعبان، وأن نزول القرآن فيها، إنما هو حمل جبريل له من العرش العظيم إلى السماء الأولى إعدادًا لنزول الوحي على محمد ﷺ، ولنزول آيات الكتاب الحكمي بالرسالة إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين.

(١) سورة الدخان الآيات ٣ ـ ٦.

بالصدقات وفعل الخيرات

وقيل هي الليلة التي يقدر الله عز وجل فيها أمر السنة كلها، فيمحو ما يشاء ويثبت، إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فذلك ثابت لا يغير، وجاء في ذلك روايات مختلفة، وعند الله أم الكتاب، وهو أصل الكتاب أو جملته، أو هو اللوح المحفوظ، أو هو الذكر، أو هو القضاء المقدر الثابت، فأصل المثبت منه والممحو وجملته في كتاب لديه عز وجل، ويجعلون قوله تعالى: ﴿يمحُو اللهُ ما يشاءُ ويثبتُ، وعندَهُ أمُّ الكتابِ﴾[1].

إشارة إلى ذلك، ومن ثم ورد في الدعاء المشهور المأثور المختلف في أمره: «اللهم ان كنت كتبتني عندك في أمّ الكتاب شقيا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقترًا في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني وطردي واقتار رزقي واجعلني عندك في أم الكتاب سعيدًا مرزوقًا موفقًا إلى الخيرات، وهذا كله رأي لا يستقيم، وتأويل لا نرجحه.

وقد ورد في فضل ليلة النصف من شعبان أحاديث مأثورة، كلها تجمع على فضل الليلة وبركتها وجلالها، ومن ثم اعتاد المسلمون منذ القديم على الاحتفال بها، والتقرب إلى الله بالعبادة فيها، وبالصدقات وفعل الخيرات.

وما أسعد المسلمين، بأن يجعلوا أيامهم ولياليهم أعيادًا يحتفلون بها، ويتقربون إلى الله فيها، ويعكفون على العبادة في جميع لحظاتها، ويتهجدون فيها بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن الكريم.

شطر المسجد الحرام

على أنني لا أستريح إلى جعل ذلك كله هو السبب الأول لعظمة ليلة النصف من شعبان، ولفضلها المأثور عند الله والملائكة والناس.

---

(١) سورة الرعد آية ٣٩.

وأرى أنها الليلة التي حولت القبلة فيها إلى الكعبة الطاهرة.

ففي النصف من شعبان من السنة الثانية للهجرة المباركة، حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يحولون وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس، وبعد الهجرة أخذ الرسول الكريم يتطلع ببصره إلى السماء، ويستشرف بوجهه وهو في مدينة رسول الله إلى الكعبة المباركة وقد صلى بعض الصحابة نحوها، فأمر رسول الله بأن يبقى الأمر كما كان حتى ينزل وحي من السماء.

ونزل وحي الله في شهر شعبان على رأس سبعة عشر شهرًا من هجرة رسول الله إلى المدينة فأمر رسول الله المسلمين بأن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في الصلاة.

وجاء رسول الله جماعة من اليهود، منهم رفاعة بن قيس، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والربيع بن الربيع وغيرهم فقالوا لرسول الله ﷺ:

يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وإنك تزعم انك على ملة إبراهيم ودينه، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، فنزلت الآيات المباركات من سورة البقرة:

﴿سيقولُ السفهاءُ مِنَ الناسِ: ما ولَّاهُمْ عن قِبْلَتِهِمْ التي كانوا علَيْها؟ قل: للهِ المشرقُ والمَغْرِبُ، يهدي مَنْ يَشَاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾[1] إلى آخر هذه الآيات.

لقد كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلى بيت المقدس وكانت صخرة المسجد الأقصى المعروفة هي قبلتهم، وصلى رسولنا الكريم والمسلمون إليها زمنًا، منذ فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج إلى ما بعد الهجرة بوقت،

(١) سورة البقرة آية ١٤٢.

وكان النبي ﷺ يتشوف إلى استقبال الكعبة، ويتمنى لو حول الله القبلة إليها وكان وهو في مكة يجمع بين استقبالها واستقبال الصخرة، فيصلي في مكة في جهة الجنوب مستقبلًا للشمال، فلما هاجر منها إلى المدينة تعذر هذا الجمع، فتوجه إلى الله عز وجل بأن يجعل الكعبة هي القبلة، فأمر الله بذلك فصلّى إليها، فكان ذلك ايذانًا بظهور القومية الإسلامية، والوطن الإسلامي وكان الإسلام آنذاك قد بدأت تتكون له دولة، وصاحب هذا التكوين اتخاذ الكعبة قبلة عامة للمسلمين، فكان لذلك دلالته الكبيرة الواضحة على ظهور الشخصية الإسلامية واستقلالها.

والقبلة هي المكان الذي يتوجه إليه الإنسان المتعبد لله في صلاته ويولي وجهه نحوه، ويستقبله في مناجاته لمولاه الخالق الأعظم.

لقد أثار اليهود والمنافقون وأعداء الإسلام حين تحويل القبلة إلى المسجد الحرام الكثير من الشكوك والأوهام.

فقال أهل الكتاب: ان محمدًا ليس على بينة من ربه، لأنه غيَّر قبلته، ولو كان هو الذي أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نهاه عنه ثانيًا، ولما صرفه عن قبلة الأنبياء. وقال المنافقون: ان محمدًا صلى أولًا إلى بيت المقدس استمالة لأهل الكتاب، ومزايدة لهم، ثم غلب عليه حب وطنه وتعظيمه، فعاد إلى استقبال الكعبة، لذلك كان رد الله عز وجل عليهم ردًا مفحمًا فوصفهم بالسفهاء، وقال لهم: وما العجب من تحويل القبلة، ولله المشرق والمغرب، ووصف المسلمين بأنهم أمة وسط.

وقيل ان رسول الله ﷺ أمر بعد فرض الصلاة بالتوجه نحو الكعبة، فكان النبي ﷺ والمسلمون يصلون إليها، فلما هاجر صلوات الله عليه إلى المدينة أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس تألفًا لليهود، فصلى إليها ستة أو سبعة عشر شهرًا، ثم حول إلى الكعبة.

وورد أن حيي بن أخطب اليهودي وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين بعد

تحويل القبلة: اخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس، ان كانت هدى فلم تحولتم عنها، وإن كانت ضلالة فقد عبدتم الله بها، ومن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون لهم: ان الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه، قالوا: فما أشهادكم على من مات منكم على قبلتنا، وكان قد مات قبل أن تحول القبلة من المسلمين اسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن معرور من بني سلمة، وكان من النقباء ورجال آخرون فانطلقت عشائرهم إلى رسول الله، وقالوا: يا رسول الله لقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس. فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان اللهُ لِيَضِيْعَ إيمانَكُم إنَّ اللهَ بالناسِ لَرؤُوْفٌ رَحِيْم﴾[1]، أي وما كان الله ليضيع إيمان من مات منكم وهو يتعبد لله ويولي وجهه شطر المسجد الأقصى.

أنت كريم على ربك

وكان تشوف الرسول الأكرم صلوات الله عليه إلى الكعبة، وإلى تحويل القبلة إليها من بيت المقدس، لأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم، والتوجه إليها ادعى إلى إيمان العرب، الذين عليهم المعول في ظهور هذا الدين وحمل رسالته إلى الناس كافة، ويؤثر ان رسول الله قال لجبريل عليه السلام: وددت لو حولني الله إلى الكعبة فإنها قبلة أبي إبراهيم، فقال جبريل: «إنما أنا عبد مثلك، وأنت كريم على ربك، فسل أنت ربك، فإنك عند الله بمكان» فعرج جبريل، وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء، رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فنزل قوله تعالى:

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرَامِ، وحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وَجوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الكتابَ

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣.

﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وكانت الآية قد نزلت والرسول وأصحابه يصلون الظهر في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة، وولّى وجهه شطر المسجد الحرام، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمي المسجد مسجد القبلتين.

ولكن البخاري روى عن ابن عمر انه قال: بينما الناس يصلون في صلاة الصبح إذ أتاهم آت من بني سلمة فقال: ان النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة في القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة..

ولما تحولت القبلة قالت اليهود ما هو إلا شيء يبتدعه محمد من تلقاء نفسه، فتارة يصلي إلى بيت المقدس، وتارة إلى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره، فأنزل الله تعالى: ﴿وإنَّ الَّذِينَ أوتُوا الكتابَ ليَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وما اللهُ بغافِلٍ عَمَّا تعمَلُونَ﴾[2] بالتاء على أن الخطاب للمؤمنين.

ان تحويل القبلة في النصف من شعبان من السنة الثانية للهجرة النبوية الخالدة، ليحمل في طياته أعظم المعاني، وأكبر الدلالات فهو يشير إلى أن الإسلام رسالة من السماء كرسالات السابقين من الرسل والأنبياء، وهو كذلك يشير إلى قومية المسلمين، وإلى وضوح شخصيتهم، وظهور كيانهم، وأنهم أمة وسط، لا ينتمون لأحد إلا لله ولا يميلون مع إنسان إنما يميلون مع الشريعة والكتاب والوحي، وهم كما يأمرهم الله عزَّ وجل طائعون عابدون حامدون قانتون.

ومن ثم فان تحويل القبلة، ووضوح الشخصية الإسلامية بهذا التحويل..

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٤.

فيها المعاني الكبيرة الدالة على أن الله عز وجل هو منزل الرسالة، والموحي بالوحي إلى خاتم رسله، وأكرم أنبيائه وأن المسلمين ورسولهم الكريم مأمورون، وعليهم أن يطيعوا ويمتثلوا، ويعملوا بما أمرهم الله عز وجل به، وان رسولنا الأكرم هو الذي عظم شريعة أبيه إبراهيم، رسول الحنيفية البيضاء.

لذلك كان جديرًا بالمسلمين ان يحتفلوا بالليلة المباركة التي تم في يومها تحويل القبلة إلى الكعبة المطهرة، بيت أبيهم إبراهيم، ولقد كتب بعض الباحثين يقول: ان الكعبة هي المركز الوسط في الدنيا كلها، شرقيها وغربيها وشماليها وجنوبيها، فهي القطب الذي تدور من حوله كل الجهات والأماكن والأمصار.

وما أجل ذلك وأعظمه، لو كان أعداء الإسلام يعقلون، ولو كانوا يتدبرون.

دعاء بالسداد والرشاد

وفي هذه الليلة المباركة نتجه إلى الله بقلوبنا وأرواحنا، ونضرع إليه بأفئدتنا وكل مشاعرنا وابتهالاتنا أن يعز الإسلام بأهله، وينصر المسلمين بدينهم العظيم، وأن يمنحهم التقوى، ويهبهم السداد والرشاد، ويجمع قلوبهم على كلمة الله، ويبصرهم بما أمر الله به من الوحدة والتآلف والأخاء والتواد.

وإني لاهيب بالمسلمين في كل مكان أن يرأبوا الصدع، ويجمعوا الشمل، ويؤلفوا بين القلوب المتنافرة، وأن يتواصوا بالحق والصبر، وأن يجعلوا القرآن دستورهم الذي يعوذون به، وناموسهم الذي يلوذن إليه. إنه سميع مجيب الدعاء.

رمضان شهر الجهاد

ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي ﷺ قال: الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الايمان، ويقول الله عز وجل: ﴿إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُمْ بغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

والصبر ثلاثة ألوان: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. وتجتمع هذه الأقسام الثلاثة في الصوم، فإن فيه صبرًا على طاعة الله، وصبرًا عما حرم الله على الصائم من الشهوات وصبرًا على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن: وهذا الألم الناشئ من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه. وقد قال الله عز وجل في عبادة المؤمنين:

﴿ذلكَ بأنَّهم لا يُصِيبُهُم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ، ولا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ، ولا يَنَالُون مِن عَدُوٍّ نَيْلًا، إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عملٌ صالحٌ، إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجر المُحْسِنِينَ﴾[2].

ولهذا كله سمى رسول الله ﷺ شهر رمضان شهر الصبر. وعن أبي هريرة

---

(١) سورة الزمر آية ١٠.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٠.

رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: « كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي ». والصيام نصف الصبر، وفي حديث سلمان المرفوع اخرجه ابن خزيمة في صحيحه في فضل شهر رمضان: « هو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة ». وفي الطبراني عن أبي عمر مرفوعًا: الصيام لله، لا يعلم الصائم ثواب عمله إلا الله عز وجل. وورد في حديث آخر: ان عمل الصائم مضاعف ».

والصيام هو الفريضة التي فرضها الله عز وجل على عباده وجعلها أحد أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها. ومعنى ان الصيام لله عز وجل انه لا سبيل لصائم ان يأخذ أجره على الصيام من أحد، بل أجره مدخر لصاحبه عند الله عز وجل. وخص الله عز وجل الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال والعبادات، لأن الصيام هو ترك حظوظ النفس وشهواتها وملذاتها التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام، فإذا اشتدت رغبة النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركته لله عز وجل، في مكان لا يطلع عليه إلا الله، كان ذلك دليلًا على صدق الإيمان وشدة مراقبة الله عز وجل، فإن الصائم يعلم ان له ربا يطلع عليه في خلوته، وهو يرى ان رضا مولاه في ترك شهواته، فقدم رضا مولاه على هواه، فصارت لذته في ترك شهواته لله، لايمانه بان الله مطلع عليه في السر والعلن، وتصبح لذته في مصابرة نفسه.

فالصيام سر بين العبد وربه، لا يطلع عليه غير الله، فمن ترك ما تدعوه نفسه إليه، ايثارًا لرضاء الله عز وجل فهو بمكان عظيم من صدق العقيدة، وقوة العزيمة وشدة المراقبة للمولى الحكيم الخبير العليم.

شهر الجهاد:

ومن أجل ذلك كله كان شهر رمضان شهر الجهاد حقًا، الجهاد للنفس وللشهوات ولمتع الحياة وملذاتها، والجهاد في طلب رضاء الله ورحمته ومغفرته

وثوابه وجنته.

ثم ان شهر رمضان شهر القيام والعبادة والاجتهاد في الطاعة، وذلك أيضًا جهاد في سبيل الله وسبيل الخير، وفي حديث رسول الله: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه أحمد واصحاب السنن وفي الحديث الشريف: من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه. ويقول رسول الله صلوات الله عليه: «ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

وفي الصوم: الصبر والذكر والرضا، والزهد، والطاعة، واليقين، وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي والعلم سلاحي، والصبر دائي، والرحمة غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قولي، والصدق شفيعي والطاعة حسبي، والجهاد خلقي».

الصدقة والاحسان:

وفي رمضان يندب الإحسان والصدقة وإخراج الزكاة للفقراء. والمال بشق النفس وبذله من أجل مرضاة الله وثوابه ورضائه جهاد النفس ولشهوة جمع المال.

وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وفي الصيام كف البطن والجسم عن قضاء الشهوة. وكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وذلك جهاد للنفس في سبيل مرضاة الله.

وعن عبيد بن عمير قال:

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء، من كل سنة شهرًا، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج إلى حراء، كما كان يخرج لجواره، معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل من الله عز وجل. ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه، وهو أشرف الكتب وأفضلها وهو يحث على الاحسان ومكارم الأخلاق. وقد كان لرسول الله ﷺ هذا الكتاب خلقًا، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع عما زجر عنه، ويتضاعف جوده وإحسانه في هذا الشهر، لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب العظيم المنزل من السماء، والذي يحث على المكارم والجود.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعًا: أفضل الصدقة صدقة في رمضان.

وفي حديث سلمان مرفوعًا في فضائل شهر رمضان قال: وهو شهر المواساة وشهر يزاد فيه في رزق المؤمن، من فطَّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، ومن أشبع فيه صائمًا سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة.

وعن النبي ﷺ: إنما يرحم الله من عباده الرحماء.

ما أكرم رمضان وما أجل شهر الجهاد وشهر الصبر وشهر الرحمة وشهر الإحسان.

ولا ننسى ان رمضان قد شهد الكثير من بطولات المسلمين وانتصاراتهم في مختلف العصور ، وأمامنا غزوة بدر في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وما ناله المسلمون فيها من نصر خالد ، وهي أمر معروف، وأمامنا فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة.

وأمامنا ألوان كثيرة من الجهاد في رمضان على مختلف العصور وقد كتب الله دائمًا في رمضان للمسلمين النصر والعزة والشرف والبطولة وحسن العاقبة.

والسلام على من اتبع الهدى.

رمضان هل نعرف قدره؟

رمضان.. يا له من شهر عظيم كريم، جليل، إنه الشهر الذي نزلت فيه الرسالة السماوية على سيد الأنبياء، وخاتم المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه أجمعين.. الشهر المبارك الذي نزل فيه القرآن الكريم من السماء إلى الأرض، على خير الخلق، وأفضل من أظلتهم السموات.

الليل، والصحراء وغار حراء، وصوت سلسبيل يتردد في جوف الغار بابتهالات وتسابيح وصلوات. وفجأة تنشق السماء، ويهبط منها ملك كريم، يقف في الغار وينادي: يا محمد اقرأ، ويجيبه صاحب الغار: ما أنا بقارئ، فيضمه الملك إلى صدره بقوة، ثم يرسله، ويعرض أمام عينيه صحيفة الوحي، وهو يقول: يا محمد اقرأ: فيرد عليه: ماذا أقرأ؟ فيقول الملك له: ﴿اقرأْ باسم ربِّك الذي خلق ★ خلق الإنسان من علق ★ اقرأْ وربُّكَ الأكرَم ★ الذي علَّم بالقلمِ ★ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾[1]، وقرأ محمد من بعده الآيات البينات.

وانصرف الملك، وخرج محمد من الغار مبهورًا، فسمع صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، ويفسر ورقة بن نوفل ذلك فيقول لمحمد: «والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك

(١) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥.

الناموس الذي جاء موسى».

وكان ذلك أعظم اعلان إلهي بامجد رسالة سماوية نزلت إلى الأرض، وهي خاتمة رسالات السماء.

انها ليلة شماء، خالدة في تاريخ الإنسانية، ليلة السابع عشر من رمضان من العام الثالث عشر قبل الهجرة النبوية الكريمة، وتوافق ٦ أغسطس من عام ٦١٠ ميلادية، وهي الليلة التي شهدت وشهد شهر رمضان معها مولد أعظم رسالة على أكرم رسول.

ووصفها الله عز وجل فقال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * وَفِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينْ * رحمةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[2].

حقيقة إنسانية رفيعة

ولقد كرم الله رمضان بهذه الليلة العظيمة، وبتلك الرسالة الرفيعة، رسالة الإسلام الكريم، أعظم تكريم وأجل تبجيل وتعظيم.. فرض الله عز وجل فيه الصيام، وسنَّ فيه القيام، وشرع فيه الزكاة، ودعا فيه إلى العبادة والتهجد والإحسان، وختمه بالعيد لمبارك، مظهـرًا نبيلًا لـوحـدة مشـاعـر المسلمين والوطن الإسلامي، وحقيقة إنسانية رفيعة تجمع المسلمين على الحب والرحمة والصفاء.

إن الإسلام في حقيقته وجوهره هو الفطرة الإنسانية النبيلة الكاملة في الإنسان، وهذا (ايزوالد ويرث) الانجليزي يقول: «انني تبينت أنني أدين بدين الإسلام دون شعور مني بذلك» ويقول المستشرق جرت: «إذا كان

---

(١) سورة القدر الآية ١.

(٢) سورة الدخان الآيات ٣ ـ ٦.

الإسلام هو هذا أفلا نكون جميعًا مسلمين؟»

لقد حفظ القرآن الكريم شريعة الإسلام نحو ألف وأربعمائة سنة، وهو الحافظ لها إلى الأبد وحتى تقوم الساعة باذن الله، ومهما تكالبت على الإسلام شياطين الأنس، فلن يضيره ذلك أبدًا، ولا خوف عليه بحال من الأحوال، مهما أجمعت على حربه قوى الالحاد والوثنية والشرك والبهتان والعدوان المعاصرة.. هذه القوى التي تتآمر على الإسلام والمسلمين اليوم في كل مكان، وتعمل من أجل إخراجهم من الإسلام. وتصفيتهم روحيًا وفكريًا وجسديًا، ولكن الإسلام باق في الأرض بحفظ الله وعونه ورعايته، والله عز وجل يقول في كتابه الحكيم في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ ويَأبى الله إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ★ هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[1]. ويقول عز وجل كذلك في سورة الصف مؤكدًا لهذه الحقيقة الإسلامية: ﴿يريدون لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ★ هُوَ الذي أَرسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٣٣ و٣٤.

(٢) سورة الصف الآيتان ٨ و٩.

رمضان في موكبه الروحي العظيم

.. وجاء رمضان في موكبه الروحي العظيم، في جلاله وجماله وصفائه، وبهائه، في بعثه وايقاظه للمسلمين الذين انصرفوا عن روح الإسلام وجوهره النفيس الثمين، في أخذه بيد المسلمين جميعًا إلى الحب والإخاء والتعاون والتضامن والتكافل الإسلامي الشامخ..

في عزته وعظمته وخيره وسحره وسلطانه الكبير على الأرواح والنفوس الخالصة في توحيدها لله رب العالمين.

.. وجاء رمضان مذكرًا بالله، وداعيًا إلى قيم السماء، ومبشرًا برسالة القرآن، التي بشر بها سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وجاء رمضان يتهادى في مسيرته الصالحة الهادية بين آفاق العالم الإسلامي داعيًا إلى كل مثل رفيع وخلق جميل، وأدب نبيل، وفكر إسلامي جليل..

وجاء رمضان شهرًا عظيمًا مذكرًا بقيم الإسلام وآدابه وأخلاقه ومثله وشرائعه وعبادته ومثالياته وكمالياته، ليتبعها المسلمون وليعملوا بها، وليبنوا على أساسها صرح حياتهم وسلوكهم وعملهم.

وما أجل وأعظم، وما أعز وأكرم، وما أروع رمضان، ايامًا وليالي،

وساعات ولحظات صافية حالمة مذكرة دائمًا وأبدًا بكل جليل وعظيم من شئون الدين والدنيا، والأولى والآخرة ومن أمور العبادة والتقوى والعمل الصالح.

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين.

وفي الحديث الشريف ـ أخرجه البيهقي من حديث طويل:

« ان الجنة لتزخرف وتزين من الحول إلى الحول لدخول رمضان، فتقول الحور: يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك ما تقر أعيننا بهم وتقر أعينهم بها »

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء، واغلقت أبواب جهنم. ولمسلم: « فتحت أبواب الرحمة ».

وفي شهر رمضان كان نزول الكتب السماوية من السماء على الأنبياء، وفي مقدمتها القرآن الكريم، ورد حديث واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ.

« نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان: وانزلت التوراة لست مضين من رمضان، وانزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وانزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان ».

وقد قيل ان ابتداء نبوة النبي ﷺ كان في سابع عشر من رمضان.

قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نزل جبريل على رسول الله ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بحراء برسالة الله عز وجل يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان.

ولما قدم رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة في ربيع الأول في أول سنة

من سني الهجرة، لم يفرض علينا صيام رمضان في ذلك العام، ثم صام عاشوراء، وفرض عليه صوم رمضان في ثاني سنة، فهو أول رمضان صامه، وصامه المسلمون معه، وكان ذلك اتباعًا لقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ وبيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(١).

وإذا كان شهر رمضان هو الذي أنزل فيه القرآن، وكان نزول القرآن في ليلة القدر فان ليلة القدر إذن هي في رمضان، يقول الله تعالى: ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ﴾(٢)، ويقول الله عز وجل: ﴿إنَّا أنْزَلْنَاهُ في ليلةٍ مُبارَكةٍ، إنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ★ وفِيهَا يُفْرَقُ كلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ★ أَمْرًا مِنْ عِنْدنا إنَّا كنَّا مُرْسِلِينَ ★ رحمةً مِن رَبِّكَ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(٣).

ونزول القرآن في رمضان على رسول الله ﷺ ايذان بالبعث والرسالة والإسلام، وبشرف الأمانة، وجلال الغاية، وعظمة المطلب، وسمو المأمول.

وفي حديث شريف ان ناسًا من الصحابة كانوا في المسجد، أي مسجد رسول الله ﷺ، فسمعوا كلامًا من السماء، ورأوا نورًا من السماء، فأخبروا رسول الله ﷺ بما رأوا، فقال رسول الله ﷺ: اما النور فنور رب العزة تعالى، واما الباب فباب السماء، والكلام كلام الأنبياء، فكل شهر رمضان على هذه الحال، ولكن هذه الليلة كشف غطاؤها.

وفي الحديث الشريف للترمذي وابن ماجة عن النبي صلوات الله عليه: إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين، ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر.

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٢) سورة القدر الآية ١.

(٣) سورة الدخان الآيات ٣ ـ ٦.

رمضان، هكذا هو رمضان شهر خير وبركة، ورحمة ومغفرة وثواب ورضاء، ونور وظلال وطهر وجمال، شهر نزل فيه القرآن، وما أعظمه كتابًا سماويًا خالدًا أبد الآباد، باقيًا على طول العصور والأجيال.

ومن أجل نزول الرسالة العظمى فيه، بنزول القرآن الكريم فيه، أمر الله عز وجل بصيام نهاره، وندب رسول الله ﷺ المسلمين لقيام ليله.

وفي الحديث الشريف كما ورد في الصحيحين عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال:

من صام رمضان ايمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

وورد كذلك عن أبي هريرة من صام رمضان ايمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، وللنسائي رواية: من صام رمضان ايمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. وورد كذلك: ومن قام ليلة القدر ايمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

وفي حديث أبي جعفر الباقر المرسل: «من أتى عليه رمضان فصام نهاره، وصلى وردًا من ليله، وغض بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة وبكر إلى جميعه لقد صام الشهر، واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب».. وما أعظم جائزة الرب.. قال أبو جعفر: جائزة لا تشبه جوائز الأمراء.

ان فريضة صيام رمضان ركن من أركان الإسلام، وهذه الفريضة إنما شرعت تكريمًا لهذا الشهر الكريم، وتعظيمًا لذلك القادم العظيم، وتوفيرًا لذلك الضيف البر الرحيم.

ولقد كان فرح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بشهر رمضان عظيمًا، ورد في الحديث الشريف عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه ان النبي ﷺ كان إذا رأى هلال رمضان قال: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة

والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربي وربك الله.

ومن رافع بن خديج قال: كان رسول الله، ﷺ إذا رأى هلال رمضان قال: هلال خير ثلاثا، ثم قال: اللهم إني أسألك من خير هذا الشهر، وأعوذ بك من شره ثلاث مرات.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ، أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فالرسول ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسل، أخرجه الامام أحمد بزيادة في آخره، وهي: «لا يسأل عن شيء إلا أعطاه».

وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ عن رب العزة تعالى:

يا عبادي، لو ان أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل منكم، ما نقص ذلك من ملكي، إلا كما لو ان أحدكم مر بالبحر، فغمس فيه ابرة، ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد واحد ماجد، افعل ما أريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، انما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له: كن فيكون.

وفي حديث انس مرفوعا عن رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بالأجود الأجود، ان الأجود الأجود، وأنا أجود بني آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله.

وفي الصحيحين عن انس، قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس.

وماذا نقول في رمضان، وفي فضائل رمضان، وهو الضيف الكريم، والشهر

الجليل، موسم الخيرات، ومهرجان العبادات، ومجمع الطاعات ومسرح الصالحات.

ماذا نقول في شهر نزول القرآن، ونزول رسالة الله إلى سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى اله وصحبه أجمعين!

وماذا نقول في شهر، فيه ليلة القدر، وهي « خير من ألف شهر؟ »

وماذا نقول في شهر أمرنا فيه بصيام نهاره، وقيام ليله، وبعمل الخير، وبذل الندى، واعطاء المعروف، وبالصدقة والاحسان إلى كل محتاج!

وماذا نقول في شهر أمرنا فيه بالاعتكاف في العشر الأواخر منه، تعبدًا لله وقربى، وطاعة ومثوبة! وفي حديث أنس: « كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان طوى فراشه واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحورًا ».

وماذا نقول في شهر أمرنا فيه بالتمجد والعبادة، وعمل الطاعات، وفعل الصالحات. وصلة القرابات وعمل القربات؟

وماذا نقول في شهر قال فيه رسول الله ﷺ، كما ورد في حديث أبي هريرة:

أعطيت امتي خمس خصال في رمضان، لم يعطها أمة غيرهم:

- خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

- وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا.

- ويزين الله كل يوم جنته ويقول: يوشك عبادي أن يكفوا عنهم المؤنة والأذى، ويصيروا اليك.

- ويصفد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره.

- ويغفر لهم في آخر ليلة فيه.. فقيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر.

قال: لا ، ولكن العامل إنما يوفي أجره إذا قضى عمله.

ما أعظمك يا أيها الشهر الجليل، العظيم، النبيل، الكريم، عند الله والناس..

ما أروعك وأنت تأتي ضيفًا على المسلمين، فتجمع قلوبهم على الخير، ونفوسهم على التقوى وأرواحهم على العبادة والطاعة، وصفوفهم على الوحدة والصفاء والأخاء.

ما أجلك قادمًا: يجتمع فيه كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على أعمال واحدة، على عبادات واحدة، على نية واحدة، على عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق واحدة.

ما أحبك إلى قلوب الصغار والكبار، الفقراء والأغنياء، فانت تسع الجميع بفضلك وكرمك، وبرك العميم، ونداك العظيم.

انت يا رمضان الحبيب شهر انتصار الإنسان إرادة الإنسان في سبيل الخير والشرف والكرامة والطاعة، وانتصار عقل الإنسان وقلبه وروحه على كل وساوس الشيطان وغواياته وضلالاته.

شهر انتصار الخير على الشر.

شهر انتصار الايمان على الكفر.

شهر بدر، وشهر فتح مكة، وما أدراك ما هما في أيام الإسلام العظيمة الخالدة.

شهر النصر على الأعداء، انتصار الإسلام على خصومه من المشركين والجاحدين والضالين.

شهر كله ذكريات خالدة، وأيام ماجدة، وانتصارات باهرة وطاعات لله ولرسوله الكريم.

اللهم إجعل هذا الشهر شهر خير شامل على الإسلام والمسلمين وشهر عزة وقوة ووحدة وتآلف بين جميع المؤمنين، وصلى الله على النبي الهادي البشير النذير، وعلى اله وصحبه أجمعين.

حتى تقوم الساعة

وبعد شهور قلائل يحتفل المسلمون بنهاية القرن الرابع عشر الهجري، وبمطلع القرن الخامس عشر.. ولعلهم في ذلك يصممون على معرفة قدر دينهم ومنزلته في النفوس، وفي العالم وفي تاريخ الإنسانية، وبين الديانات السماوية الأخرى، التي تسالم اليوم الوثنيين والملحدين في كل مكان، وتفرد الإسلام والمسلمين بعداوتها وحربها الضارية.. إنه لا ضير على الإسلام فهو صامد منذ نزول الرسالة حتى اليوم. وسيظل صامدًا قويًا حتى تقوم الساعة.. ونحن مع توفيق الحكيم، وهو يقول:

« إنه لا خوف على الدين، ولا ينبغي ان نأخذ الدين على أنه مفسر لمعارف وعلوم، بل على أنه درجة حرارة روحية لازمة لصحة الإنسان. وإذا كان البعض يستطيع أن يعيش بغير دين، غير شاعر بأنه قد فقد شيئًا فالحقيقة انه كإنسان قد فقد شيئًا، كان معه شيء وفقده، ومن مميزات الدين عند الإنسان أنه هو الصوت الداخلي الذي يحكم سلوك الأفراد، من حيث ان القانون الوضعي يحكم السلوك الخارجي، وليست له سلطة على النفوذ إلى داخل الإنسانية ».

والصبر ثوابه الجنة

رمضان هذا الشهر العظيم الكريم:

شهر القرآن والايمان والإسلام، ومن أجل نزول الرسالة المحمدية فيه، فرض صوم نهاره وشرع قيام لياليه بالعبادة والتهجد، وسن الإحسان فيه إلى الفقراء، إنه ملاذ الفقير والمسكين، وعيد اليتيم والمحروم، وموسم الخير العميم.

بسمة الزمن، وفرحة الغريب بلقاء الوطن.

شهر كله خير، جود وبر، ورحمة وإحسان، وطهر وعبادة وإيمان. إنه شهر البعث للنفس الإسلامية المجاهدة على طول الأيام، وشهر التكامل الاجتماعي الكامل بين المسلمين. فيه يستيقظ الضمير، وتقوى الارادة، ويتجدد العزم، وتصح التوبة، ويحاسب المسلم نفسه، فيرجع إنسانًا سويًا، ويعود إلى الخلق السوي الكريم.

من الظلام إلى النور، من الزمهرير إلى الدفء، من القلق والحيرة إلى الهدى والاطمئنان، من الشك إلى اليقين، من نداء الشيطان إلى نداء الرحمن.. يعود الإنسان الصائم إلى حيث السلام النفسي، والصحة الروحية، وإلى حيث الحق والخير والايثار والحب والتعاون بين الناس، والرحمة بالفقير والضعيف.

ولنستمع إلى الرسول الأعظم، محمد بن عبدالله، ﷺ، يقول وهو يقف خطيبًا في المسلمين، وفي آخر يوم من أيام شعبان:

«أيها الناس، لقد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرب فيه بنافلة كان كمن أدى فريضة، فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه. وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وهو شهر أوله رحمة، ووسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والامام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام. وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

وفي الصوم: الصبر، الذكر، والرضا، والزهد، والطاعة، واليقين. وكان رسول الله (ﷺ) يقول:

« المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر دائـي، والرحمة غنيمتي، والفقـر فخـري، والزهـد حـرفتي، واليقين قـولي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي ».

وكان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه برمضان، ويقول لهم:

« قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر »

إن رمضان يمنح المسلم الساعة الخامسة والعشرين والدقيقة الحادية والستين، التي كان يتمنى أن يحصل عليها، وأن يعيشها.

أيها المسلمون: لعلكم تعرفون قدر شهر رمضان حق المعرفة، إذا لكنتم مجتمعًا جديدًا في بناء الإنسانية، مجتمعًا يستمد من أخلاق رسول الله كل عواطفه ومشاعره النبيلة، وكان رسول الله ﷺ خلقه القرآن، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من ليالي رمضان، فيدارسه القرآن.

صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه الى يوم الدين، صلاة وسلامًا دائمين ما دامت الأرض والسماوات.

(١)
الصورة الادبية في القرآن الكريم

- ١ -

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية؛ فضلًا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية، التي كانت جدتها حدثًا كبيرًا ضخمًا من أهم الأحداث العالمية وأكبرها اثارة، وجليل أثر، وكبير خطر في الحياة.

ولا يستطيع منصف ان ينكر أن القرآن الكريم من ناحيتيه الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد، وبأكثر مما أتى به أي جديد، وأن القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم، ومع كل ما وصل إليه الفكر الإنساني من تطورات مذهلة، ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة، وجدة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور إنساني وبشري، وأمام كل تقدم فكري بلغته الحياة حتى اليوم، والقرآن الحكيم كما كان جديدًا على عقل إنسان القرون الأولى لنزوله، فإنه بفكره المشرف المضيء، وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم، وهو جديد أبدًا، وسيظل هو الجديد دائمًا على مرور العصور والأجيال والأحقاب.

لن نفيض في الحديث إذن عن الجدة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن

جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم.. ويدفعنا إلى ذلك أمران:

الأول: جانب المعجزة في القرآن الكريم.

الثاني: جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية، فضلًا عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره في الناحيتين الروحية والفكرية.

ولا يستبين للباحث أهمية أي نص من نصوص الأدب، أو أثر من آثاره الرفيعة إلا إذا أدرك إدراكًا عميقًا مدى الجدة في هذا الأثر، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها إلى الفكر الإنساني شيئًا لم يضفه إليه السابقون.

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية أمرًا مسلمًا به، فإن الذي سينتهي بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة في الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضًا، لأن تقريرها أساس لتقرير أي أثر وفهمه ومعرفة قيمته.

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة في الصورة الأدبية للقرآن؛ ولا نطلق البحث إطلاقًا ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانب الأدبي عامة من جديد؟

نعم نريد أن نبحث عن الجديد في الصورة الأدبية في القرآن الكريم وحدها، لأن الصورة الأدبية هي الاطار العام للأدب، وهي التي تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه؛ وهي التي تستثير الباحث أول ما يستثيره في النص الأدبي من خصائص ومميزات، على أن الصورة الأدبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف إلا نادرًا جدًا، وفي أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب.

- ٢ -

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب.

الأول: أنها تعني المنهج وطريقة الأداء، وتساوي بهذا المعنى ما تطلق عليه اسم الجنس الأدبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة إلخ...

الثاني: ان الصورة هي الشكل في النص الأدبي، وتقابل المضمون الذي هو الفكرة أو المعنى، أو الغرض أيضًا (مع بعض التجاوز) في النص، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة للعبارة - أي الأسلوب - وللخيال الذي يلوّن عاطفة الأديب ويصورها. وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة، فلا يطغى أحدهما على الآخر، فلا يطغى المضمون على الشكل أي الصورة، وإخراج الكلام من باب الأدب إلى العلم؛ ولا تطغى الصورة على المضمون، وإلا كان الكلام أدبًا لفظيًا إنشائيًا لا وزن له في باب الفكرة، بل في مجال الأدب أيضًا، وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة، كما يهتم بالصورة أو الشكل.

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم بالمعنى الأول الذي هو طريقة الأداء، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل أو النظم أو الأسلوب.

- ٣ -

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف.

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه في المجتمع العربي كبير خطر، ولا عظيم

شأن؛ وكان أكثر ارتجالًا واقتضابًا وليس فيه ثقافة واسعة، ولا فكر مضيء، وأكثره يذهب في الشتات والاختلاف وتفكك الوحدة الفنية (أو العضوية) مذهبًا بعيدًا، فضلًا عن ان النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالًا يذكر، ولم يوله عناية ما ولا احله منزلة خاصة، وفوق ذلك كله فقد فقد النثر الجاهلي قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين، ولضياع أكثره للمدة الطويلة التي عاشها هذا النثر معتمدًا في بقائه على الحافظة وحدها، والحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلًا فيها بعكس الشعر لأنه مقيد والنثر مطلق، والمقيد يبقى في الذاكرة أكثر مما يبقى المطلق. ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفض كثير من الدارسين والنقاد؛ ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين أيضًا، رفضوا أن يسمى نثرًا فنيًا، لأنه في رأيهم لم يكن محتويًا على عناصر النثر الفني ومقوماته، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبي، الذي يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة.. ولكل هذه الأسباب كانت الصور الأدبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية.

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين، وهو المجتمع الذي نزل القرآن الكريم متحدثًا إليه مفيضًا في التوجه ـ كل التوجه ـ له.

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفني، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه قصائد المعلقات المعروفة ذات الصبغة المتوازية العمودية، التي وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التي ورثناها عن الجاهليين. وكانت لهذه القصيدة منزلتها ومكانتها وأهميتها في المجتمع العربي، فهي حديث الناس، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم، وهي مسامراتهم، وأنديتهم، وفي أسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم، وهي على العموم آية عبقرية، ودليل شخصية وذاتية عظيمة، والشاعر عندما يكتبها

ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس، وبلغ من أمر قصائد المعلقات ان علقت على أستار الكعبة.

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصائد المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها:

١ ـ تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية.

٢ ـ وأنها تخلو من كل وحدة فنية، مما لاحظه عليها، كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد في كتابه «مراجعات» وغير العقاد أيضًا، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلي في مجلة الثقافة[1].

٣ ـ وأنها تمثل منهجًا يدويًا في التعبير والأسلوب واللفظ والخيال، وليس هو كل شيء في مناهج التعبير الأدبي.

٤ ـ وأنها كذلك تكثر أخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة.

ولسنا نقول نحن ذلك تجنيًا على القصيدة العربية القديمة، بل لقد سبقنا على ذلك الامام أبو بكر الباقلاني في كتابه المشهور «اعجاز القرآن» الذي درس معلقة امرئ القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها.

نحن نعرف أهمية قصائد المعلقات معرفة وثيقة فهي التي وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية وهي التي تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلًا كاملًا وهي التي استنبطت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها في بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك.

---

(١) جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي ـ أحمد أمين ـ مجلة الثقافة المصرية ـ عام ١٩٣٩.

وهي كذلك التي امدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: إذا عز عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه في شعر العرب[1] فنحن لا نريد أن نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية أو ننفر منها ولكننا نضعها في موضعها الذي وضعه فيها الإمام الباقلاني في مقام حديثه عن اعجاز القرآن الكريم.

هذه القصيدة الشعرية اذن كانت أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئًا في مقام الحديث عن الصورة الأدبية في القرآن الكريم.

- ٤ -

فما هي إذًا الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها، والطريف منها، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها وألوانها وطرق أدائها.

لأول وهلة نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة، ففرقان وقرآن وآيات وسور، أسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك:

﴿وقرآنًا فرقناهُ لتقرأهُ على الناسِ على مكثٍ ونَزَّلْناهُ تنزيلًا﴾[2].

﴿تباركَ الذِي نَزَّلَ الفرقانَ على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيرًا﴾[3].

﴿آلر تلكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ إنَّا أنزلنَاهُ قرآنًا عربيًّا، لعلكم تَعْقِلُونَ﴾[4].

---

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتابنا: «الحياة الأدبية في العصر الجاهلي». وكتابنا: «موقف النقاد من الشعر الجاهلي».

(٢) سورة الإسراء آية ١٠٦.

(٣) سورة الفرقان آية ١.

(٤) سورة يوسف الآيتان ١ و٢.

﴿طه، ما أنْزَلْنَا عليك القرآنَ لتَشْقَى﴾[1].

﴿سورةٌ أنزلْنَاهَا وفرَضْنَاهَا، وَأنزلْنَا فيها آياتٍ بيناتٍ لعلكم تَذَكَّرُونَ﴾[2].

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطًا له. ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة.

ولكننا نجد فيه القصة في أرفع أشكالها وأروع ظلالها، ونجد فيه الخيال الرفيع في ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة، ونجد فيه البشارة والإنذار والوعد والوعيد، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور.

لم يكن القرآن شعرًا ولا سجعًا ولا مزاوجة ولا نثرًا مرسلًا ولا خطابة، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام، واعذار وانذار ووعد وعيد وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، وسير مأثورة، ويتردد بين طرفي الايجاز والإطناب، كلمه يضيء، كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، كالروح في البدن، وَالأمن في الوطن، وكالغيث الشامل، والسحاب الهاطل وكالضياء الباهر، والبحر الزاخر..

وان تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها وأملها وألمها، وكفرها وإيمانها، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة، التي يسعى إليها إنسان الإسلام، وتسير لشاطئها الأمين إنسانية الحياة في ظلال الدين:

---

(١) سورة طه الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة النور آية ١.

لأنه خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة.

وفي القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة، وتمام مطابقة المثل، ما جمع به البلاغة من مختلف أقطارها. وفيه من الحجة الدالة، والروحانية الصافية، والحديث عن العقيدة، والافاضة في بيان الشرك والايمان، والشر والخير ما يوقظ الضمائر، ويحرك العقول، وينير النفوس.

وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية والشرائع البائدة، والأديان السالفة، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن الأخبار بالمغيبات، ومن الافاضة في شرح الدعوة، وبيان التشريع، والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السموات والأرض، وبقياس الغائب على الشاهد، وبضرب الأمثال، وبالبراهين العقلية المجردة، وفيه من حسن التقسيم، وجمال المقابلة، وروعة الطباق، وبديع الجناس، ورفيع الفواصل، ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه.

ومع ذلك فهو ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية، وليس سفر أدب أو حكمة أو تاريخ أو اجتماع: وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية فهو كتاب الإنسانية كلها، وصحيفة البشرية قاطبة.

وما أروع القرآن في فواتحه ومقاصده وخواتيمه، وفي مبادئ آياته وفواصلها، وفي حديثه عن المعاني الدقيقة، والأفكار العميقة، والأغراض النبيلة، وفيما اشتمل عليه من دقة التصوير، وجمال الوصف، مع سمو التعبير وعظمة التأثير، وروعة الايجاز، وسحر المجاز وبلاغة التكرار، وفصاحة التعريض، يصور نعيم المؤمنين، وسعادة المتقين، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة، وبالسعادة والفرحة، وبالسرور والحبور، وبقرة العين، وانثلاج

الصدر، وبالعجب والطرب. ثم يصور هلاك العاصين، وشقاء الجاحدين وعذاب الكافرين، فيتركك حليف الهم والحزن، والتذكر والاعتبار، والتفكر والتدبر، والألم والدمع والبكاء والعبرة المنسكبة، والآهة المرددة.

والسورة القرآنية، قصيرة أو طويلة تجيء ممثلة لفكرة، ومصورة لغرض، ومؤدية لمعنى، وتسير في جوها العبق، وأفقها الساحر، وجوانبها المشرقة، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة، وتجدك تمشي مع الغرض القرآني، غاية فغاية، في وحدة واتساق، وفي نظام عجيب، وترتيب غريب، وفي منطق منسق، وحجج متدافعة متدفقة: نجد الآيات تتحرك في معرض الاستدلال كأنها موكب من نور، ومهرجان مصوَّر لأدق خطايا الشعور، وحنايا الصدور، ونجد في هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التي تمثلها السورة الأخرى، وغرضًا واضحًا غير الغرض الذي ترمي إليه السورة السابقة أو اللاحقة.

وتجد افتتاحات السور العجيبة، مثل ص، ن، ق، طه، طسم، حم، الر، الم، إلى غير ذلك.

وتجد الآيات تتوالى في السورة، وكأنها البحر الهادر، والموج العاصف، ونجد الفواصل في السورة، موقعة الخطا، منغمة الحروف، وتجد القصة والعبرة، والموعظة والحكمة في قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت؛ وفي طابع من الحسن والجمال، ولا كحسن يوسف وإخوته.

وتجد لكل سورة أسماء عجبًا، البقرة، والرعد، والطور، والمائدة، والكهف، ويونس، ويوسف، وابراهيم، ومحمد، والنور، والمؤمنين، والمنافقين، والضحى، والشمس، والقتال، والفتح، والحشر، والصف، والنساء، والطلاق، والتحريم، والأحزاب، والمائدة، والأنفال، والتوبة، وآل عمران، والجمعة، والعصر إلى غير ذلك: وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة، ولكل قصة حدثًا وعبرة.

وكل ذلك نمط مخالف لأنماط البيان عند الجاهليين، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين نزلت عليهم هذه المعجزة الالهية الحكيمة.. إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثلًا ولا شبيهًا بها، ولا تجدها نفسها الا في القرآن الكريم.

سبحانك ربي، أنزلت القرآن، وفصلت الفرقان وأحكمت البرهان، وأنت رب العالمين، ومنزل الكتاب المبين، ورأى العرب الكتاب شيئًا عجيبًا، ومنطقًا جديدًا ومنطلقًا فسيحًا من الحكمة الالهية الجليلة، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب: لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر إنما هو الوحي، الوحي المنزل على محمد بن عبدالله، الوحي الذي نفس بعض العرب على محمد أن ينزل عليه حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس يقول له: ما تقول فيما سمعت من محمد، فقال الأخنس ماذا أقول: قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم، وقالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم عادوا يقولون: فينا نبي ينزل عليه الوحي، والله لا آمنت به أبدًا.

إنه الوحي المنزل من السماء، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء: وكفاه ذلك فخرًا على فخر، وسناء على سناء.

(٢)
الصورة الادبية في القرآن الكريم

- ١ -

ونتحدث هنا عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون، بعد أن تحدثنا عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية التي يراد منها الجنس الأدبي وطريقة الأداء والمنهج الذي ينتهجه المتكلم في التعبير.

والصورة التي نريد أن نتحدث هنا عنها، ونريد بها الشكل في النص القرآني، لا يمتري أحد، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام في أنها والجدة صنوان، وفي أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان.

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني، من الايقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التي يشعها التعبير، ثم هناك طريقة تتناول الموضوع، أي الأسلوب الذي تعرض به التجربة الأدبية.

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الأدبي وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيرًا دقيقًا.

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلًا، يؤثر لفظة على لفظة، ويفضل كلمة على كلمة، ويقول كثير من النقاد: إننا نفكر بالألفاظ، أي ان الألفاظ هي

مظهر إدراكنا الفكري، وعمل الأديب تهيئة الجو الفني للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والايقاع، وترسم الصور، وتؤدي في رشاقة وحركة وتتابع وعذوبة؛ نقرأ قوله تعالى في كتابه العزيز في سورة الضحى: ﴿والليلِ إذا سجا﴾[1] فنجد جوّا من الهدوء والطمأنينة والنعمة؛ ونقرأ قوله تعالى: ﴿فاصبَحَ في المدينةِ خائفًا يترقَّبُ﴾[2] فنجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت في كل جانب خوفًا وطلبًا لموضع الأمن؛ ونقرأ قوله تعالى ﴿عُتُلٍ بعد ذلك زَنِيمٍ﴾[3] فنجد البلاغة في أرفع منازلها، ولا نجد لفظًا يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة.. وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعاني تمثيلًا دقيقًا رائعًا كاملًا غير منقوص..

والخيال في الصورة الأدبية يبدو في مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل.

والايقاع أو اللحن في الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال.

وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءًا بالحيوية والمتعة والتأثير، وتجعله لا يقلد أحدًا في لفظه ولا في عبارته: وليس الأسلوب حشدًا من الألفاظ المرصوصة، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى في الذهن.

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته، فتوضع الجزالة في موضعها، والرقة والعذوبة في موضعها، ويوضع التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والوصل والفصل، والايجاز والإطناب، كل في موضعه، وبذلك تكمل الصورة، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة، ومن البدهي أن أبلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافًا، وإنما

---

(١) سورة الضحى آية ١.

(٢) سورة القصص آية ١٨.

(٣) سورة القلم آية ١٣.

يجب أن يصور الأسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم واحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها.

- ٢ -

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هو كل شيء في البلاغة، أو أهم شيء فيها، ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الأسلوب، جاءت على أبلغ ما يكون الاداء في القرآن الكريم، وعلى أروع ما يكون التصوير في أسلوب الذكر الحكيم، لما أتينا بجديد في الموضوع.

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة، عما ألف العرب في بلاغتهم، وليس معنى ذلك ان القرآن خرج في أسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير والقصر، والوصل والفصل، والايجاز والأطناب، والتشبيه والتمثيل والمجاز والايجاز والاستعارة والكناية والتمثيل والتعريض، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى القمة، وحد الاعجاز، ومنزلة السحر والروعة؛ ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآني وبين نظائره من كلام العرب وجدنا البون شاسعًا، والفرق بعيدًا، ويطول بنا الأمر لو وازنَّا بين أساليب القرآن وأساليب العرب، فان النتيجة التي سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه.

والعناصر الأخرى الجديدة في الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير في طريقها محاولة الكشف عنها، من مثل الوحدة العضوية في الصورة الأدبية ومن مثل التجربة الأدبية التي يؤديها البليغ ويحملها كلامه، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال في الصورة، ومن مثل النظم والشكل في النص، ومن مثل أثر الالهام أو الصنعة في الصورة الأدبية، ومن مثل الرمزية في الأسلوب أو الفكرة، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير في الأسلوب، وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة

الأدبية، كالرقة والجزالة، وكالتعريض والكناية وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك.

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة كل الجدة، في كل جوانبها وألوانها، سواء منها العناصر القديمة التي تدوول استعمالها في الأسلوب، أو العناصر الجديدة التي كشف عنها النقاد المحدثون، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التي كشف عنها النقاد القدماء، ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله في ساعة أو بعض ساعة، وكمن يظن أن في قدرته الاحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد في أسرار بلاغة القرآن الكريم واعجازه.

- ٣ -

وحسبك أن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها، ومن اشراق البيان وجمال الديباجة، وعبقرية التصوير والتعبير.

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة، وبين القوة والعذوبة، وبين حرارة الايمان وتدفق البيان، فهو السحر الساحر والنور الباهر، والحق الساطع والصدق المبين.

نظم رائع وألفاظ عذبة، وخيال صادق، وعاطفة حارة، وفكر رفيع، يملك على القارئ والسامع لبه ووجدانه، وعقله وبيانه، ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين، وما ايمان عمر حين سمع «طه» وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله «والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر» حين سمع «فصلت» وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلاً، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، الا دليل السحر القرآني الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم: ﴿إن هو إلا سحر مبين﴾[1] وقولهم ﴿ان هذا إلا سحر يؤثر﴾[2] السحر القرآني الذي يتمثل فيما

---

(١) سورة سبأ آية ٤٣، والصافات ١٥.
(٢) سورة المدثر آية ٢٤.

يتمثل في صدق الشعور، وحرارة العاطفة وجمال النظم، وأحكام البيان، وروعة التصوير.

أي وربي، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أسلس من ألفاظه، وهل ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تشاكلًا وروعة من نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، الآخذ بمجامع القلوب، ومشاعر النفوس.

ان بلاغة الصورة الأدبية وجدتها في القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع ان يكشف عن خصائصها وأسرار اعجازها باحث أو ناقد.

وحسبك روعة القرآن وجدته وحيويته وأخذه بالأفئدة والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس، وحسبك خلوده على مر الأيام، واختلاف البيئات والعصور.

هذه البساطة في الأسلوب، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه. والجزالة والعذوبة في أطرافه ونواحيه، تمثل فيما تمثل جانبًا من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم.

وهذا اعرابي سمع قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) فسجد وقال: سجدت لفصاحته وهذا آخر سمع قوله تعالى: ﴿فلمَّا ٱسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾(٢) فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على هذا الكلام..

وماذا نقول في حسن التأليف، تخير الألفاظ، والتئام الكلمات، وأحكام الصنعة، وجودة السبك، وكمال البيان، وجمال الرونق، ومتانة النسج؟ وماذا نقول في هذا النظام الفريد، والنسق الغريب، وفي هذه النضارة والجلالة، وفي

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤.

(٢) سورة يوسف آية ٨٠.

ذلك الاشراق والبهاء ودقة الصوغ؟

ألفاظ كأنها السحر وكأنها الدر، تشع نورًا كما يشع الفجر، وتهدر حركة وحياة ونموًا وتجددًا كما يهدر البحر، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر.

وصور تموج كما تموج العواصف، وتتحرك كما تتحرك الاشباح لراكبٍ مسرع في السير.

وبلاغة هي حديث الأيام، سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الأعوام: وما هي الا الضوء السافر، والهدي الباهر والوحي الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أو رأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة، وقد تردد على الرسول وسمع منه، فقال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي نقول شيئًا من هذا، ووالله ان لقوله الذي يقول حلاوة، وان عليه لطلاوة، وانه لمثمر اعلاه، مغدق أسفله، وانه ليعلو ولا يعلى عليه.

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر، وهي مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات، مشرقة الصور والقسمات والصفحات: نسق هو السحر، وتآخ وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنه الوحدة الالهية التي دعا إليها القرآن؛ ممثلة في كلمات.

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة، وهذه الجملة قصيرة في نظمهم، ولكل جملة معنى، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام؛ وجاء القرآن الكريم، فصارت الجملة تمثل أرفع المعاني وأدقها وسادها نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر، وقد تطول الجملة القرآنية، وتتركب فيها الصور، وتتوالى المشاهد، وتتعاقب المعاني، وقد لا يؤدي المعنى القرآني آية أو آيات، بل عشرات الآيات، ومع ذلك فلن تجد إلا فكرًا مهذبًا، ونظامًا

محكمًا، وتصويرًا منمنمًا ووشيا منمقًا وأحكامًا في الصياغة، ودقة في الصناعة، ولن تجد إلا وشيا يبهرج جماله، ويسحرك جلاله، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح.

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير، وإبراز معالم المعنى جزءًا جزءًا، وحركة بعد حركة، وان شئت فاسمع قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرحمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ للحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظَلْمًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وتَرَكْنَا بعضهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بعضٍ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[3] ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة وهي من سورة الكهف لرأينا فيها هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثلة في أروع بيان، وأبسط تعبير، ولرأينا فيها هذا الايجاز الرفيع البليغ مع أداء المعنى كاملًا غير منقوص، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة الممثلة لأروع تصوير للغرض المقصود، الآية ثلاث جمل قصار:

١ ـ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض.

٢ ـ ونفخ في الصور.

٣ ـ فجمعناكم جمعًا.

وترى في الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة، والسر في ذلك هو كلمة يموج التي أدت لك الصورة كاملة، والمشهد رائعًا، والمعنى ممثلًا أدق تمثيل، وأدت لك الحركة والحياة، ومشت بك إلى آفاق رحيبة من جلال

(١) سورة طه آية ١٠٨.

(٢) سورة طه آية ١١١.

(٣) سورة الكهف آية ٩٩.

الاداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير.

وفي الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذي يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله، وأن نهاية الأمر لا بد أن توضع، وأن للناس وهم في أمر مريج لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد، وأمر عتيد، وقدر شديد.

وتجيء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعًا إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وان قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم، وشدة شتاتهم، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر «جمعا» ليدلك على عظمة القدرة، وروعة المشهد، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق في هذا الموقف العصيب.

ولو ان بليغًا من أبلغ الناس، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان، حاول أن يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه، لما استطاع أن يقول، ولما قدر أن يتكلم، ولما أمكنه أن يؤدي هذا المعنى في عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته وايجازه.

أي وربي انه القرآن الحكيم، انه الذكر المبين، انه الجلال والعظمة، والايجاز والاعجاز، وروعة التصوير التي لا تقف عند حد، ولا تنتهي إلى بيان.

وماذا أقول، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئًا، ولن أبلغ بكلامي مبلغًا ما؟

يا كتاب الله، يا معجزة القرآن، يا آية البيان، يا روعة الدهور، يا عظمة العصور، يا جلال السماء، يا حكمة الانبياء، يا وحيا نزل على محمد بن عبدالله، يا كتاب الله، حسبي، فإن الإنسان لاعجز عن أن يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان، ودقائق الفرقان، وروائع التصوير والتبيان.

الى بيت الله الحرام

.. وتبدأ رحلة المسلمين في كل مكان من الأرض، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، إلى بيت الله الحرام، إلى «مكة التاريخ والتوحيد والسلام»، إلى حيث كان مولد خاتم النبيين، وآخر المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، إلى الكعبة بيت التوحيد، وبيت الله بيت السلام. والإسلام، البيت العتيق الذي شرّفه الله واصطفاه، وكرمه ورفع اعلامه وذراه..

نعم، في هذه الأيام الجليلة تصل إلى «مكة السلام» وفود حجاج بيت الله الحرام، من كل صوب وحدب، وكل جهة ومكان، يدفعهم الشوق والحنين، ويقودهم الحب والحنان، نحو أقدس مكان، وأطهر بقعة على وجه الأرض، ليؤدوا شعائر الله، ومناسك الحج، وليتعمروا ويطوفوا ويقضوا مناسكهم، ويذكروا الله ذكرًا كثيرًا.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك..

بهذا يرفع المسلم صوته عاليًا مدوّيًا في كل مكان من شعاب مكة وجوانبها الفساح.. وما أسرع ما يناجي ربه وبصره يقع على الكعبة، فيقول:

«اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًا، وزد من شرفه ممن حجه أو اعتمره تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا ومهابة وبرًا، اللهم أنت

السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، يا ذا الجلال والإكرام».

وما أجل ما يدعو المسلم ربه وهو يقبل الحجر الأسود، ويقول: اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك، سيدنا محمد، ﷺ. سبحان الله والحمد لله، ولا اله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ويستمر في الدعاء، وهو يوالي الطوف، فيقول: اللهم إني آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت.

وفي السعي بين الصفا والمروة يردد الحاج في ابتهال وخشوع هذا الذكر:

الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد..

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا..

الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا..

لا اله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير..

لا اله إلا الله وحدة لا شريك له، انجز وعده، ونصره عبده، وهزم الأحزاب وحده، لا اله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون.

يا رب السماوات والأرض

وفي موقف عرفات العظيم ما أعظم ما يدعو المسلم ربه، وهو يقول في خشوع وابتهال:

اللهم لك الحمد، كالذي تقول؛ وخيرًا مما نقول.

اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي.

اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.

اللهم إني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح.

اللهم أصلح لي ديني، الذي هو عصمة أمري، واصلح لي دنياي التي فيها معاشي، واصلح لي آخرتي التي فيها معادي وأجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر.

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال..

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي.

اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي..

اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي، واسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني.

اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير..

اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرًا، لا اله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

النور والذكرى المشرقة

مواقف تالدة ماجدة خالدة، مواقف عرفها كل حاج ومعتمر، وكل طائف وزائر، مواقف ماؤها الخشوع والخضوع، والعبادة والطاعة، والامتثال

لأمر الله رب العالمين.

مواقف هي حسنة الأيام، وهي حلم رائع من أجمل الأحلام، وهي النور والذكرى المشرقة الوضاءة على مرور الأعوام، ان فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، أول بيت وضع للناس، لهي أحد أركان الإسلام، ودعائمه وأصوله.

وما أعز وأروع المسلم، وهو يقبل على الله في البلد الحرام، وأمام البيت الحرام، بكل ما في جوانحه من إيمان ويقين، ومن حب وشوق..

والله عز وجل يقول في إيجاب هذه الفريضة على المسلم القادر ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ، مَنِ ٱسْتَطَاعَ إليهِ سَبيلًا، ومَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنِ العالمين﴾[١].

ويقول جل جلاله في كتابه المنزل ﴿وَأَذِّنْ في النَّاسِ بالحَجِّ، يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، يَأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٢].

ويقول رسول الله ﷺ الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وان استغفروه غفر لهم.

ويندب للمسلم أن يقول عند سفره للحج: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد.

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٢) سورة الحج آية ٢٧.

ليس له جزاء إلا الجنة

وما أعظم المشاهد التي يراها المسلم في رحلة الحج المباركة:

والحاج الذي يقبل على أداء شعائر الحج ومناسكه، بقلب مفتوح، وروح صافية، وتوبة نصوح، واخلاد إلى طاعة الله وتوحيده، وعبادته حق العبادة، هو أفضل عند الله وملائكته ورسله، من العابد في صومعته وهو بمثابة المجاهد في سبيل الله.. إن مات في حجه مات شهيدًا عند الله.

ان كل وقفة، وكل التفاتة، وكل مشهد يشهده المسلم في رحلة الحج، لما يزيد من حسنات الحاج، ويضاعف من ثوابه، ويقربه إلى الله عز وجل حق القربى..

وتقول عائشة لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله، ترى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ فيرد عليها الرسول العظيم، ﷺ، قائلًا: أفضل الجهاد حج مبرور.

ويقول ﷺ: من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته امه.. رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والترمذي إلا أنه قال: غفر له ما تقدم من ذنبه.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

على أن وجوب الحج إنما هو على المسلم القادر الصحيح المعافى المستطيع.. ومن ثم فلا يجب الحج على فقير، ولا على مريض لا يستطيع النهوض بأعمال الحج ومناسكه، وحد الاستطاعة يتحقق: بصحة البدن، وبألّا يكون ضعيفًا بسبب الشيخوخة، فلا يستطيع تحمل مشقة السفر ولا النهوض بأعمال الحج..

وبأن تكون الطريق آمنة، وان يجد المسلم من النفقة الزائدة عن حوائجه

الأصلية ما يكفيه ويكفي من يعولهم حتى يعود من رحلة الحج وبأن يكون للمرأة محرم تسافر معه، من زوج أو أب، أو أخ أو عم أو خال أو نسوة ثقات، فان لم تجد من يسافر معها من هؤلاء فلا يجب عليها الحج.

فلا يجب الحج على مسلم يستدين ليحج، ولا على مسلم لا يجد متسعًا من ماله أو صحته.

وفي هذا الشهر الكريم، وفي مشرق فرح المسلمين فيه بموقف عرفات، وبعيد الأضحى المبارك الميمون، وبكل ما ادخره لله لعباده من زوار بيته من الثواب العظيم والأجر العميم.. نبتهل إلى الله أن يهب لنا من القوة والقدرة ما نستطيع معه النهوض بكل عبء جليل، وكل عمر كريم، وكل طاعة محمودة، وشعيرة من شعائر الله، وما توفيقي إلا بالله.

أفضل الجهاد حج مبرور

يقول الله تعالى: ﴿جعلَ الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ قيامًا للناسِ والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائدَ﴾(١).

ويقول عز وجل: ﴿ولله على الناسِ حجُّ البيتِ مَن استطاع إليهِ سبيلًا، ومن كفرَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمين﴾(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: ايمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم

---

(١) سورة المائدة آية ٩٧.

(٢) سورة آل عمران آية ٩٧.

ماذا؟ قال: حج مبرور.. والحج المبرور: هو الذي لا يرتكب فيه صاحبه معصية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول ﷺ قال: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: لا، ولكن أفضل الجهاد حج مبرور.

وعنها ان رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة».

وفي كل هذه النصوص القرآنية والنبوية تأكيد لفريضة الحج، ولفضل هذه الفريضة، وللثواب العظيم الذي يناله من أداها خالصًا مخلصًا لله رب العالمين..

والحج ميقات معلوم، وأشهر معلومات وأركان وواجبات وسنن مفروضة، وما أروع مواكب الحجاج، وهي تسير من الميقات إلى المسجد الحرام ومن مكة إلى عرفات، ومن عرفات إلى مكة المكرمة ومن مكة إلى المدينة.. انه موكب الرحمة والنور، وموكب الملائكة والامان والسلام، وموكب الرضا والخير والبشرة والسعادة.

وعندما يضع الحاج رحله في مكة أو المدينة يشعر بالأمن والأمان والرحمة والحنان، والطمأنينة والسكينة، ويشعر شعورًا صادقًا بان الله عز وجل راض عنه، وأنه كتب له الثواب العظيم.

وحول الكعبة يطوف الطائفون، وبين الصفا والمروة يسعى الساعون، وفي كل مكان يتردد النشيد الأبدي: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك.

وفي كل مكان من مكة والمدينة ومنى وعرفات تسير المواكب مهللة مكبرة

ملبية، في جوانحها شوق وفي قلبها ايمان، وعلى شفاهها دعاء ورجاء وآمال وصلوات..

انه موكب الايمان، ورحلة التاريخ، ومسيرة المجد والرحمة والخير.

انه وفد الرحمن، يسير في مواطن الإسلام والايمان، تحفه الملائكة، وتحيط به رحمة الله، وتظلله سحب الخير والرضوان، وغمامات البشر والبشرى والأمان وأيام ولا كالأيام ويا لها من أيام خوالد، وموسم تالد ماجد رائد، ويا لوفود الرحمن من قانتين عابدين حامدين راكعين ساجدين أوابين توابين داعين مستغفرين، لهم الرحمة وعليهم العزة، ولهم الوعد الصادق من الله عز وجل بالرحمة والمغفرة والثواب والنعيم المقيم، والجنات الناضرات تجري من تحتها الأنهار، ولا ينالها إلا الأطهار الأبرار الأخيار الأحرار.

الحج مؤتمر المسلمين، ومجتمع الإسلام يسعى إلى بيت الله الحرام الحجاج من كل مكان في الأرض، ليقضوا موسمًا وما أكرمه من موسم حول المسجد الحرام وحول الكعبة بيت الله الحرام، وبين مكة وعرفات والمدينة.. يستعيدون أروع الذكريات، وأعظم صفحات التاريخ وأجمل أيام الإسلام وانتصاراته وأمجاده.

هنا قبلة المسلمين، هنا كعبة الإسلام، هنا بيت الله الحرام، الذي كتب الله عز وجل الرحمة والمغفرة لحجاجه ولمن اعتمر فيه.

يقول رسول الله ﷺ: إنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام، لا تضع ناقتك خفًا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة واما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة، يقول: عبادي جاءوني شعثا من كل فج عميق، يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل، أو قطر المطر، أو كزبد البحر، لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورين لكم ولمن سعيتم له.. وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبير من الموبقات، وأما نحرك فمدخر لك عند ربك، وأما

طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى.

ويقول صلوات الله عليه: من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مائة عام.

ويقول صلوات الله عليه: تفتح أبواب السماء وتستجاب دعوة المسلم عند رؤية الكعبة.

الحج أشهر معلومات، وأيام معدودات، وذكريات صالحات خالدات رائعات.

ويا حظ المسلم العظيم، وهو يطوف حول الكعبة، ويا مجده وهو يسعى بين الصفا والمروة، ويا عزه وهو يقف فوق جبل الرحمة في عرفات، ويا سعادته وهو يرمي الجمرات في منى، ويا هناءته وهو يقف أمام الروضة الشريفة داعيًا مستغفرًا حامدًا شاكرًا لله رب العالمين.

إن أيام الحج أيام لا تنسى من وجدان كل مسلم، هنا كان ينزل الوحي على رسول الله هنا سعى رسول الله بين الصفا والمروة، وفوق حصباء منى، وعلى جبل عرفات.

هنا طاف، وهنا وقف، وهنا دعا، وهنا خطب الناس، وهنا كان النصر للإسلام، وهنا كانت الغلبة للمسلمين.

وفي موسم الحج نرى الافريقي الأسود والأوروبي الأبيض، والصيني أو الياباني الأصفر، وترى المصري بجوار الجاوي، والأفغاني بجوار السوداني، ترى الرجل والمرأة والطفل والشاب والفتاة الجميع يسبحون بحمد الله مهللين مكبرين.

وفي موسم الحج يمتلئ قلب المسلم بالعزة وهو يعرف أن له أخوة في العقيدة في كل مكان من مشرق الأرض ومغربها، وهو يعلم ان الإسلام دين الله إلى

الناس كافة، وهو يعلم أن رسالة الإسلام عامة خالدة باقية أبدًا، صالحة لكل زمان ومكان، حفظها الله ويحفظها إلى يوم القيامة حين تقوم الساعة.

وفي موسم الحج ترى تضامن المسلمين وتعاونهم وتكافلهم وحب بعضهم لبعض، نموذجًا رفيعًا من الخير والطاعة وكسب رضوان الله ورحمته ومثوبته.

وفي موسم الحج يعيش المسلم كما عاش المسلمون الأولون، ويسير في الأرض التي ساروا عليها، ويرى معالم الإسلام وموطنه الأول وموئله الذي كان للدعوة مهادًا، وكان للوحي عزًا، وكان للدين مجدًا.

وفي الحج تتنزل الملائكة بالرحمة، وتستمطر الخير والرضوان لوفود الحجاج إلى بيت الله، وتدعو لهم بالمثوبة والرضوان والنعيم المقيم.

ولا يمل الإنسان الرحلة أبدًا إلى بيت الله الحرام للحج أو للعمرة، ولا يشعر هنا بغربة أو وحشة، هنا وطن الإسلام ووطن المسلمين، هنا مجد الدولة الإسلامية وعزتها.

هنا كم سارت الكتائب والجنود إلى كل مكان في الارض، تسعى بحمد الله لنشر الإسلام في كل بقعة وكل جهة!

هنا كانت تصل أخبار اليرموك والقادسية ومعارك الإسلام الخالدة التي كان النصر فيها للإسلام، لجند الله، لحزب الله، وان حزب الله هم الغالبون.

ما أجل وأكرم وأعظم موسمًا يعيش فيه المسلم بين يدي الله داعيًا وملبيًا وقانتًا وساجدًا وراكعًا لله رب العالمين، وصدق الله العظيم فيما يقول: «وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون».

العيد .. وماذا بعد العيد ؟

ها هو ذا عيد الفطر المبارك يقبل بوجهه البشوش، وصدره الرحب، وجماله وجلاله، ويمنه وبركته ورحمته.. فيلقاه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بالفرحة الكبرى، وبالآمال الكبار، والتحيات الموصولة.

ويقبل العيد بعد صيام شهر رمضان وقيامه، وبعد أن أدَّى كل مسلم ما عليه من عبادات وطاعات وتهجد واعتكاف وزكاة فطر وصدقة واحسان وبر بالفقراء، وبعد ان قضى ليالي رمضان المبارك في صلاة وقنوت وقراءة لكتاب الله العزيز.

ويقبل العيد وقد بذل كل مسلم ما استطاع أن يبذله من عمل الخير والمعروف والطاعة وعبادة الله والإخلاص له في السر والعلن ومن فعل الصالحات، وترك للسيئات، مما يجعل يوم العيد عيداً حقًا يفرح فيه المؤمن رضاء الله ومثوبته ورضوانه وبأن رصيده من الخير قد تضاعف، وبأنه قد عاد إلى الله، والله عز وجل بلا ريب عائد إليه بالرحمة والرضوان والغفران..

ومعنى العيد إظهار الفرح الأكبر بانتصار المسلم على الشيطان وعلى نفسه وعلى نزعات الشر الكامنة فيه، وبخروجه من حصار الشهوات ومتاع الحياة الدنيا وبفوزه في معركة جهاد النفس، التي كان رسول الله ﷺ يقول فيها إذا خرج من أرض المعركة «خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»،

فجعل الجهاد في سبيل الله وفي أرض المعركة جهادًا أصغر، وجعل جهاد ونوازع النفس وشهواتها جهادًا أكبر.

وصدق رسول الله ﷺ، فإنه ليس هناك جهاد أكبر من جهاد النفس، ومن مصارعة نوازع الشر، ونوازع الشهوات فيها.

دينه الإيثار لا الأثرة

ومعنى العيد اعلان نتيجة معركة الإنسان مع أكبر أعدائه، وألد خصومه، وأشد محاربيه لددًا، وهو النفس والشيطان.. وعلى المسلم بعد ذلك أن يستمر في خط سيره، وأن يواصل الجهاد، وألا يتخلى عن ميدان المعركة، وان يقلل مجاهدًا ومناضلًا ومخاصمًا، لينال شرف الفوز في معركته مع النفس والشيطان، وليحظى برضاء الله وملائكته ورسله والناس أجمعين.

وعلى المسلمين من ثم أن يستيقظوا من سباتهم، وأن يعلموا أن الحياة معركة دائمة، وأن لا مجال للفرار من هذه المعركة، وأن النصر فيها لأقوياء الايمان والإرادة والنفوس، وللذين يوفقهم الله لينالوا بالإيمان الكامل شرف رضائه ورحمته، وللذين لا يتوانون لحظة عن التمسك بما أمر الله واجتناب نواهيه وما حرمه على عباده.

ان المسلم حق وصدق، وهو أمانة ووفاء، وهو التزام وعدل وبر وسخاء، وهو بذل وكرم وعطاء، وهو الرحمة المهداة، والفريضة المؤداة، والنسك الأكمل والمنهاج الأقوم، والشريعة المسلوكة والمورد العذب لمن قصده، والمسلم أمن وأمان وايمان، وهو عمل وقول وخلق محمود، وفضائل يتمسك بها.. ومن ثم كان عليه أن يعيش في نطاق الخير والحق والعدل ما دام يعيش في الحياة، وأن لا يدخر وسعًا في العمل من أجل رضاء الله والناس، لأن دينه الايثار لا الاثرة، والتواضع لا الخيلاء، والسلام والوئام لا الشقاق والنفاق والخلاف والمشي بالنميمة بين الناس.

والمسلم، أينما كان من مواقعه في مشارق الأرض ومغاربها، يضع دينه موضع التقديس، وينزله من نفسه منزلة رفيعة لا يحتلها سواه وهو يتمسك بدينه تمسك الإنسان بأعز ما لديه وأغلى ما يملك.

ومصر بحمد الله موطن صدق من مواطن الإسلام العظيمة، وهي تعرف دينها وإسلامها، وتعرف ما للإسلام عليها من فضل، وما له في عنقها من دين، وهي تجاهر دائمًا بأنها ستحيا على الإسلام وستموت على الايمان، وأنها لا يضرها مع الإسلام شيء، ولا ينفعها مع الكفر شيء، وهي تصبح وتمسي وتقوم وتنام، وتغدو وتروح، وهي تقول: الحمد لله الذي أحيانا على الايمان، وكتب علينا أن ننعم بنعمة الإسلام، والحمد لله الذي جعل كل مسلم في مصر يعيش مرفوع الرأس بالإسلام، موفور العزة بالإيمان.

وماذا عما بعد العيد؟

انني أنادي دائمًا وأبدًا بان لا حياة لوطننا إلا بالإيمان، ولا عزة ولا شرف ولا كرامة إلا بالإسلام.. وأقول وأبدا ان مصر الحضارة والتاريخ والبطولة والشرف هي مصر الإسلامية، والتي ترفع شعار العلم والايمان دائمًا وأبدًا..

مصر التي كتب الله لها أن تنتصر على التتار بالإسلام، وأن تهزم الصليبيين بشهادة الله أكبر. ويجتمع مسلموها وأقباطها على الحب والوئام والسلام على طول عصور التاريخ.

انها مصر الأزهر، مصر التي خرج منها الإمام الليث بن سعد والتي عاش في ظلالها الامام الشافعي، والتي فضّل الاقامة فيها آل البيت الكرام عليهم الصلاة والسلام، والتي هاجر إليها العز بن عبد السلام والتي خرج منها أئمة الإسلام، وشيوخه الأعلام وأئمته العظام رضي الله عنهم أجمعين، مصر وطن

الإسلام وحضارته، التي عاش فيها أئمة الصوفية الكبار من أمثال ابن الفارض وابن عطاءالله وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي وأبي الحسن الشاذلي وسواهم، والتي دفن فيها رأس الحسين عليه السلام والتي هاجرت إليها السيدة زينب عليها السلام، والسيدة عائشة، والدة سكينة رضوان الله عليهم، مصر الإسلامية هي تراث الإسلام والحضارة والإنسانية، وهي بانية المجد الأكبر للمسلمين جميعًا بما صنعته في حطين وعين جالوت والمنصورة وغيرها من كبريات المعارك الإسلامية العظيمة.

إنها مصر عمرو بن العاص والمعز لدين الله ومصر الفسطاط والقطائع والقاهرة.

إنها مصر صلاح الدين الأيوبي وقطز وبيبرس، ومصر التي طردت من بلادها جيش نابليون وهزمت جيش انجلترا في رشيد وهي مصر المجد العظيم دائمًا وأبدًا إلى يوم الدين.

السلام والخير والهداية

لقد قالت مصر كلمتها في كل المواقف العظيمة، قالتها في معركة السواري حيث هزمت أساطيل بيزنطية هزيمة لم تعرفها الدنيا أبدًا، وقالتها في معركة حطين على لسان صلاح الدين، وقالتها في معركة عين جالوت على لسان قطز الملك المظفر رحمه الله، وقالتها في ثورة القاهرة الأولى وثورة القاهرة الثانية على لسان عمر مكرم والسادات، وقالتها في ثورة عرابي وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ وثورة ١٥ مايو ١٩٧١، وقالتها في العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هـ مظفرة منصورة بلا اله إلا الله والله أكبر.

وليطمئن شعب مصر الذي لم يعرف إلا الإسلام هاديًا دليلًا مرشدًا وعقيدة له طول عصور التاريخ منذ عام ٢٠ هـ حتى اليوم إن الإسلام وهو وحده صاحب القرار العظيم في أرض الوطن العظيم والسلام والخير والهداية لمن اتبع الهدى.

الهجرة والتاريخ الهجري

الهجرة هي هذا الحادث العظيم، والمعجزة الخالدة، حادث هجرة رسول الله، ﷺ، من مكة إلى المدينة، من أجل الدعوة والرسالة والعقيدة ومن أجل نشر دين الله في الارض، ومعجزة الإسلام الباقية، التي أعز الله بها دينه، ونصر بها رسوله ورفع بها راية التوحيد في الدنيا، ونشر بها لواء الرسالة في الآفاق.

وأما التاريخ الهجري فهو هذا التاريخ المتميز الذي اتخذه المسلمون توقيتاً لهم، وزماناً مميزاً لشريعتهم.. والذي نريد أن نتحدث عن بدايته، وكيف اتخذه المسلمون تاريخاً لحياتهم.

ومن التاريخ الهجري فنحن نعلم أنه لم يكن للعرب تاريخ ثابت يؤرخون به قبل صنيع عمر بن الخطاب، فقبل الإسلام كان بعض العرب يؤرخون بالوقائع المشهورة، والأيام المذكورة الحادثة بينهم، فكانت قريش تؤرخ بالأحداث الكبيرة في حياة العرب. كيوم الفجار، الذي حدث عام « ٣٣ قبل الهجرة، أو عام ٨٩ م ميلادية »، وكحادث الفيل، وحلف الفضول، وموت هشام بن المغيرة المخزومي اجلالّا له، فلقد بعث رسول الله - ﷺ - وقريش تؤرخ بموت هشام، وبعام الفيل، كما يقول المسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » ص ١٨٠)..

ومن الأحداث الكبرى التي كانت تؤرخ بها قريش: موت كعب بن لؤي ٦٣٥ قبل الهجرة، أو ٤٠ قبل الميلاد، وعام الغدر (١٦٣ ق. هـ، أو ٤٦٤ م)، وهو العام الذي نهب فيه بنو يربوع الكسوة التي بعث بها ملوك حمير للكعبة.

ومن الحوادث التي أرخ بها الناس: ميلاد رسول الله، صلوات الله عليه، وبعثته، وكذلك بناء الكعبة على حكم النبي ﷺ، وذلك عام ١٨ قبل الهجرة، ٦٠٥ ميلادية والرسول صلوات الله عليه في الخامسة والثلاثين من عمره، وبين بناء الكعبة والبعثة النبوية خمس سنين. ولقد ولد رسول الله بعد حادث الفيل بخمسين يومًا، وحدث يوم الفجار والرسول صلوات الله عليه ابن العشرين. وقد حضره وهو يومئذ شاب.

وبعد البعثة النبوية الشريفة حدثت أحداث ضخام كبرى في حياة العرب وقريش والرسول وإن كانت لم يؤرخ بها. ومن هذه الأحداث وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة، وبعد ثلاثة أيام من وفاته توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج الرسول الكريم، وذلك للسنة العاشرة من البعثة في العام الخمسين للميلاد النبوي الشريف، وقبل الهجرة بثلاثة أعوام، ويوافق عام ٦١٩ م وكان عمر أبي طالب حين وفاته بضع وثمانون سنة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولقد سمى الرسول والمؤمنون كل سنة بين الهجرة ووفاته صلوات الله عليه باسم مخصوص بها:

فالسنة الأولى بعد الهجرة سموها سنة الإذن، أي الإذن بالهجرة وبالقتال. وسموا السنة الثانية سنة الأمر أي الأمر بالقتال لنزول الأمر فيها. والثالثة سنة التمحيص، لأن غزوة أحد وقعت فيها، وهي التي محص الله بها المسلمين الصادقين، وفيها تزوج الرسول صلوات الله عليه حفصة بنت عمر. وتزوج زينب بنت خزيمة ـ أم المساكين ـ وولد فيها الحسن بن علي. أما السنة الثانية

من الهجرة فهي سنة مشهورة، وفيها بنى الرسول صلوات الله عليه بعائشة، وبنى علي بفاطمة الزهراء، وفيها في السابع عشر من رمضان كانت غزوة بدر الكبرى وفيها فرضت الزكاة، وفرض فيها في شعبان الصوم، وحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وسموا السنة الرابعة سنة الترفئة. وفيها كانت غزوة بني النضير، وتحريم الخمر، وولد فيها الحسين بن علي.

والسنة الخامسة من الهجرة سموا سنة الزلزال أو سنة الأحزاب، ففيها وقعت غزوة الخندق أو الأحزاب. وغزوة قريظة من اليهود، وغزوة دومة الجندل، وهي أولى غزوات الرسول «ﷺ» للروم، وفيها نزلت آية التيمم، وكان حادث الافك.

وسموا السنة السادسة سنة الاستئناس ففيها كان صلح الحديبية، وبيعة الرضوان، وفيها انتصر الروم على الفرس تحقيقًا لوعد الله الصادق ﴿**غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾[1].

وسموا السنة السابعة سنة الاستغلاب وفيها وقعت غزوة خيبر في شهر المحرم. وفيها قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وفيها كذلك وضع اليهود السم في طعام الرسول بعد غزوة خيبر واستمر الرسول - ﷺ - متأثرًا به، مع أنه لفظ الطعام المسموم، حتى وفاته، وقال يوم وفاته: هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري «الابهر عرق متصل بالقلب» من الأكلة التي أكلتها بخيبر، وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدًا، مع ما جمع الله لرسوله من الرسالة والجهاد في سبيل الله. وفيها بعث رسول الله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دعوة الإسلام، وفيها تزوج الرسول ميمونة الهلالية خالة عبدالله بن عباس.

خطبة الوداع، أو خطبة التشريق.

---

(١) سورة الروم الآيات ٢ - ٤.

وسموا السنة الثامنة سنة الفتح لفتح مكة فيها: وقيل سميت سنة الاستواء أي ظهور قوة الإسلام بفتح مكة، وفيها كانت غزوة حنين أيضًا.

وسموا السنة التاسعة من الهجرة سنة البراءة، وفيها في رجب كانت غزوة تبوك، وفي شعبان من هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله. وسبب تسميتها بسنة البراءة يفسره لنا نزول سورة براءة في هذا العام. وفيها قدمت الوفود على رسول الله تعلن دخولها في الإسلام.

أما العاشرة فسميت سنة الوداع، ففيها كانت حجة الوداع، التي خطب فيها رسول الله في يوم عرفة من هذه السنة خطبته المشهورة التي سميت خطبة الوداع أو خطبة التشريق كذلك.

ثم كانت سنة الوفاة، وفاة الرسول الأعظم، ﷺ، عن ثلاث وستين سنة.

وافتتح أبو بكر عهده بحرب أهل الردة، وهو الفتح الأكبر. وانفذ بعد وفاة الرسول جيش أسامة، وقال قولته المشهورة: «لو بقيت وحدي، حتى تأكلني الكلاب، ما أخرت جيشًا أمر رسول الله ﷺ بانفاذه، والوحي ينزل عليه». وكان بعض الصحابة قد أشاروا عليه بتأخير انفاذه ليكون قوة للمسلمين بعدما حدث من ردة العرب. ولكن أبا بكر غزا العدو، ومنع الحوزة، وحمى الذمار، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. وكان جمع القرآن في عهدهَ من أشهر أعماله، وأنصع صفحاته، رضي الله عنه.

وجاء عمر فدون الدواوين، وجند الأجناد ومصر الامصار، وبلغت خيله افريقية، وأوطأ خيله خراسان وأقصى كرمان، وازل ملك بني ساسان، وانتصرت جيوشه على الروم انتصارات مدوية لم يسمع بمثلها الزمان، ومنها نصر اليرموك، ثم فتح مصر وسواحل الشام وهي أحداث مشهورة.

وفي العام السابع عشر من الهجرة اتخذ عمر هجرة رسول الله (ﷺ) مطلعًا للتاريخ الإسلامي ويرى انه رفع إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين

رضي الله «صك» بتاريخ شعبان. فقال عمر: أي شعبان هو، ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ، فاستشارهم في أمر الأوقات، فقالوا: يجب أن تتعرف الحيلة في ذلك من رسوم الفرس، فاستحضروا الهرمزان الفارسي في مسجد رسول الله ﷺ، واستعلموه ذلك. فقال: ان لنا تاريخًا نسميه «ماه روز» أي حساب الشهور والأعوام، فعرَّبوا الكلمة، فقالوا: مؤرخ، وأرخ تاريخًا. فقال عمر لأصحابه: ضعوا للناس تاريخًا يتعاملون به. فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، وقال: البعض: اكتبوا على تاريخ الفرس. وأخذوا يفكرون في الأمر مليًا.

اقامة مجتمع اسلامي كامل.

وجاءت دواع أخرى لوضع تاريخ للإسلام، يؤرخ به المسلمون كل أوقاتهم. ومن ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى الخليفة عمر يقول له: انه تأتينا منك كتب ـ أي رسائل ـ ليس لها تاريخ ـ وجمع عمر ـ على عادته من الشورى ـ أصحاب رسول الله واستشارهم وانتهى الأمر بالمسلمين إلى الاجماع على ما يلي:

١ ـ ضرورة أن يكون للإسلام والمسلمين تاريخ مستقل يؤرخون به..

٢ ـ اتخاذ الهجرة النبوية الشريفة مبدأ للتاريخ الإسلامي، لأنها أظهر الأوقات، وأبعدها من الشبه. وقد اتخذوا شهر المحرم من سنة الهجرة مطلعًا للتاريخ الهجري.

وهذا يدلنا على عظمة حادث الهجرة في حياة الإسلام والمسلمين حتى لقد أجمع المسلمون من أصحاب رسول الله على اتخاذه مبدأ للتاريخ الإسلامي، فالهجرة كانت نجاة لرسول الله من المؤامرة الدنيئة التي دبرت بالليل لقتله ﷺ، وهي انتصار للإسلام وللرسالة ما بعده من نصر، وهي بدء استقرار المسلمين والتقائهم إلى اقامة مجتمع إسلامي كامل، تنفذ فيه تعاليم الإسلام روحًا ونظمًا، تشريعًا وتطبيقًا، عملًا وسلوكًا، ثم هي بدء تكون الدولة

الإسلامية في المدينة وظهورها، وهي أولى دول الإسلام، ورئيسها هو صاحب الرسالة العظمى صلوات الله وسلامه عليه.

وبذلك صار للمسلمين تاريخ معروف.. فكما أرخ اليونانيون مثلًا بملك اسكندر الأكبر، وشهورهم معروفة بكانون الثاني وشباط الخ، وكما أرخ المسيحيون بميلاد عيسى وشهورهم معروفة بيناير وفبراير الخ، وكما أرخت الكنيسة القبطية بمذبحة الاسكندرية المشهورة على يدي الامبراطور دقلديانوس، وسميت مذبحة الشهداء عام ٢٨٣ هـ. وبدأت شهورهم من طوبة وأمشير الخ التي هي أساس التقويم القبطي.

واعتبر المؤرخون المحدثون عام ٤٧٦ هـ. وهي السنة التي سقطت فيها روما تحت حكم الجرمان بداية للعصور الوسطى، وعام ١٤٥٣ هـ وهو تاريخ فتح القسطنطينية.. على يدي محمد الفاتح العثماني بداية العصر الحديث.. كذلك اتخذ المسلمون حادث الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي.

وشهور المحرم، صفر الخ هي شهور التاريخ الهجري، وأسماؤها عربية محضة، والمشهور أنها وضعت في عهد كلاب بن مرة أحد أجداد رسول الله ﷺ قبل الإسلام بنحو قرنين، والمحرم هو اسم للشهر الأول من شهور السنة العربية القمرية، ومن البديهي أنه كان لهذه الشهور قبل كلاب بن مرة أسماء أخرى غير هذه الأسماء، فالمحرم مثلًا كان يسمى «المؤتمر» لأن العرب كانوا يعقدون فيه المؤتمرات للفصل في قضاياهم ومشكلاتهم. ومن البدهي أنهم سموا هذا الشهر بالمحرم لحرمة القتال فيه. فهو أحد الأشهر الأربعة الحرم. وكان لشهر المحرم منزلة كبيرة عند العرب، وقد احتفظ المسلمون له بمثل هذه المكانة، وسماه رسول الله «شهر الله» وندب عليه السلام المسلمين إلى صيامه تطوعًا.

وورد عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله «ﷺ» أي الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال صلوات الله عليه: شهر الله الذي تدعونه «المحرم» رواه أبو

داود وأحمد ومسلم. واليوم العاشر من المحرم هو يوم عاشوراء، ولما قدم رسول الله « ﷺ » المدينة رأى طوائف اليهود فيها تصوم عاشوراء. فسألهم عن ذلك فقالوا انا نصومه تخليدًا لذكرى اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني اسرائيل من فرعون وكيده، ويسر لهم الهجرة من مصر. فقال لهم عليه السلام « نحن أولى بموسى منكم، وإني لاحتسب على الله ان يكفر بصيام هذا اليوم ذنوب العام السابق له »، فصامه صلوات الله عليه. وحبب المسلمين في صيامه، ويروى ان النبي « ﷺ » قد حرص على مخالفة اليهود فندب إلى صوم التاسع « وهو التاسوعاء من المحرم » مع العاشر.

وما يسمونه عاشوراء اليهود هو اليوم العاشر من الشهر السابع العبري « تشرين » الذي كان يسمى عندهم يوم « كيبور » أي يوم الكفارة أو الغفران، وقد جاء أمر اليهود بصيام هذا اليوم وعدم مزاولة الأعمال فيه في أسفار العهد القديم، وهذا اليوم هو يوم الغفران أو عيد الغفران عند اليهود، واسم « كيبور »، معناه الغفران.

وروي عن عائشة أم المؤمنين أن صيام عاشورا يرجع إلى أصل عربي جاهلي « أي لا إلى أصل يهودي » فقد قالت: كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش في الجاهلية. وكان رسول الله « ﷺ » يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فرض رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه، وهو حديث متفق عليه..

وللعاشر من المحرم الذي يوافق ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام حرمة خاصة عند الشيعة وقد حقق الدكتور علي عبد الواحد وافي في مقال نشره في مجلة الأزهر أن العاشر من شهر المحرم لم يوافق اليوم العاشر من الشهر السابع العبري « تشرين » الذي يسمى يوم كيبور أي يوم الكفارة. وذلك في أية سنة من السنين التي قضاها رسول الله ﷺ في المدينة. إذ ان الرسول قد دخل المدينة على أرجح الأقوال يوم الاثنين ١٦ من ربيع الأول الموافق العشرين من

سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية وكان هذا اليوم يوافق اليوم العاشر من شهر تشرين العبري وهو يوم عاشوراء عند اليهود. فلا يمكن أن يكون إذًا يوم العاشر من شهر تشرين العبري قد جاء في العاشر من شهر المحرم العربي بعد ذلك في أي سنة من السنين التي أقامها الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة، سواء اعتبرنا السنة العبرية سنة قمرية أم سنة شمسية، وبالله التوفيق.

فتح مكة وأثره في حياة الرسول

ثلاثة عشر عامًا في حياة الرسول الأعظم « ﷺ » بعد البعثة لقي فيها من قومه القرشيين ما لقي، ولم تجد دعوته لهم من الأمر شيئًا، آمن به قلة من الناس، ولكنها القلة المؤمنة الصامدة الصابرة، المؤيدة من الله وبالله عز وجل.

وبعد ذلك حدثت أحداث ثلاثة كبرى في حياة الرسول الأعظم ﷺ.

• الحدث الأول: هجرة رسول الله من مكة، إلى المدينة وبها صار للإسلام دولة في مدينة رسول الله، بعد الجهاد الطويل، والعذاب المرير، والصبر الكبير. وبهذه الدولة أعز الله الإسلام، ونصر الدين، وحمى الرسالة، وأيد الرسول، ومكن للمسلمين، فامنوا بعد خوف، وقووا بعد ضعف، وعزوا بعد هون، وكانت الهجرة هي الرائدة في هذا المجال، وبسبب ذلك اختيرت مبدأ للتاريخ الإسلامي العظيم..

• والحدث الثاني: النصر المؤزر في بدر، وقد كان تأييدًا من الله للرسول، وبه صار لدولة الإسلام في المدينة شوكة، وضعفت شوكة المشركين في مكة، وصاروا نهبًا للحوادث، وعرضة للهزيمة، وهدفًا لرياح التغيير، الذي أحدثه الإسلام الحنيف في المجتمع العربي..

• والحدث الثالث: فتح مكة، وبه قضى الإسلام على الخطر الذي كان يتهدده كل لحظة، وعلى الأمل الذي كان يراود رؤوس المشركين في القضاء على محمد وأصحابه، وفتح الطريق أمام الإسلام إلى كل مكان في جزيرة

العرب، ولم تعد هناك في الجزيرة قوة تستطيع الوقوف أمام قوة المسلمين الزاحفة الظافرة.

١ ـ ولقد كان فتح مكة ضرورة دينية وسياسية وعسكرية.

فمن الجانب الديني: كانت مكة مركزًا لكل التجمعات المناوئة للرسالة وللدعوة، ومركزًا للوثنية والشرك والكفر، ومن أجل ذلك كان لا بد من القضاء على هذا المركز الوثني..

ومن الجانب السياسي: كانت قريش تتحالف دائمًا مع أعداء الإسلام، وتراسل خصومه، لتجمعهم على حرب رسول الله. وبسبب ذلك كان لا بد من القضاء على قوة قريش ومؤامراتها السياسية.

ومن الجانب العسكري: فان قوة المشركين العسكرية في مكة، كانت دائمًا القوة التي يحسب لها ألف حساب لأنها تستطيع أن تفعل ضد الإسلام كل ما تشاء. وكل ما يحلو لها. ومن أجل ذلك كان لا بد أن تتحطم هذه القوة، حتى لا تظل سدا أمام رسالة الله وشريعته.

٢ ـ وتبدأ الأحداث بعد صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة النبوية، وقد جاء في هذا الصلح النص على وقف الحرب بين المدينة ومكة عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قرين بغير اذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وان من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وان محمدًا لا يدخل مكة معتمرًا هذا العام، ويدخلها العام القابل ـ عام سبعة من الهجرة ـ معتمرًا لمدة ثلاثة أيام بغير سلاح ويخرج منها بعدها هو وأصحابه.

ومضت الأحداث بعد الحديبية: فاعتمر رسول الله في العام السابع، وفي العام السابع كان فتح خيبر، وفيه قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة وقدم

المسلمون المهاجرون إليها. وفي العام الثامن كانت غزوة مؤتة. وفيما بين ذلك كانت دعوة رسول الله للملوك والأمراء إلى الدخول في دين الله.

ثمرة لصلح الحديبية عقدت قبيلة بني بكر من كنانة محالفة مع قريش، وعقدت قبيلة خزاعة محالفة مع رسول الله «ﷺ». وكان بين القبيلتين دماء في الجاهلية. فلما كانت الهدنة التي تلت صلح الحديبية عادت الحرب بين القبيلتين، حرب النار والانتقام، وناصرت قريش بني بكر على خزاعة، فرفدتهم بالسلاح، وقاتلت معهم، وأصابوا منهم ما أصابوا، ناقضين ما كان بينهم وبين رسول الله من مواثيق وعهود التزموا بها، فرحل عمرو بن سالم الخزاعي من مكة إلى المدينة، فقدم على رسول الله في المسجد النبوي الشريف، ووقف ينشد النبي الأكرم:

يا رب إني ناشد محمدا
حلف أبيه وأبينا الا تلدا
ان قريشًا اخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقبلونا ركعًا وسجدا
فانصر هداك الله نصرًا اعتدا
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
ان سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يرغي مزبدا

وتأثر رسول الله تأثرًا عميقًا، وقال: نصرت يا عمرو بن سالم وخرج من المسجد يجر رداءه وهو يقول: لانصرت ان لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي، وان هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب.

كان ما صنعته قريش نقضًا لصلح الحديبية وذلك مما أقلق قريشًا وأقضّ مضاجعهم خوفًا من النتائج المرتقبة لعملهم الطائش. ومن أجل ذلك ذهب أبو سفيان على رأس وفد قريش للسعي في تثبيت عهد الحديبية وان يزاد في مدته، وبعد أن شعر بالخطر يتهدد مكة وتجارتها.

خرج أبو سفيان من مكة، فالتقى بوفد خزاعي عائد من المدينة، فوقف يسألهم: من أين هم قادمون.. فعموا عليه الأمر، ولكن أبا سفيان بذكائه أدرك أنهم قادمون من المدينة، وان رسول الله أحيط علمًا بالأمر وبنقض قريش لمواثيق عهد الحديبية.

وسار أبو سفيان حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته رملة أم حبيبة أم المؤمنين في بيت رسول الله، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟!

قالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله..

قال: لقد أصابك بعدي يا بنية شر.

ثم خرج أبو سفيان فكلم رسول الله، فلم يرد عليه شيئًا، فذهب إلى أبي بكر ليكلم له رسول الله، فرد عليه ما أنا بفاعل، فأتى عمر، فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟!

فأتى عليه فكلمه، فقال له: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه.. فقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعلم لك من الله شيئًا يغني عنك..

وعاد أبو سفيان إلى مكة بخفي حنين. فلما وصل إلى البلد الحرام وروى لأهلها ما حدث لم يصدقوه واتهموه وقالوا له: ويلك، والله ان زاد الرجل على أن لعب بك!

٣ ـ وبدأ رسول الله الاستعداد، وقرر في نفسه السير بأصحابه إلى مكة، ولكنه عليه السلام أخفى هذا القرار في نفسه ولم يفصح بأمره لأحد، حتى لأخص المقربين إليه.

وبعث رسول الله إلى من حوله من العرب، مثل قبائل أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وسليم. وطلب منهم الانضمام إلى جيش المسلمين، وقال «ﷺ»: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة.

وطلب من عائشة أن تهيئ جهازه، ودخل عليها أبو بكر فسألها: أي بنية، أمركم رسول الله ان تجهزوه؟ فأجابته: نعم، فقال: فأين ترينه يريد؟ فأجابت: والله لا أدري!

ستار من السرية

وتجمع الناس في المدينة، وتدفقت الجموع من هنا وهناك، وبلغ عدد المجتمعين عشرة آلاف، وفرض رسول الله السرية المطلقة على العمل الحربي في المدينة وخارجها، وأقام حولها ستارًا من السرية خلال مدة الإعداد للمعركة، لتحقيق المفاجأة الكاملة لقريش في مكة، حتى يدخل البلد الحرام دون قتال.

وكان رسول الله يدعو ويقول: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها.

وأمر الرسول بحراسة جميع الطرق المؤدية إلى مكة وبمنع الدخول أو الخروج من المدينة وإليها، لتظل قريش بمعزل عن العلم بتحركات جيش المسلمين، وبمعزل عن أنباء المدينة.

وأمر الرسول بالقبض على كل من يستراب فيه، وندب عليه السلام عمر بن الخطاب ليتولى حراسة المدينة، وقال له: لا تدعوا أحدًا يمر بكم إلا رددتموه.

وللامعان في السرية بعث ﷺ أبا قتادة في ثمانية نفر سرية إلى بطن أضم

القريبة من المدينة، ليظن الناس أنه يريد التوجه إلى تلك الناحية، حتى تذيع بذلك الأخبار، ولا تعرف قريش شيئًا عن نواياه.. ولكن حاطب بن بلتعة أراد أن يتخذ يدا له عند قريش، فكتب كتابًا يخبرهم فيه بالذي أجمع عليه رسول الله من السير اليهم، وأعطى الكتاب لمولاة لبني عبد المطلب اسمها «سارة»، وجعل لها جائزة على ذلك، فجعلته في رأسها، وفتلت عليه ضفائرها، وخرجت به.

ونزل الوحي من السماء، ليخبر الرسول بذلك، فبعث عليا والزبير، وقال لهما: أدركا أمرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم.. فخرجا حتى أدركاها فاستنزلاها، وسألاها عن الكتاب، فانكرت، وفتشا في رحلها فلم يجدا شيئًا، فهددها علي، وقال: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا.. فأخرجت الكتاب، وأخذاه وأتيا به رسول الله، فسأل «ﷺ» حاطبا: ما حملك على هذا؟ فاعتذر، وعفا عنه رسول الله «ﷺ».

وفي يوم الأربعاء العاشر من رمضان عام ثمانية للهجرة، وهو اليوم الحادي والثلاثون من ديسمبر عام ٦٢٩ م، خرج رسول الله من المدينة، يقود الجيش المؤلف من عشرة آلاف من المسلمين، وسار في طريق مكة، وقريش لا تعلم من الأمر شيئًا. وبهذا تحققت كلمة الله التي نطق بها موسى كليم الله منذ ألفي سنة: «جاء ومعه عشرة آلاف من الأبرار «٢٣ : ٢ تثنية الاشتراع».

مرحلة اثر مرحلة

وعلى أبوب المدينة قدم العباس عم الرسول ﷺ وأعلن اسلامه بين يدي رسول الله. واستقبل المسلمون اسلامه بالتفاؤل والبشر. وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله، وعبدالله بن أبي أمية المخزومي، ابن عمة رسول الله، عاتكة بنت عبد المطلب، قد خرجا لكي يسلما بين يدي رسول الله، فلقيا الرسول الأمين في جيشه بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول

عليه، فاستأذنت لهما أم سلمة زوج رسول الله «ﷺ»، وكلمته في شأنهما، وقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك قال: «ﷺ»: لا حاجة لي بهما لأنهما كانا يهجوان رسول الله في مكة ويذمانه وينفران الناس منه.

فقال أبو سفيان ابن عم رسول الله، وكان معه ابن له: والله ليأذن لي رسول الله أو لآخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا.. فعطف عليهما رسول الله، وأذن لهما، فدخلا عليه، وأسلما بين يديه وأنشد أبو سفيان قصيدة يمدح فيها رسول الله، ويعتذر عما فرط منه.

وقطع رسول الله الطريق بين مكة والمدينة، مرحلة اثر مرحلة. ونزل «ﷺ» ومعه الجيش الكبير بمر الظهران وهي على مسيرة يوم من مكة المكرمة. وقريش لا تدري شيئًا، وقد حجبت الأخبار عنها، فلا تدري ما الرسول فاعل...

وفي إحدى الليالي خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون شيئًا أو يسمعون بخبر، فلقيهم في الطريق العباس عم رسول الله، وكان قد انضم إلى جيش المسلمين، سمعهم العباس يتحادثون.

ـ يقول أبو سفيان: والله ما رأيت كالليلة نيرانًا قط، ولا عسكرًا قط.

ـ ويرد عليه بديل: هذه والله خزاعة...

ـ فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

ويعرف العباس صوت أبي سفيان فيناديه: يا أبا حنظلة.

ويجيبه أبو سفيان: يا أبا الفضل.

فيقول له أبو سفيان: ما لك؟ فداك أبي وأمي.

فيرد عليه العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله.

فيقول له أبو سفيان: فما الحيلة إذن؟ فداك أبي وأمي.

ـ ويجيبه العباس: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب ورائي حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك.

ويركب أبو سفيان خلف العباس، ويرجع صاحباه ويمر العباس به على معسكر المسلمين، فجعل كلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ وإذا رأوا فرس رسول الله والعباس عليها قالوا: عم رسول الله على فرسه حتى مر بنا عمر بن الخطاب، فقال: ومن هذا؟ وقام إلى العباس، فرأى أبا سفيان، فقال: أبو سفيان عدو الله، والحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج يعدو نحو رسول الله، وتوجه العباس بأبي سفيان نحو رسول الله، ودخل عمر على الرسول فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

ويبادر العباس قائلًا: يا رسول الله إني قد اجرتـه. ثم جلس العبـاس إلى رسول الله يكلمه، وعمر يكثر من الكلام عن أبي سفيان، فيبادره العباس: مهلًا يا عمر، فوالله -لو كان رجلًا من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف فيقول عمر له: مهلا يا عباس، فوالله لأسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من اسلام الخطاب لو أسلم.

ويقول الرسول «ﷺ»: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به.

ويذهب به العباس إلى رحله، فيبيت عنده، ويصبح الصباح، فيغدو بأبي سفيان إلى رسول الله فلما رآه الرسول «ﷺ» قال: ويحك يا أبا سفيان ألم

يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟

فيقول أبو سفيان لرسول الله: بأبي أنت وأمي، ما احلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا شيئًا بعد.

فيقول له الرسول «ﷺ»: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم اني رسول الله.

فيرد أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.

- فيلتفت إليه العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم وأشهده أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

فيشهد أبو سفيان أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فيقول العباس: يا رسول الله، ان أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا..

فيقول الرسول «ﷺ»: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن.

فيقوم أبو سفيان ويستأذن لينصرف، فيقول رسول الله للعباس: يا عباس احبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها...

وأخذت تمر القبائل على راياتها، فكلما مرت قبيلة، قال أبو سفيان: من هذه يا عباس؟ فيقول: سليم، فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول أبو سفيان: يا عباس من هذه؟ فيقول له العباس: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة. وظل كذلك حتى مر رسول الله «ﷺ» في كتيبته الخضراء، قال أبو سفيان: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول له العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فيرد أبو سفيان: ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا

أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا...

فيقول العباس: يا أبا سفيان انها النبوة، فيقول أبو سفيان، نعم، إذن.

ويبادره العباس بقوله: النجاء يا أبا سفيان إلى قومك، ويسير أبو سفيان إلى مكة، حتى إذا جاء قومه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن... وتسمعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة، فتقوم وتأخذ بشارب زوجها أبي سفيان، وتقول قبحت من طليعة قوم!

- فيقول أبو سفيان: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن..

فيقول القوم له: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ فيقول أبو سفيان: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.. ومن دخل المسجد فهو آمن..

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

أنت أبر الناس

وتقدم رسول الله جنوب البلد الحرام مكة، وقسم جيشه إلى أربع فرق، وامرها جميعًا ان لا تقاتل، وان لا تسفك دماء.

١ - فرقة يقودها خالد بن الوليد، وتدخل مكة من الليط. أسفل البلدة، وتمثل الجناح الأيمن للجيش..

٢ - وفرقة يقودها الزبير، وتدخل مكة من كدى وتمثل الجناح الأيسر للجيش.

٣ - وفرقة يقودها سعد بن عبادة، وتدخلها من كداء، ثم خلفه ابنه قيس على الراية، فكان هو الذي دخل بها.

٤ - وفرقة يقودها أبو هبيرة بين يدي رسول الله، ودخل بها رسـول الله

من أذاخر، حتى نزل بأعلى كله وضربت له «ﷺ» هنالك قبته العالية.

وأمر رسول الله المسلمين ان لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ولما مر سعد بن عبادة على أبي سفيان صاح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم اذل الله قريشًا.

وسمع ذلك الناس، فاسرع عمر وعثمان وابن عوف إلى رسول الله، وقالوا له: يا رسول الله، إنا لا نأمن سعد أن تكون منه في قريش صولة، وأنشد ضرار بن الخطاب شعرًا يستعطف به رسول الله.

وجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أأمرت بقتل قومك: فانه زعم سعد ومن معه حين مر بنا انه قاتلنا أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، ونحى رسول الله سعد بن عبادة وأخذ الراية منه ودفعها الى ابنه قيس، وقال له أهذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشًا.

ودخلت فرق جيش المسلمين مكة، لم تلق مقاومة تذكر، الا في جبهة خالد، فقد اعترض طريقه صفوان بن امية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، في جمع من قريش، وشهروا سلاحهم ورموا جيش خالد بالنبل، ووقفوا في طريق دخوله إلى مكة فقاتلهم خالد، وقتل منهم بعض نفر من قريش، وأربعة نفر من هذيل، وانهزموا اقبح هزيمة ولم يقتل من رجال خالد إلا اثنان، ضلا الطريق.

وأخذ حماس بن خالد القرشي سلاحًا، فقالت له امرأته: والله ما أرى انه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، فقال لها: والله إني لأرجو ان اخدمك بعضهم، وانضم إلى صفوان وعكرمة، فلن يغني عنهم عن الله شيئا..

جاء الحق وزهق الباطل

ونزل رسول الله مكة، واطمأن الناس، واقيمت القبة لرسول الله على مقربة من قبري أبو طالب وزوجته خديجة.

وبعد أن استراح رسول الله في القبة وقد حقق الله له وللمسلمين النصر، خرج رسول الله، فركب ناقته، وسار بها حتى دخل البيت الحرام، فطاف به سبعا، يستلم الركن بعصا في يده الشريفة، وكلما مر بصنم يشير بها إليه، ويقول: وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقًا، فما أشار رسول الله لوجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم.

وفي حديث ابن مسعود: فجعل رسول الله يطعنها ويقول: جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد والتفت رسول الله إلى من حوله وهو يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

ثم صلى رسول الله خلف المقام ركعتين، وجلس ناحية من المسجد، وبعث بلالًا فاحضر عثمان بن أبي طلحة، ومعه مفتاح الكعبة، فلما حضر فتح رسول الله بابها، ودخلها فصلى فيها ركعتين، أخرج وأغلقها ودفع المفتاح إلى عثمان وقال له: هاك مفتاحك، اليوم يوم بر ووفاء..

وقال: خذوها - أي المفاتيح - يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم أحد الا ظالم. وجعل «ﷺ» السقاية لعمه العباس.

وعندما وقف الرسول بباب الكعبة، وقد اجتمع له الناس في البيت الحرام خطبهم فقال فيما قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

«الا كل مأثرة - او دم أو حال يدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج».

«يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ومعظمها بالاباء. الناس من آدم، وآدم من تراب».

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون اني فاعل بكم؟. قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم: قال: اذهبوا فانتم الطلقاء.

خير أرض الله

ثم قام رسول الله على الصفا يدعو الله، وقد احدقت به الأبصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ رسول الله من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال «ﷺ» لهم: معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم.

وحانت صلاة الظهر فأذَّن بلال فوق ظهر الكعبة، ثم وقف رسول الله وسط الناس وقال:

لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة.

ثم أردف «ﷺ» مخاطبًا مكة:

انك لخير أرض الله واحب ارض الله إلي، ولولا إني أخرجت منك ما خرجت.

ثم قال «ﷺ»:

ان الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ شاهدكم غائبكم. ولا يحل عنها من غنائمها شيء.

٥ - وهكذا تم الفتح، وجاء النصر، واعز الله دينه وهزم الشرك

والمشركين، وكان ذلك يوم الجمعة العشرين من رمضان عام ثمانية من الهجرة، ويوافق العاشر من يناير عام ٦٣٠ ميلادية.

وفي يوم الفتح، وحين دخل رسول الله الكعبة ومعه بلال، فأمره أن يؤذن للصلاة وسمع الناس آذان بلال وسمعه فيمن سمعوه: أبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام، وكانوا جلوسًا بفناء الكعبة..

فقال عتاب: لقد أكرم الله ابن أسيد أن لا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه، فقال الحارث: اما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته، فرد أبو سفيان أما أنا فلا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه.

فلما خرج رسول الله من الكعبة مر بهم، فقال لقد عملت الذي قلتم، وذكر لهم ما قالوه، فقال الحارث وعتاب نشهد انك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: لقد اخبرك.

ثم قال لهم رسول الله «ﷺ»: إنما مثلي ومثلكم كما قال يوسف لأخوته: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين..

وأراد فضالة بن عمر بن الملوح الليثي قتل رسول الله: وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه رسول الله أخذ عمرًا الذهول، وقال له الرسول: أفضالة؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء أذكر الله عز وجل.

فضحك النبي «ﷺ» وقال له: استغفر الله.

٦ - وبتمام الفتح طاشت احلام رؤوس الشرك، وهربوا في كل مكان..

ليلة القدر

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿إنَّا أنزلناهُ في ليلةِ القَدْرِ ★ وما أدراكَ ما ليلةُ القدرِ★؟ ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شَهْرٍ ★ تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربِّهِمْ من كلِّ أمرٍ ★ سلامٌ هي حتى مَطلَعِ الفَجْرِ﴾[1].

والمعنى أنا أنزلنا القرآن الحكيم في ليلة مباركة هي ليلة القدر وهي الليلة التي انزل فيها القرآن، من السماوات العلى إلى السماء الأولى، أو هي الليلة التي نزل فيها أمين الوحى جبريل الامين بالقرآن على خاتم الانبياء وسيد المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى آله أجمعين، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة إنَّا كنَّا مُنْذِرين ★ فيها يُفْرَقُ كلُّ امرٍ حكيم ★ امرًا من عندنا إنَّا كنَّا مُرْسِلين ★ رحمةً من ربِّكَ إنه هُوَ السميعُ العليمُ ★ رَبِّ السمواتِ والأرضِ وَمَا بينَهُمَا إن كنتم مُوقِنِينَ ★ لا إله إلا هُوَ يُحيي وَيُميتُ، رَبُّكُم وربُّ آبائِكم الأوَّلين﴾[2].

---

(١) سورة القدر بكاملها.

(٢) سورة الدخان الآيات ٣ـ٨.

ويقول الله تعالى: ﴿شهْر رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ هدًى للناس وبيناتٍ من الهُدَى والفرقانِ﴾[1].

وحدّث عن ليلة القدر وفضلها ولا حرج، ففيها يقضي الله كل أجل ورزق وعمل وكل خلق. وفيها تتنزل الملائكة والروح الامين جبريل بإذن الله بكل أمر قدره الله وقضاه على عباده وهي ليلة سلام ورحمة وخير وسعادة للمؤمنين كافة من لدن مغربها حتى مطلع الفجر، وقد روي عن رسول الله ﷺ انه قال:

«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» وقيامها انما هو احياؤها بالتهجد فيها والصلاة والدعاء والابتهال وقراءة القرآن، ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: اذا وافقت ليلة القدر، ماذا أقول فيها؟ قال صلوات الله عليه. قولي: اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني.

وقال سفيان النوري الزاهد: «الدعاء في تلك الليلة أحب إلي».

وقال الشعبي في ليلة القدر: ليلها كنهارها، قال الشافعي يستحب ان يكون اجتهاد المؤمن في العبادة في نهارها كاجتهاده فيها في ليلها. وفي حديث ابن عباس مرفوعًا: ان الله ينظر ليلة القدر الى المؤمنين من أمة محمد ﷺ، فيعفو عنهم ويرحمهم الا أربعة: مدمن خمر وقاطع رحم، وعاقا أي لوالديه ومشاحنًا أي كثير الخصومات والعداوات للناس.

وقد أخفى الله ليلة القدر ليتوفر المؤمنون على الاجتهاد في طلبها، وعلى العبادة والدعاء فيها، وعلى احيائها والقيام في ترقبها.

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي او في غيره؟ قال صلوات الله عليه: بلى، هي في رمضان قلت: تكون مع الانبياء ما كانوا فاذا قبضوا رفعت او هي الى يوم القيامة؟ قال: هي إلى يوم القيامة..، قلت في أي رمضان هي، أي في أي يوم من أيامه؟ قال صلوات الله عليه: التمسوها في العشر الاواخر.

قلت: في أي العشر هي؟ قال صلوات الله عليه: التمسوها في السبع الاواخر، ووردت أحاديث أخرى كثير فيها..

ومن ثم اختلف المسلمون في تحديدها، وجمهور العلماء على أنها في رمضان كل سنة، فمنهم من قال: هي في الشهر كله، ومنهم من قال هي في النصف الثاني منه، فقيل هي ليلة سبع عشرة، وقيل: ليلة تسع عشرة وقال الجمهور هي منحصرة في العشر الاواخر من رمضان، وروي عن الحسن ومالك انها تطلب في جميع ليالي العشر، وقال بعض العلماء هي ليلة احدى وعشرين أو ليلة سبع وعشرين، وقيل هي ليلة خمس وعشرين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في ليلة القدر: من كان منكم متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين. وفي رواية من كان متحريها فليتحرها ليلة السابعة من العشر الاواخر..

وجملة الامر ان الله عز وجل كرم ليلة نزول القرآن من العرش الى السماء الاولى تكريمًا كبيرًا فسمى هذه الليلة ليلة القدر أي الشرف والعظمة والجلال، وجعلها في العبادة أفضل من ألف شهر، وخصها بالسلام والرحمة للمؤمنين كافة وأمر الملائكة والروح الأمين جبريل عليه السلام، أن ينزل فيها الى السماء الاولى بكل ما قدره الله وقضاه وحكم به على عباده.

ومن أجل ذلك أمر رسول الله المؤمنين بأحيائها وقيامها وبالعبادة والتهجد والطاعة، وقراءة القرآن فيها، كما أمرهم بالاجتهاد والجد في طلبها، وقد اخفاها الله عز وجل عن عباده ليجتهدوا في العبادة وفي طلب هذه الليلة المباركة التي فضلها الله على كل ليالي السنة تفضيلًا كبيرًا.

ولله تعالى مواسم خير ورحمة ومغفرة ورضوان لا يعلمها الا هو، ومن أجل ذلك كان على المؤمنين واجب الاجتهاد في الطاعة والعبادة عسى ان يوافق عملهم الصالح وقتًا من هذه الاوقات السعيدة، فينالوا بها شرف الدنيا وعز الطاعة وثواب الآخرة.

الله امنحنا رضاك وعفوك ورحمتك ومغفرتك وثوابك وجزاءك الحسن، انك بعبادك رحيم، وبالمؤمنين عفو غفور كريم.

وصلى الله على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

يا عدي، والله ما هذا بملك

- ١ -

ها هو ذا عدي بن حاتم الطائي في طريقه من الشام إلى المدينة، في يوم من ايام شهر شعبان من العام العاشر من الهجرة، يقصد رسول الله ليبايعه على الاسلام، ان تراءى له ان يبايعه على الاسلام.

وكان عدي سيدا في قومه من بني طيّئ، شريفًا في بلاده، من أرض حائل، وكان ملكًا في قومه، يصدرون عن رأيه، ويسيرون خلف رايته، ويقسمون له في الغنائم، ويؤثرونه بالربع منها، على ما كانت العرب تصنع لملوكها.

وكانت بلاده لقربها من الشام، حيث حكم قيصر، وحيث النصرانية ذائعة، قد ذاعت بين أهلها النصرانية قبل الاسلام، فكان عدي نصرانيًا ركوسيًا، أي ذو دين يجمع من شعائر المسيحية، ووثنية الصابئين، ما يجمع، أشياء من هنا، وأشياء من هناك، تتسم بسمة الدين، فعدي عليها ملتزم بها.

وجاء الاسلام بنوره الوضاء، واهتزت الصحراء بدعوته السمحاء، وذاع نبأها في كل مكان من جزيرة العرب؛ وعلم عدي بكل ما كان في مكة والمدينة من أحداث جسام.

وكان دين عدي، ووثنية العرب من حوله، يحولان بينه وبين أن يصغى لنداء السماء؛ فكره الرسول وكره الاسلام كرهًا شديدًا.

وتوالت انتصارات الاسلام: بدر، خيبر، فتح مكة، حنين، يومًا بعد يوم، وعامًا اثر عام، وطيّئ على ما هي عليه من ضلالها وبهتانها، وعدي على ما انطوت عليه نفسه من كراهية للاسلام، وحقد على الرسول.

وأخذ يفكر في الأمر مليًا، جيوش محمد في كل مكان، رايات المسلمين تخفق فوق كل بقعة، انتصارات جنود محمد من حوله يدوي بذكرها العرب وقبائلهم والأمم من حولهم كأنها الشمس لا تخفى في أي مكان..

ـ ان محمدًا لن يتركنا.

ـ وان جيوشه لا بد أن تقدم علينا في يوم قريب.

ـ لقد هدم المسلمون الأصنام في كل مكان، فهل يبقون على أصنام طيّئ وحدها.. لا، لن يكون ذلك.

بهذا كان عدي يحدث نفسه.

وأخذ يفكر في الأمر: ماذا لو انقض المسلمون على بلادنا هنا؟ وما يكون المصير؟ أنا الذي سوف يجيء عليه الدور في يوم من الأيام.

وقال عدي لغلام له، كان راعيًا لإبله، أعدد لي ابلًا صعابًا شدادًا، تكون قريبًا مني أبدًا، وعلى استعداد للسير في أي وقت، فاذا سمعت بجيش لمحمد قد قدم إلى بلادنا فأنبئني على عجل، ولا تتوان في اعلامي بذلك.

ونفذ غلامه كل ما أمر به.. وأخذ ينتظر قدوم خيول المسلمين وجيوشهم، ان قدمت إلى بلاد حائل، في يوم من الأيام، ليخبره بذلك مولاه، وليبلغه أول شيء بالنبأ، لعله يجد من الخطب مخلصًا

ـ ٢ ـ

ولم تلبث الأحداث ان صدقت ظنون عدي، فها هو ذا علي بن أبي طالب يخرج من المدينة في كتيبة من كتائب الاسلام، فيها مائة وخمسون مجاهدًا

مائة منهم على بعير، وخمسون على خمسين فرسًا، يتقدمهم علي ومعه راية سوداء، ولواء أبيض.

والكتيبة سائرة مجدة، في طريقها إلى بلاد حائل، لتهدم بيت أصنامها الأكبر، الذي بنته طيّئ، واتجهت اليه تعبده من دون الله.

وفي سحر يوم من الأيام جاء غلام عدي اليه يقول له:

يا عدي، ما كنت صانعًا اذا غشيتك خيل محمد، فأصنعه الآن، فأني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا هذه جيوش محمد.

فقال له عدي: قرب إلي ابلي.

فقربها الغلام، فركب عدي هو وأهله وولده وما خف من ماله، وسار بها في الصحراء، وقال: الحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وأعجلته المفاجأة عن أن يأخذ اختًا له معه.

وشنت كتيبة المسلمين الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا بيت أصنامهم، وأخذوا من الغنائم والأسرى ما اخذوا، وفي الأسرى اخت عدي، وكان عدي قد نجا بنفسه وأهله وولده.

- ٣ -

وسار عدي إلى الشام عن طريق الجوشية، وهي موضع بين نجد والشام، ونجا بنفسه من القتل او الاسر، أو هكذا كان يتصور انه نجا بنفسه.

وأقام في الشام في بلاد الغساسنة، مع أهل دينه، ولكنه عاش ذليلًا حيران نادمًا على ما فرط في جنب الله.

وعادت خيول المسلمين وفرسانهم بالنصر والغنائم والأسرى، ومعهم ثلاثة أسياف كانت في خزائن عدي وكذلك ثلاثة أدراع له، وعلى الأسرى أبو قتادة، وعلى الابل عبدالله بن عتيك. وقسم علي الغنائم في الطريق وعزل

نصيب رسول الله، ولم يقسم الأسرى من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة.

ودخل الجيش الظافر المدينة، وبلغ علي رسول الله بالنصر والبشرى، فوضعت الاسرى من النساء في بيت تجاه باب المسجد كانت توضع فيه السبايا.

وسار رسول الله إلى السبايا، يرى ويسمع ما يكون من مظلمة لهن. ومعه علي بن أبي طالب.

فمر رسول الله بأخت عدي فقامت اليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت:

يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك.

فقال لها صلوات الله عليه، ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم.

قال لها صلوات الله عليه: الفار من الله ورسوله. فسكتت ابنة حاتم، ومضى رسول الله في طريقه وتركها.

وفي الغد ذهب رسول الله إلى هؤلاء الأسيرات يرى ويسمع أيضًا مظالمهن، ومعه علي..

فنهضت اخت عدي، فقالت له ما قالته بالأمس، وقال لها رسول الله مثل ما قاله بالأمس: ومضى وتركها.

وفي اليوم التالي ذهب كذلك رسول الله بنفسه اليهم، فسار وخلفه علي، فمر بها، وقد يئست منه، فصمتت فأشار اليها علي: ان قومي فكلمي رسول الله فقامت اليه فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منَّ الله عليك.

فرد عليها رسول الله في صوت جليل، كان له رنة البشري في نفس هذه المرأة الذليلة.

« قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة،

حتى يبلغك إلى بلادك. ثم آذنيني..»

فأقامت اخت عدي على وعد كريم، وأمل جد عظيم وهي تقول لنفسها.

أي ملاك كريم هذا الرجل؟ وأي انسان عظيم قد أشربت نفسه الانسانية في أرفع قيمها هذا الانسان؟

وجاء إلى المدينة ركب من التجار من بلى او قضاعة، فعزمت في نفسها أن تخرج معهم إلى أخيها ببلاد الشام.

فجاءت إلى رسول الله، فقالت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ فكساها رسول الله، وأعطاها نفقة، ووهبها راحلة تركبها.

وخرجت ابنة حاتم معهم، حتى قدمت على أخيها في الشام.

وفوجيء عدي بابل تؤمه، وعلى احداها اخته تنزل من هودجها، فإذا هي هي.

ونزلت اخت عدي لتقول له في سخط شديد، وغضب قوي، وعتاب مرير، وهي توجه كلامها اليه:

القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك، فرحلت بهم، وتركتني، تركت بقية والدك، عورتك وعرضك.

فلم يجد عدي ما يرد به على اخته، الا أن قال لها، أي اخت ظني بي خيرًا، ولا تقولي الا خيرًا، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت كل ما ذكرت.. واغرورقت عيناه بالدموع، ونزلت اخته لتجد ما هو فيه من هوان وذلة بعد العز المكين، والشرف الكبير، فصمتت وتركت بقية اللوم في طوايا نفسها.

وأقام عدي وأقامت اخته معه، وقصت عليه ما لقيته من محمد وأصحابه من كرم ونبل وخير.

وفي يوم من الأيام، أخذ عدي يستشير اخته، وكانت امرأة حازمة، ذات عقل رصين، فقال لها:

أي اختي، ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فردت عليه:

يا عدي، أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق اليه فضله، وان يكن ملكًا فلن تذل في عز اليمن ـ وقبيلة طيء يمنية من كهلان على ما نعلم ـ واسترسلت اخت عدي تقول له: وأنت أنت.

ورد عليها عدي: واللّه ان هذا للرأي، وأني لأرجو ان يجعل الله يده في يدي.

وخرج عدي في أهله وولده وبقية ماله، حتى قدم المدينة، سائرًا مغذًا يقصد رسول الله.

وأناخ برواحله أمام المسجد النبوي، ودخل على رسول الله وهو في مسجده جالس بين أصحابه.

ـ ٥ ـ

وها هو ذا عدي يقف بين يدي رسول الله، يردد: يا محمد

فيرد عليه الرسول: من الرجل؟

فيعود الجواب إلى رسول الله: عدي بن حاتم ويكرم رسول الله عديًا، ويقوم اليه يصافحه، وينطلق به إلى بيته، ويقول يا عدي، جئت بغير امان ولا كتاب

وفي الطريق، طريق الرسول إلى بيته، ومعه ضيفه عدي بن حاتم، تلقاه امرأة كبيرة ضعيفة، فتستوقف رسول الله فيقف لها طويلًا، تكلمه في حاجتها، ويستمع اليها ويطيل الاستماع.

ويتعجب عدي، ويقول في نفسه: والله ما هذا بملك.

ويمضي رسول الله بضيفه عدي، حتى يدخل به بيته، ويتناول وسادة من أدم محشوة ليفًا، فيرمي بها إلى عدي، قائلًا له: اجلس على هذه، ويرد عدي: بل انت فاجلس عليها، فيقول له الرسول: بل انت فيجلس عدي عليها، ويجلس رسول الله بالأرض.

ويمضي عجب عدي من امر محمد إلى غايته، ويقول في نفسه:

والله ما هذا بأمر ملك.

ثم التفت اليه رسول الله وقال له:

ـ ياعدي، هل تعلم من اله سوى الله؟

ـ فأجاب عدي: لا، يا رسول الله.

ـ وعاد الرسول صلوات الله عليه، يقول له:

ـ يا عدي، هل تعلم شيئًا أكبر من الله؟

ـ ويجيب عدي رسول الله ﷺ أن لا.

ـ ويعود رسول الله ﷺ إلى الحديث:

ـ يا عدي..

ـ ان اليهود مغضوب عليهم، وان النصارى ضالون.

ـ ويسكت عدي.

ـ ويعود الرسول ﷺ إلى الحديث: «يا عدي، أسلم، تسلم..»

ـ ويقول عدي لرسول الله صلوات الله عليه: ان لي دينًا.

ـ ويقول له رسول الله في حلم وأناة: «أنا أعلم بدينك منك». «ألست ترأس قومك؟»

ـ ويقول عدي: بلى.

ـ ويقول الرسول: ألست تأكل المرباع؟

ـ ويقول عدي: بلى.

وفي رواية اخرى ان رسول الله قال له: ايه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسيًا؟

ويرد عدي: بلى. فقال له رسول الله: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟

ويرد عدي: بلى.

قال له صلوات الله عليه: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك.

قال عدي: أجل والله، وملكه العجب، وقال في نفسه، والله ما هو بملك ان هو الا نبي مرسل.

ويتلفت اليه الرسول فيقول له يا عدي، أسلم تسلم..

لعلك انما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال، ان يفيض فيهم حتى يوجد من يأخذه.

ولعلك يا عدي انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ فوالله ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها، حتى تزور هذا البيت لا تخاف.

ولعلك يا عدي انما يمنعك من دخول فيه انك ترى ان الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم[1].

(١) وفي رواية اخرى: أن رسول الله قال له: قد اظن انه انما يمنعك من الدخول في الدين غضاضة تراها من حولي، وانك ترى الناس قلبًا واحدا ـ هل رأيت الحيرة؟ فيقول عدي: لم آتها وقد علمت مكانها، فيقول له الرسول: يوشك ان تخرج الظعينة منها بغير جوار =

واخذ عدي يقول في نفسه: يا لله، ماذا أسمع؟ ما هذا الصوت الجليل الذي يردد: يا عدي، يا عدي، يا عدي، كيف يصنع محمد بي كل ما يصنع، يكرم اختي وانا عدوه، ويكرمني وأنا خصم له، ويرحب بي في بيته، وقلبي يتمنى له الهلاك، ويجلس على الأرض أمامي، وأنا من أنا: طريد شريد ذليل.. ماذا أسمع: يا عدي، يا عدي، يا عدي؛ ما هو الله بملك، ان هو الا نبي مرسل.. ولا يملك عدي الا ان يقول وهو في عجب شديد، وقد افاق من غيبوبته الطويلة، وتساؤله الملح: ما هذا الدين، أي دين هو، أي شريعة تلك اي عقيدة انسانية كانت تلك العقيدة.. ومد يديه لتعتنق يد محمد، وهو يقول:

أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدًا رسول الله(١).

= حتى تطوف بالبيت ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز..
ويملك التعجب من عدي كل اقطار نفسه فيقول لرسول الله في استغراب شديد:
كسرى بن هرمز!!
ويقول له الرسول: نعم
ويستمر الرسول في حديثه لعدي:
وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته
ـ الاصابة لابن حجر.

(١) مصادر المقال:
١ ـ تاريخ الطبري، الجزء الثاني في أخبار الوفود، عام ٩هـ ومعنى ذلك ان هذه الوفادة كانت في العام التاسع، لكن في كتاب «الإصابة» لابن حجر (المتوفي عام ٨٥٢) أنها كانت في شعبان من العام العاشر.
٢ ـ سيرة ابن هشام الجزء الرابع في اخبار الوفود، في العام التاسع ايضًا.
٣ ـ الاصابة الجزء الثاني ص ٤٦١.
٤ ـ الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الاصابة، ص ٤٢ الجزء الثالث.
٥ ـ مختصر سيرة الرسول لعبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٨٨ وقد توفي عدي بن حاتم عام ٦٨هـ عن مائة سنة كما يذكر ابن حجر، او عام ٦٧هـ كما يذكر ابن عبد البر في الاستيعاب. وأغلب الروايات على انه عاش مائة وعشرين سنة فيكون ميلاده عام ٥٣ قبل الهجرة، أي أنه ولد في العالم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ وهو عام الفيل سنة ٥٧١م.

مُثل عُليا للمرأة المسلمة

- ١ -

ام سلمة: هند بنت ابي أمية المخزومية، في الشرف الرفيع، والمجد الباذخ من قريش، أبوها «زاد الراكب» احد أجواد العرب المشهورين.

شاء لها الحظ العظيم ان تشهد مولد الرسالة، ونزول الوحي، وأن تستمع الى آيات الكتاب الحكيم البينات، يتلوها رسول الله، ويبلغها قومه، فآمنت برسالة الاسلام، ودخلت في دين الله، وأصبحت من بطلات الاسلام والمجاهدات في سبيل الله..

وتزوجت احد ابناء عمومتها، وهو أبو سلمة بن عبد الاسد المخزومي من أشراف قريش، وسادات قومه، وكان أبوه عبد الأسد ذا منزلة عالية في مكة وكان من التجار القريشيين المرموقين فيها، أما أمه نهى من هي؟ برة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، فأبوه سلمة هو ابن عمة رسول الله، ولد مع الرسول في عام واحد هو عام الفيل (٥٧٠م)، وإلى جانب ذلك كان أبو سلمة اخا لرسول الله في الرضاعة، وأخا كذلك لحمزة عم رسول الله صلوات الله عليه، فالرسول وحمزة وأبو سلمة اخوة رضاع، وكذلك كان ابن عم رسول الله أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اخا لهم في الرضاع وكان أشد الناس شبهًا برسول الله.

صلات كثيرة جمعت بين أبي سلمة ورسول الله ﷺ. وعاش ابو سلمة

طفولته وشبابه في شرف باذخ، ومجد كبير، وجاء الاسلام، ونزل القرآن وهبط الوحي من السماء برسالة الاسلام على خاتم الانبياء، فكان أبو سلمة من السابقين الاولين إلى الدخول في دين الله وهو وزوجته السيدة الطاهرة هند بنت ابي أمية المخزومية.

ولقى الزوجان الكريمان ما لقيا في سبيل الله، وعاشا صامدين ثابتين على دينهما، رغم ما كان ينزل بهما من ضيم وعذاب وهوان في سبيل عقيدتهما. ثم كانت هجرة جماعات من المسلمين إلى الحبشة السنة السادسة للبعثة النبوية الشريفة، فرارًا من الاضطهاد والتعذيب، وكان الزوجان الطاهران في قافلة المسلمين المهاجرين إلى بلد النجاشي، حيث ركبوا جميعًا البحر من جدة، في سفينة أقلتهم اليها، وتحملا ما تحملا في سبيل الله والدين، من آلام الغربة والفقر والتشريد، وعاشا في الحبشة سنوات معدودات ولد لهما فيها هناك ابنهما سلمة، وصارت هند تكنى بأم سلمة، وعظمت منزلتها بين المسلمين في أرض الغربة.

وبلغ المسلمين المهاجرين بعد سنوات من هجرتهم ان قريشًا دخلت في دين الله، ورفعت عن المسلمين كل ما كانت تنزله بهم من هوان وتعذيب، فعادوا الى وطنهم، وملء قلوبهم الفرح والبشرى، ومن عاد الى البلد الحرام، الزوجان الجليلان ام سلمة وابو سلمة، وابنهما سلمة... ولكن ويا للأسف، خاب ظنهم فقد كانت قريش لا تزال على ما هي عليه من غلوائها وجبروتها، عادوا ليجدوا قريشًا اشد على الاسلام والمسلمين، مما كانت عليه من قبل، من عداوة وحقد وانتقام.

وقد عاد ثانية الى الحبشة كثير من المسلمين الذين ساءهم استمرار قريش على كفرها وعنادها وطغيانها، ولكن ام سلمة وأبا سلمة آثرا البقاء في مكة، وتحمل الآلام من أجل العقيدة، كراهية للغربة، ونفورًا من حياةالغرباء، ودخل ابو سلمة مكة بعد عودته من الحبشة بجوار خاله ابي طالب بن عبد

المطلب وعاش هو وزوجته في البلد الذي رأى طفولتها، ورعى شبابها، عاشا ثابتين على دينهما وعقيدتها.

وكره رجال من بني مخزوم صمود الزوجين الكريمين من اجل دينهما، فمشوا الى ابي طالب عم رسول الله عليه السلام، يقولون له:

يا أبا طالب، ما هذا؟ منعت منا ابن اخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا ابي سلمة تمنعه منا؟ فرد عليهم ابو طالب ردًا شديدًا قائلًا: انه استجار بي، وهو ابن اختي، وان انا لم امنع ابن اختي لم امنع ابن اخي، وعاد المخزوميون إلى رحالهم بالفشل والخيبة.

- ٢ -

ويشتد ايذاء قريش للمسلمين، ومنهم أبو سلمة، فيجمع ابو سلمة الرأي على الهجرة الى المدينة قبل هجرة رسول الله إليها بثلاث سنوات..

ونفذ ابو سلمة ما عزم عليه، أتى ببعيره، فحمل عليه زوجته ام سلمة، ومعها ابنها الطفل الصغير سلمة، وأمسك أبو سلمة بزمام البعير يقوده، وخرج من مكة.

فلما رأته رجال من بني مخزوم قومه، قاموا إليه فقالو له: «هكذا يا أبا سلمة، شأنك الدهر، حل وارتحال، لا تريح ولا تستريح خرجت إلى الحبشة بزوجتك، فذقتما الغربة وتركناكما وشأنكما وهذه نفسك الآن قد زينت لك الغربة مرة اخرى إلى «طيبة» انت حر تصنع بنفسك ما تريد، ولكن لست بالحر في أمر زوجتك صاحبتنا هذه، لا، لن نتركها تسير في بلاد الغربة كما تشاء».

ونزع المخزوميون زمام البعير من يده، وأخذوا منه زوجته ام سلمة وابنها معها، لأنها بنتهم قبل ان تكون زوجته، وأراد ابو سلمة السلام، فترك

زوجته في ايدي قومها المخزوميين، ومعها ابنه وخرج هو مهاجراً في سبيل الله إلى طيبة.

ولكن أقارب ابي سلمة غضبوا لصنيع أبناء عمومتهم معه، وقالوا لهم: لا، والله، لا نترك سلمة ابننا عند أمه أبداً، فقد نزعتموها من يدي زوجها، وأخذتموها عنوة وتركتموه يسير وحده.

وتجاذب أولاد الاعمام سلمة الطفل بينهم آل ابي سلمة يريدون ان يكون معهم، وآل أم سلمة يريدون اخذه ليكون معهم ومع أمه حتى خلعوا يده، وانطلق به آل أبيه إلى حيهم. وهكذا صارت ام سلمة محبوسة عند آلها. وأبو سلمة يعيش في المدينةمهاجراً، أما سلمة الطفل فقد خطف من امه وهو عند قوم أبيه لقد فرقت الايام بين الام وزوجها وابنها، فكيف تكون حال هذه الام المسكينة اذن؟

لقد كانت ام سلمة تخرج كل غداة، فتجلس بالابطح، فما تزال تبكي فراق زوجها وابنها، وظلت على ذلك المنوال عاماً كاملًا..

- ٣ -

وفي يوم من الايام مر بها وهي في الابطح رجل من بني عمها، فرأى بكاءها وشحوبها وأحزانها، فرثى لحالها، ودمعت عيناه من اجلها، وعاد الرجل الى قومه يقول لهم:

الا ترحمون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وولدها. فلم يملكوا الا ان يقولوا: شأنها وما تريد فجاء إليها فريق منهم، وقالوا لها: أي هند، الحقي بزوجك ان شئت.

وجاء قوم زوجها، فردوا إليها ابنها. وركبت ام سلمة بعيرها، وأخذت ابنها سلمة فوضعته في حجرها، وخرجت تريد المدينة وزوجها المقيم فيها، وليس معها احد من خلق الله يصحبها في الطريق. وسارت حتى اذا خرجت

من مكة وصارت في (التنعيم) لقيها الرجل المؤمن الصحابي عثمان يقول لها: أريد زوجي بالمدينة.

قال لها: أومعك احد؟

قالت: لا، والله ما معي الا الله وابني هذا.

فأخذ عثمان بزمام البعير يقوده، وتقول أم سلمة: والله ما صحبت رجلًا من العرب قط، أرى انه كان اكرم من عثمان، كان اذا بلغ الراحة اناخ بي، ثم تأخر عني، حتى اذا نزلت من على الجمل، جاء فحط عن الجمل، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشحرة فنام تحتها قليلًا فاذا جاء السير، قام الى الجمل، فقدمه، وأعد رحلي ثم استأخر عني. فقال: اركبي، فاذا ركبت فاستويت على الجمل أتى فأخذ بزمامه، فقاد بي حتى منزل آخر، فلم يزل يصنع بي ذلك حتى قدمت المدينة عند قباء، فقال لي: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

- ٤ -

وكان ابو سلمة نازلًا في محلة بني عمرو بن عوف بقباء. فسارت الزوجة إلى زوجها.. وكانت فرحة اللقاء. وتقول ام سلمة: والله ما أعلم أهل بيت في الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت رفيق سفر قط اكرم من عثمان بن طلحة..

وضربت أم سلمة بذلك أروع مثل في الوفاء لدينها ولزوجها ولابنها الطفل الصغير.. وكانت أم سلمة اول امرأة مسلمة هاجرت إلى المدينة، كما كانت من المهاجرات الى الحبشة وكما كانت من السابقات إلى الاسلام

وعاش الزوجان الطاهران في (قباء) و(المدينة) وكانت أيامهما كلها كفاحًا في سبيل الله، ونضالًا ما بعده نضال من أجل العقيدة. وهاجر رسول الله وجماعات من الصحابة إلى المدينة.

وشهد أبو سلمة بدرًا، ورأى نصر بدر، ثم شهد أحدًا، وناضل فيها نضال الابطال، وخرج من المعركة جريحًا، وهو يدافع عن رسول الله.

وفي العام الرابع من الهجرة مات أبو سلمة ابن عمة رسول الله ﷺ، مشيعًا بالدموع وبأحلى الذكريات المجيدة وبوفاء زوجته لسيرته العاطرة، ولابنها من زوجها الراحل البطل. وجاءت أم سلمة لرسول الله تقول له: كيف أقول يا رسول الله؟ قال لها قولي: اللهم اغفر لنا وله، واعقبني منه عقبى صالحة، وعاشت الزوجة البطلة ترعى أبناءها: سلمة، وعمرا، ورقية، وزينب.

وتحملت أم سلمة الآلام من أجل لقمة العيش لها ولابنائها الصغار اليتامى، فليس لها أحد يرعى اولادها، ويقوم بأمورهم، ويمت اليهم بصلة القربى، الا رسول الله ﷺ.

ومضت الايام، والرسول الاعظم يحمل عبء هذه الاسرة المسلمة فيما يحمله من أعباء، وأم سلمة كسيرة الجناح بين السيدات المسلمات وأبناؤها الصغار يأوون منها إلى ركن غير شديد.

ولننظر إلى مدى الوفاء من أم سلمة لزوجها.. قبل وفاة أبي سلمة بقليل قالت له الزوجة المؤمنة في الهام المؤمن وصدق نبوءته، وجلال مخيلته: يا أبا سلمة، بلغني انه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ولم تتزوج، الا جمع الله بينهما في الجنة.

فقال لها: يا أم سلمة، أعاهدك الا أتزوج بعدك، والا تتزوجي بعدي،

ثم استدرك ابو سلمة وقال لزوجته، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا: ولكن اتطيعنني يا أم سلمة؟

قالت : نعم وكرامة، قال: اذا مت تزوجي.

وأخذ يدعو لها، اللهم ارزق ام سلمة بعدي رجلًا خيرا مني، لا يخزيها، ولا يؤذيها.

وكان القضاء، وكان الأجل، ومات أبو سلمة، وتتساءل ام سلمة بينها وبين نفسها: ومن يكون هو خيرا من أبي سلمة؟

ومشت الايام، وأم سلمة تعظم في كل عين لجهادها وبلائها وحسن رعايتها لابنائها، ولوفائها النادر لذكرى زوجها، حتى سماها الناس: «أيم العرب» أي المرأة التي تعيش مترهلة وتضرب أروع الامثال في الوفاء لماضيها وحاضرها.

- ٦ -

وجاء أبو بكر يخطب أم سلمة، فأبت.

وجاءها عمر بن الخطاب، فأبت ولم تلبث أم سلمة ان جاءتها البشرى. رأى رسول الله مقدار ما عانت هذه المسلمة البطلة وأنه أن لها ان تستريح، وأن يحمل عبئها وعبء ابنائها، وهم اولاد ابن عمته، فبعث إليها رسول الله يخطبها، ليحمل عنها كل العبء.

وماذا قالت ام سلمة؟ قالت: مرحبا، أخبر رسول الله اني ذات أطفال، وليس احد من اوليائي شاهدًا. فبعث إليها رسول الله يطمئنها ويحيي قولها.

وفي الغد جاء رسول الله ومعه عمر، فخطبها على سنة الله ورسوله فوكلت عمر في زواجها برسول الله. ويروى عن أم سلمة انها قالت: أتاني رسول الله فكلمني وبيننا حجاب، فخطبني، فقلت: وما تريد إليَّ يا رسول الله؟ اني

امرأة قد أدبر سني، واني أم أيتام وإني شديدة الغيرة.

فقال لي رسول الله، ﷺ: أما السن فأنا أكبر منك، وأما أيتامك فعلى الله وعلى رسوله، وأما الغيرة فيذهبها الله.

وفي شوال من العام الرابع للهجرة دخلت أم سلمة على رسول الله عروسًا اول العشاء، وقامت آخر الليل تطحن الشعير لتصنع منه خبزًا، وأخذ عمار بن ياسر حليف بني مخزوم زينب بنت أبي سلمة من أمهات المؤمنين، وكرمها الله ورسوله تكريمًا، وتوفي عنها رسول الله ﷺ، وعمرت بعده طويلًا حتى بلغت التسعين، فكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين.

وعاشت حتى كان مقتل الحسين بن علي عليه السلام، ولم تلبث بعده الا قليلًا. وانتقلت الى جوار الله في العام الواحد والستين بعد الهجرة فكأنها عاشت قبل الهجرة تسعة وعشرين عامًا، واذن يكون ميلادها في العام الرابع والعشرين قبل الهجرة والرسول ﷺ في التسعة والعشرين من عمره.

رحمها الله، وحشرها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

من تاريخ الاسلام في العصور الوسطى
إضافات جديدة يضيفها إلى مصادرنا التاريخية الإسلامية
كتاب القبيلة الثالثة عشرة

تأليف: آرثر كويستلر
وترجمة: ابراهيم زكي خورشيد

﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه: أن اضرب بعصاك الحجر، فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا قد علم كل أناس مشربهم﴾[1].

اليهود اثنتا عشرة قبيلة أو أسباطًا، أو أممًا.. أما الشيء الذي حدث أخيرًا، وبعد الرسالة فهو ما يمكن أن يسمى «القبيلة الثالثة عشرة»... وهي التي يقص علينا هذا الكتاب قصتها العجيبة الغريبة حقًا...

الدولة الخزْارية:

إنها الدولة الخزارية التي قامت في القرون الوسطى.. قوامها الشعب الخزري، وهو شعب من ارومة تركية، كانت له امبراطورية قديمة ذات مركز قوة ضخمة في وسط آسيا وفي اوروبا الشرقية، عصر شارلمان امبراطور الغرب الذي بعث بسفارة سياسية إلى الرشيد عام ١٨١هـ/٧٩٧م، ولقد امتدت هذه الامبراطورية من البحر الاسود إلى بحر قزوين اي من القوقاز إلى الفولجا، وكانت تقع بين امبراطوريتين عظيمتين: الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية الشرقية، وكانت امبراطورية الخزر هي القوة الثالثة العالمية من القرن الثامن حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٠.

من هو مؤلف الكتاب؟

يبحث تاريخ هذه الامبراطورية السياسي والديني، كاتب متعمق، هو آرثر كويستلر، في هذا الكتاب الخصب، الذي جمع مادته من مختلف المصادر، عربية ويهودية وغربية وشرقية، حتى الأساطير والتراث الشعبي الخزري رجع اليه المؤلف ليكمل منه حلقات التاريخ حين كان يصمت المؤرخون عن احداث هذه الفترة العجيبة.

والمؤلف مجري من مواليد ١٩٠٥م من أصل يهودي ودرس دراساته الجامعية في فينا، ومنح عام ١٩١٨م جائزة «سونتج» من جامعة كوبنهاجن، لما اسدى من خدمات للثقافة الأوروبية، وانتخبته الجمعية الملكية الأدبية في انجلترا، من الزملاء العشرين في الأدب، واعيد طبع مؤلفاته جميعها في عشرين مجلدًا، كما يقول مترجم الكتاب.

التعريف بالكتاب:

«القبيلة الثالثة عشرة» هذا الكتاب الصغير الحجم، الغزير المادة التاريخية، الوثيق المصادر، الذي يكشف عن مجهولات كثيرة قد اثار ضجة كبيرة في جميع الأوساط العالمية، واسخط الصهيونيين وانصارهم سخطًا شديدًا، ووصفه صحفي بريطاني بأنه من الكتب التي تحدث الانفجار كتبه استاذ من الاساتذة القادرين على تبسيط الآراء العلمية.

.. هكذا ذكر المترجم في تصديره للكتاب..

«المترجم هو من اعلام الثقافة الحديثة، وممن عملوا في خدمة التراث العربي الاسلامي، وخدمة التراث الانساني مدة طويلة، وهو احد اصحاب «دائرة المعارف الاسلامية» الذين قاموا بترجمتها ونشرها باللغة العربية، فأسدوا بذلك فضلًا كبيرًا للعقل العربي الحديث.

افتراء اليهود على التاريخ:

هل تعرف الرأي الذائع الذي يذهب إلى ان الفريق الأكبر من الشعب اليهودي الحديث عاش اجداده في فلسطين، وهاجروا منها إلى اوروبا، ثم هم اليوم يعودون إلى ارضهم التي هاجروا منها، ليكونوا فيها الشعب الاسرائيلي من جديد.

ان هذا الرأي محض افتراء على الحقيقة والتاريخ والحضارة الانسانية، والمؤرخون المحدثون سواء كانوا نمساويين ام اسرائيليين ام بولنديين، يؤكدون ان الشعب اليهودي الحديث، ليس اصله من فلسطين، بل من القوقاز وليس أصله ساميًا، بل اصله خزري، كما ان المد الاكبر للهجرات اليهودية لم يفض من البحر المتوسط عابرًا فرنسا والمانيا الى الشرق وها هوذا ينقلب راجعًا مرة اخرى في خطى ثابتة من الشرق إلى الغرب، من القوفاز عابرًا اوكرانيا إلى بولندة ومنها إلى اوروبا.. بل ان الشواهد المجتمعة تجعل الانسان ميالًا إلى الاتفاق مع اجماع المؤرخين البولنديين في رأيهم بأن «الفريق الأكبر من اليهود في العصور الأولى اصلهم من بلاد الخزر، ومن ثم فان نصيب الخزر في التكوين السلالي لليهود، كان عنصرًا أساسًا، بل كان في جميع الاحتمالات هو العنصر السائد كما يقول المؤلف للكتاب ص ١١٠.

صلات الشعب اليهودي بالخزر:

والصلة بين شعب الخزر واليهود صلة تاريخية، فان ملك الخزر في عام ١٢٢هـ/٧٤٠م هو وحاشيته والطبقة العسكرية الحاكمة، قد اعتنقوا اليهودية واصبحت هذه الديانة هي ديانة دولة الخزر الجديدة التي اختاروها لهم بدلًا من الوثنية التي كانوا فيها، وكانوا يحذرون من ديانة القوتين العالميتين اللتين تجاورانهم: الديانة الاسلامية التي تؤمن بها الشعوب الاسلامية، والديانة المسيحية التي تؤمن بها شعوب الامبراطورية البيزنطية.

واذا كانت القوى العالمية، قبيل ظهور الاسلام متمثلة في ثلاث:

الامبراطورية الفارسية، والامبراطورية البيزنطية، التي انتهى امرها بنصر عظيم على جيوش فارس عام ٦٢٧م، بعد الهزيمة الساحقة التي انزلتها بهم فارس عام ٦١٩م، والقوة الثالثة هي مملكة الاتراك الغربيين التي كان الشعب الخزري هو القوة الفعالة فيها، ثم لم يلبث هذا الشعب ان خلفها، فان القوة العالمية، بعد ظهور الاسلام تركزت في قوى ثلاث أيضًا: القوة الاسلامية، والقوة الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبراطورية الخزرية.

وقد اصطدمت الجيوش الاسلامية بالخزر على حدود الخلافة مرارًا، وكانت الدولة الخزرية، هي التي حمت جناح الامبراطورية البيزنطية طويلًا، من القوة الاسلامية، واعترفت بيزنطة بفضل الخزر عليهم، فتزوج ولي عهد الامبراطور البيزنطي أميرة خزرية، قدر لابنها ان يحكم بيزنطة باسم ليو الخزري.

الرحالة العرب وشعب الخزر:

وقد تحدث عن شعب الخزر طويلًا، الرحالة العربي ابن فضلان، في رحلته او سفارته السياسية التي قام بها، في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله عام ٣٠٩هـ/٩٢١-٩٢٢م إلى بلاد بلغار الفولجا، وكان الطريق المباشر من بغداد إلى الفولجا، يمر بجبال القوقاز وبلاد الخزر، ومن ثم تحاشى ابن فضلان المرور بأرض الخزر، فقام بدورة كبيرة حول الشاطئ الشرقي لبحر قزوين. وقد حيل بين ابن فضلان وزيارة العاصمة الخزرية، وكان السبب المباشر في هذه الرحلة هو خطاب دعوة موجهة من ملك البلغار، إلى الخليفة المقتدر، يسأله فيه أن يبعث اليه بعلماء يعلمون شعبه اصول الاسلام، وان يساعده على اقامة قلعة عسكرية تعينه على ان يتحدى مولاه الأكبر ملك الخزر.

وكانت عاصمة الخزر في اول الأمر هي مدينة بلنجر في السفوح الشمالية لجبال القوقاز، ثم نقلت بعد غارات العرب المسلحة في القرن الثامن الميلادي على بلادهم إلى مدينة «سمندو»، على الشاطىء الغربي للقوقاز، ثم إلى «اتل» على مصب نهر الفولجا.

بواعث اعتناق اليهودية:

وكان اعتناق الخزر لليهودية عام ١٢٢هـ/٧٤٠م لبواعث سياسية، خوفًا من القوتين المجاورتين لها: القوة الاسلامية في دمشق والهند والصين، والقوة المسيحية إلى الغرب في بيزنطة وأوروبا.

وكان المساعد الأكبر في ادارة الدولة الخزرية للامبراطور الخزري يهوديًا، وهو الذي اقنع ملكهم باعتناق اليهودية.

ويتحدث البكري في كتابه «المسالك والممالك» عن السبب المباشر في اعتناق ملك الخزر اليهودية، فيقول: ان احد كبار رجال حاشية الملك الخزري، اقنعه بان يدعو علماء من اهل الكتب المقدسة الاسلامية والمسيحية واليهودية، إلى حوار امامه، يتضح منه الأمر له، ليكون اختياره للدين الجديد مبنيًا على أساس متين، وان الملك حاور اسقفًا نصرانيًا فلم يرتض كلامه ثم حاور فقيهًا مسلمًا متكلمًا بارعًا يجيد الجدل، ولكن رجل الحاشية وهو يهودي استمال الملك إلى دينه حتى اعتنق اليهودية.

ولا ريب ايضًا ان الخزر قد رأوا في عقيدتهم الوثنية، ضربًا من الجنون الذي لا يتفق مع رغبتهم للملك، وبنائهم الدولة، لأن عقيدتهم الشامانية البدائية، ما هي الا عقيدة همجية لا تصلح لبناء الملك.

وصارت الدولة الخزرية اليهودية مناط أمل كل يهودي، ورحل اليها اليهود من كل مكان.

وبلغت الدولة الخزرية أوج قوتها في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي بعد تهود الملك بولان.

ولم يلبث التاريخ ان سارت دورته، وظهرت القبائل الروسية على حدود الدولة الخزرية، وكانت مصادمات وحروب بينهما استمرت طويلًا.. وكان الروس وثنيين ايضًا، ولم يلبثوا ان اعتنقوا المسيحية، حيث دخلت فيها

(اولجا) اميرة كييف، وارملة الأمير (ايجور) بمناسبة زيارتها للقسطنطينية عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م ونجحت بيزنطة في سياستها مع الروس، من حيث فشلت جهودها من قبل، مع الخزر، وكان مبعوثون مسيحيون من قبلها إلى الخزر ومنهم دوتمار الذي وكل اليه الامبراطور ميخائيل الثالث، هو واخوه الأكبر، القديس ميثوديوس القيام بمهمة الدعوة إلى المسيحية، في بلاد الخزر، واقيمت الحفلات والمآدب الضخمة في بيزنطة للأميرة الروسية «اولجا» والتي دخلت في المسيحية. ولكن ابنها «سيناتوسلاف» عاد إلى الوثنية، مخالفًا لسياسة امه، وهو الذي استولى على مدينة كييف الخزرية، عام ٩٦٢م، ودمر مدينة «اتل»، عاصمة الخزر عام ٩٦٥م. كما دمر قعلة «سركل» الخزرية ايضًا في العام نفسه، وبعد وفاته عاد ابنه فلاديمير الى عقيدة الكنيسة الرومية الارثوذوكسية عام ٩٨٦م وكانت تتنازعه الديانات الكبرى: الاسلام والمسيحية واليهودية، فبعث اليه ملك البلغار بعثة من العلماء المسلمين، لشرح الاسلام امامه. فلما اخبروه بتحريم الخمر ولحم الخنزير في الاسلام قال: ان الشراب متعة الروس، وهم لا يستطيعون ان يعيشوا بدونه، وحاوره وفد مسيحي الماني، على مذهب الروم الكاثوليك، فلما شرحوا له الصيام في مذهبهم رفض الدخول فيه. وجاء دور اليهود الخزر، فقال لهم، انتم مشردون في الأرض، فلا نقبل دينكم، والا شردنا مثلكم، وجاء دور الوفد المسيحي البيزنطي، فتردد الأمير فلاديمير في قبول مذهبهم، ولكن الامبراطور البيزنطي وعده ان يزوجه أخته، فتنصر الأمير الروسي.

وكان ذلك من التحولات العجيبة، بل كان هذا ايذانًاباضمحلال قوة الخزر، فيما بين عامي ١٢٤٥ و١٢٤٧م كان المغول قد اقاموا اكبر امبراطورية بدوية رآها العالم، وامتدت هذه الامبراطورية من هنغاريا إلى الصين.

وحوالي هذا الوقت نفسه انضم الهنغاريون والبولنديون والاسكندناويون إلى الكنيسة اللاتينية في روما.

التحريض على غزو فلسطين:

وقامت الحروب بين كييف الروسية ودولة الخزر، واستمرت طويلًا وساعدت بيزنطة الروس على الخزر، ثم كانت حملات جنكيز خان على الشرق واوروبا وعلى بلاد الخزر، فقد غشيهم الغزو المغولي ودمر امبراطوريتهم الضعيفة تدميرًا تامًا.

على أنه حدث في القرب الثاني عشر الميلادي، في بلاد الخزر حركة بدائية، لحرب صليبية، ترمي الى غزو فلسطين بقوة السلاح، وكان المحرض على هذه الحركة، هو سليمان بن روحي وابنه مناحم، وهما يهوديان. وكتبا رسائل الى جميع اليهود في كل مكان في الأراضي المجاورة لهما يقولان فيها: انه قد حان القوت لجمع شتات اسرائيل من جميع البقاع في مدينة اورشليم المقدسة. وكان لهذه الحركة اثر ضئيل، ومع انها نشأت في بلاد الخزر، فان مركزها انتقل سريعًا إلى كردستان. وتسمى مناحم باسم داود، الذي جمع جيشًا من اليهود المحليين في كردستان، لتنفيذ احلامه، ولكنه لم يستطع عمل شيء وينسب «درع داود» المسدس الى «داود» هذا، منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وظهر هذا الشعار على العلم اليهودي في براغ عام ١٥٢٧م.

الهجرة إلى اوروبا الشرقية:

وقبل الفتح المغولي لبلاد الخزر، كان الشعب الخزري قد استطاع ان يقيم في النهاية مراكز يهودية كبرى في اوروبا الشرقية.

ويقول مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» ان معظم من اعتنقوا اليهودية في القرون الوسطى، كانوا من الخزر. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى بولندا وإلى ليستوانيا وهنغاريا والبلقان، حيث أقاموا الجماعات اليهودية الشرقية، التي اصبحت بدورها الاغلبية الغالبية من الشعب اليهودي في العالم، حتى ان المؤرخين ليتفقون على ان الهجرة من بلاد الخزر، كانت بلا شك من اسباب نمو الشعب اليهودي البولندي، فالفريق الاكبر من السكان اليهود البولنديين،

أصلهم من بلاد الخزر، بل يذهب الكثيرون من المؤرخين الى ان اليهود الشرقيين كلهم، من اصل خزري، فان الشعوب اليهودية الخزرية قد هاجرت صوب بولندا، ثم انتشرت خلال عدة قرون في انحاء اوروبا الشرقية.

الخلاصة:

وبعد فان هذا الكتاب «القبيلة الثالثة عشرة» كتاب مثير حقًا: والقسم الأول منه يدور حول امبراطورية الخزر، واعتناقها لليهودية ثم سقوطها.

والقسم الثاني منه يتناول تراث الخزر بالشرح.

ففي الباب الاول من الكتاب تتبع المؤلف تاريخ امبراطورية الخزر معتمدًا على المصادر القليلة التي بقيت في التراث الانساني.

وفي الباب الثاني: جمع الشواهد التاريخية التي تدل على ان قوام الشعب اليهودي الشرقي، ومن ثم العالمي، ينتمي إلى اصل خزري تركي، اكثر من انتمائه إلى اصل سامي.

وفي الفصل الأخير من الكتاب حاول المؤلف ان يوضح، ان الشواهد المستقاة من علم الانسان تؤكد التاريخ، في دحض الاعتقاد الذائع، بقيام جنس يهودي ينحدر من القبيلة المذكورة في التوراة.

والكتاب مع صغره حافل بشتى المصادر التاريخية وبالمادة العلمية الواسعة التي يعجز المحققون من علماء التاريخ عن جمعها.

انه ثمرة عميقة لعمل علمي جاد متواصل، لا نملك معه الا الاعجاب، والا المزيد من التقدير للمؤلف وللمترجم، ولكل من عمل على طبع هذا الكتاب القيم النفيس.

الإنسانية والطوفان

- ١ -

الانسانية اليوم غارقة في موج لجي من التمرد على شرائع الله، وعلى نواميس الحياة الطبيعية وعلى القيم الحضارية الاصيلة، التي بناها جهد الانسان في ظلال الدين، وبتوجيهه الكريم.

كانت الانسانية في ظلال الوثنيات الجاهلية قد عادت الى انحرافاتها الضالة، وكادت تغرق في طوفان جديد من الشرك والكفر والضلال، فجاء الاسلام العظيم لينتشلها من قاع الهاوية، وسار بها الى التوحيد الكامل، والسلام الشامل، والاخاء الظليل، والعدل النبيل الى الحضارة المثلى، حضارة الاسلام ومدينته الفاضلة.

وتنمرت اليهودية الحاقدة، والصليبية الجاهلة والقوميات البائدة، والعصبيات الجاحدة، والعقول الجامدة بالاسلام، وبحضارته، وبمثله، وبقيمه الانسانية، ونصبت جميعها الشراك للاسلام ولنهضات الشعوب السلامية. قامت الحروب الصليبية وغزوات التتار، وحروب الابادة في اسبانيا ضد مسلمي الاندلس، وقامت المدن الاوروبية التجارية، ثم الدول الاستعمارية في اوربا، أسبانيا والبرتَغال اولًا، ثم انجلترا وفرنسا بغزو العالم واستعماره، ونهب ثرواته، والاستيلاء على كنوزه الاسلامية بقيود من حديد، وجعلت حضارة اوربا هي صاحبة النفوذ والسيادة في بلاد الاسلام عوضًا عن حضارة الشرق

ومدنيته، وأشاعت الجهل والفقر والمرض والجحود والتخلف في كل مكان.

ولكن الله انتصر للاسلام، ولكرامة الانسان، فقامت حروب التحرير. وكثر دوي الثورات، في كل مكان من أجل التحرير والتقدم والنهضة.

وجاء الانسان المسلم الجديد ليبني بلاده، وليصنع لها حاضرًا مشرقًا ومستقبلًا باسمًا، فوجد أوربا قد خربت العقول والقلوب جميعًا، حتى لقد أصبحت تفكر بمنطق أوربا، وتزن كل شيء بموازين حضارة الغرب وتحاول ان تقلد الغرب في كل شيء، فلا استقلال ولا شخصية، ولا أيمان بالاصالة ولا بالتراث ولا بالدين.

واصبحت بلاد المسلمين تحاكى اوربا في كل شيء حتى في الحادها وكفرها، وفي انهيارها وفسوقها وحتى في العرى والموبقات والفاحشة والبهتان العظيم.

وتشابهت في كل مكان من العالم، وفي كل امة من الدنيا، مسلمة او غير مسلمة افكار الزيغ والتنكر لوجود الله ولقيم الاديان.. فما عاد بالانسانية الى مجابهة اعظم طوفان من الانهيار والفساد والفوضى والالحاد والتوتر والقلق.

لا بد من ان تدمر هذه الحضارة السائدة، حضارة المادة والثورة على كل خلق وكل دين وكل عرف وكل قيمة انسانية شريفة.

لقد اغرقت أوربا بلاد الاسلام معها في كل ما اقترفته ونشرته من موبقات وسيئات وضلالات. ان اوربا تحارب بكل الوسائل عودة بلاد الاسلام الى دينها وإلى حضارتها والى ماضيها العظيم.. لأنها تريد ان تفرق معها في هذا الطوفان الجديد..

لا أمل في انقاذ السفينة، وفي نجاة الحضارة.. الا باعتناق الاسلام، وبالايمان به، وبالرجوع الى نواميسه، رجوعًا تامًا كاملًا شاملًا، رجوعًا لا تردد فيه، ولا عدول عنه لأي سبب من الاسباب.

اما الاسلام وأما الطوفان لا بد ان يعي العالم كله هذا النداء وهذا الشعار..

هذا هو الحل.. الحل لا في بلادنا ولا في مختلف البلاد الاسلامية فحسب، بل وفي جميع العالم وكافة الشعوب.

اما ان تؤمن الانسانية بالاسلام.. واما ان تغرق في الطوفان الكبير الذي يتجمع ليدمر العالم والحضارة وتراث الانسانية وكنوزها الروحية والفنية.

انه لا يبعد ان نسمع بعد قليل الشعراء يقفون على اطلال العواصم الحضارية الكبرى في اروبا والعالم الجديد ليرثوا الحضارة التي قامت ثم انحرفت ثم بادت على ظهر هذه البلاد.

ولكن العالم الاسلامي عالم الاسلام والقرآن. والحضارة الاسلامية، عالم المثل والقيم والمبادئ الشريفة، عالم الامل والعزم والطموح والصلابة والروح عالم الفضائل والعقائد الجليلة. لا بد له اليوم. لكي ينجو من الطوفان من العودة الى الاسلام، حتى لا يفاجأ بصوت القدر الحكيم، يقول له: لا عاصم اليوم من امر الله.

مرحبا بالنداء البطل

وأهلًا بالصوت الجميل

الى الدين... إلى الاسلام.. إلى البناء.. إلى العمل..

وما احلى ما يقول ابو ريشة:

من هنا شق الهدى اكمامه … وتهادى موكبا في موكب
وآتى الدنيا فرفت طربا … وانتشت من عبقه المنسكب
وتغنت بالمروءات التي … عرفتها في فتاها العربي
أصيد ضاقت به صحراؤه … فاعدته لافق أرحب
هب للفتح فأدمى تحته … حافر المهر جبين الكوكب
وأمانيه انتفاض الارض من … غيهب الذل وذل الغيهب

ان الدين عند الله الاسلام.

ان شريعتنا هي دين التوحيد والامل والعمل والبناء، وهي أصل الحضارة والتقدم، وهي المنطلق لشعوب الاسلام الى النهضة والقوة.. وإلى الحضارة والعزة.. والى السيادة في الارض، والى نشر اجمل وأنبل وأمثل الاصول والقيم الحضارية الجليلة، الحرية، والاخاء، والرحمة، والاحسان، والمساواة بين الناس جميعًا.

فهرس